نقوش
في جدار الوعي

د. وليد قشيحي



جميع الحقوق محفوظة لدا: مكتبة ضَاد، الإلكترونية.©

تمّ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أشرف غالب

t.me/twinkling4

إهداء

• إلى كلِّ مَن وَضَع لبنةً في جدار وعْي هذه الأمة؛ إيمانًا بدوْرها, وأملًا في نهضتها

تقديم

نعم.. ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.. (1)

كان ذلك يومَ استجاب إنسانُ هذه الأمَّة لدعوة السماء، فاستعاد إنسانيته المفقودة وأعادها لمَن حوله، ناشرًا الخيرَ والمعروفَ بين الناس ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، دافعًا كلَّ أشكال المنْكر الذي يقع على أخيه الإنسان من قهرٍ وفقر وعبودية وضياع.

حينذاك نشأتِ الحضارة الإسلامية على وعْي المواطن المسلم, وتصوُّرِه الرشيد والبسيط والنافع عن الألوهية والكون والإنسان والحياة، فإذا بالنور يغمرُ كلَّ مكانٍ حلَّ به ذلك المؤمن الفاعل، وهكذا دخل الناسُ في دين الله أفواجًا، واتَّسعت الأرض التي يؤذن فيها للصلاة والفلاح، مُشرقة بنور ربها!

ولكن ماذا حدث بعد؟!

لقدْ أصبحنا أمةً كبيرةَ الحجم ضعيفةَ الأثر.. تناسلتِ الأجيال، لكن لم تتناسلِ الأفكار، وانْسلخنا من رداء المعرفة، وتخلَّينا عن دوْرنا في الحياة، وعنْ ريادتنا الأخلاقية, وعنْ رصيدنا في عالم القيم، حتَّى قد تبدَّل الحالُ وساءتِ الأحوال، ولم تعدِ الأمَّةُ بتلك الخيرية التي كانت، وهذا هو النظامُ الإلهي الذي لا يُحابي أحدًا ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ (0).

يتمسَّك الكُسالى بحقيقةٍ ناقصة تبدو الرحمةُ في ظاهرها، وإن كان باطنُها يعمق أزمتنا الحضارية؛ وهي أنَّهم يمتلكون النصَّ الأعظم والدستورَ المُحكم والكتاب العزيز القادر على إخراج النّاس من الظُّلمات إلى النور،

وهذه نصفُ الحقيقة.. أمّا النصفُ الآخر المغيّب والمعمّى عليه

فهوَ أنَّ النصوص المقدَّسة لا تصنع وحدَها نهضة وإصلاحًا في المجتمع ما لم تتمثل في إنسانٍ يحملُ مبادئها ويترجمها سلوكيًّا، ويعيدُ المجتمع بعلمِه وعمله إلى سواء السبيل، أمّا الكتب والرسالات السماوية فهي كتبُ هداية، ولم ينزلها اللهُ على البشر لتعملَ مِن تلقاء نفسها، فلا هي نزلتْ لتُقطع بها الجبال أو يكلم بها الموتى!

وما أبلغ قول الشيخ محمد الغزالي: (الضمير المعتلُّ والفكر المختلُّ ليسا من الإسلام في شيء. وقد انتمتْ إلى الإسلام اليوم أممٌ فاقدةُ الوعي، عوجاءُ الخطى، قد يحسبها البعض أممًا حيَّة ولكنَّها مُغمى عليها. والحياةُ الإسلامية تقوم على فكْر ناضر؛ إذِ الغباء في ديننا معصية).

وفي هذه الفصول نقوشٌ في جدار وعْينا الإنساني، نحاول معها أن نفيقَ من الغيبوبة، ونتذكَّر ونتذاكَر ذلك الطريق الذي انْحرفنا عنه؛ لعلَّنا نلحقُ بقطار الحضارة الذي فاتنا.. ولا يزال مُسرعًا.

---

(1) سورة آل عمران: 110.

(0) سورة النساء: 123.

في الفكر والدين

العِلمُ والإيمان (1)

يكاد يُجمع معظمُ علماء الغرب على أنَّهم يعاصرون ثورةً فكرية نفسية روحية لم يشهدْها الغربُ من قبل؛ حيث أدرك كثيرٌ من العلماء أنه بالرغم من أنَّ قليل العلم قدْ يقود للإلحاد، إلَّا أن التعمقَ والازدياد في العلم يقودُ للإيمان بوجود ربٍّ خالق واحد، وأنه على قدْر التعمق في أيٍّ من العلوم يترسخ الإيمان بوجوده سبحانه.

وحيث إنَّ المبادئ الصحيحة والطرقَ السليمة للبحث العلمي تتطلب من الباحث إعادةَ النظر في كلِّ شيء مرةً تلو الأخرى، ممَّا يترتب عليه إعادةُ إثبات أو دحض كلِّ نظرية سابقة، فقد بدأ الغربُ يجني بعضَ الثمار الحقيقية للبحث العلمي، وبعد أنْ كانت الأغلبيةُ من العلماء ملحدةً أصبح اليوم معظمُ علماء الغرب يؤمنون بوجود ربٍّ واحد وخالقٍ مسيِّر للكون.. ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارجِعِ الْبَصَرَ هَل تَرَى مِن فُطُورٍ ٣ ثُمَّ ارجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَينِ يَنقَلِب إلَيكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ ٤﴾ (7).

إنَّ البحث العلمي جعل علماءَ الغرب ينادون بالعودة للإيمان بالله، وإلى إعادة الوفاق والتزاوجِ بين العلم والإيمان، وقد بدأت بوادرُ هذا التحول في الوجدان والشعور في مطلع القرنِ العشرين، وهو ما عبَّر عنه أينشتين بقوله: (إن العلم بدون إيمان مشلول، وإن الإيمان بدون علم ضرير).

وفي الوقت الذي كان الغربُ يتخبَّط فيه، ويفصل بين الإيمان بوجود الله والعلم، وهو ما يتعارض مع فطرة الإنسان

السويَّة؛ كان علماءُ المسلمين لا يتركون مجالًا من مجالات الحياة إلَّا ويُمْعنون النظرَ العلمي فيه امتثالًا لمنهاج وتعاليم دينهم الذي لا يبيحُ لهم ذلك فحسب؛ بل ويأمرهم به، ويجعله من صفات المؤمنين، ومن أسباب الهداية والإيمان بالله عز وجل.. ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (6) فساروا في الأرض ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ (5) وتفكروا في آيات الله وملكوت السماوات والأرض ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾ (4) وتعمَّقوا في الدراسة والبحث ممارسةً وتطبيقًا وإقامةً لعبادةٍ هي من أسمى صور العبادة لخالقهم، فنبغوا في مختلفِ العلوم مثلَ علوم الطب والصيدلة والكيمياء والفيزياء والرياضيات والفلك، وغيرها من العلوم النافعة.. حتَّى صاروا علماء عمالقة سخروا علمَهم لتحقيق الغاية من الخلق؛ فكانوا نبراسًا وضياءً للبشرية وهداة مهدِيِّين.

فها هو (ثابت بن قرة) في القرنِ الثالث للهجرة قد كتبَ عن الجاذبية وعلاقتها بالكتلة، ومهَّد لحساب التكاملِ والتفاضل، ممَّا أتاح لعلماء عصرنا استخدامها لترويض قوانين الطبيعة، وتسخيرها لخيْر الإنسان، وله كذلك مآثرُ في الفلك والطب.

وها هو (عبد الرحمن بن أحمد بن يونس) يشتهرُ في القرن الرابع للهجرة بعلم الفلك والرياضيات، حتَّى إن الفاطميِّين بنوا له مرصدًا على جبل المقطم قرب الفسطاط، وجهَّزوه بكلِّ ما يلزم من الأدوات والآلات، ومازالت مخطوطاته محفوظةً في مكتبة جامعة ليدن بهولندا، والتي بلغَ من دقتها وإتقانها أنْ أعارتها حكومة هولندا إلى معهد فرنسا لترجمتها.

ويعتقد أنَّ هذه المخطوطة هي إحدى النسخ الأزهرية التي تفرقت بعد حصار القاهرة واقتحامها، وفي هذه المخطوطات جمعَ (ابن يونس) كلّ الآيات المتعلقة بأمور السماء ورتَّبها ترتيبًا دقيقًا بديعًا بحسب مواضيعها، حيث كان يرى أن أفضلَ الطرق إلى معرفة الله تعالى هو التفكرُ في خلق السماوات والأرض وعجائب المخلوقات، وما أودعتْ من حكمةٍ فيقول: (وبذلك يشرف الناظر على عظيم قدرة الله تعالى وتتجلى له عظمته وسعة حكمته وجليل قدره).

وقد وجدَ ابن يونس كذلك علاقة رياضية بين حركة البندول والزمن، واستخدم هذه المعلوماتِ لاختراع رقَّاص الساعة، الذي يُنسب خطأً إلى العالم الإيطالي جاليليو، كما هو شائع.

أمَّا (أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني) فقد نبّه في القرن الرابع الهجري إلى حركةِ دوران الأرض حولَ محورها، ووضع نظرية لاستخراج محيط الأرض، ونبغَ في علم الزوايا والجداول الرياضية، واكتشف طريقةً لتعيين الوزن النوعي، وعرفَ ثمانية عشر عنصرًا كيميائيًّا بناءً على الكتلة، وألف كتابَه الفلكي الشهير (التفهيم).

أمَّا الرازي فقد اشتهرَ بعلوم الطب والكيمياء، ويُعدُّه المؤرخون من أعظم أطباء القرون الوسطى، وله مؤلفاتٌ كثيرة أهمُّها الحاوي في الطب، وقد قسم المعادن إلى أنواعٍ بحسب طبائعها وصفاتها، ومازالت الطرقُ التي اتبعها في التحضير مستخدمةً حتَّى اليوم.

وقد عدَّ العقل من أعظم نعمِ الله، وأرفعها قدرًا على الإنسان، ومن أقواله عن العقل (أن لا نجعله وهو الحاكم محكومًا، ولا وهو الزمام مزمومًا، ولا وهو المتبوع تابعًا،

بل نرجع في الأمور إليه ونعتبرها به، ونعتمد فيها عليه، ولا نسلط عليه الهوى الذي هو آفتُه ومكدره، والحايد به عن سننه ومحجته وقصده واستقامته، بل نروِّضه ونذلله ونحوِّله، ونجبره على الوقوف عند أمره ونهيه) (3).

أمَّا الخازن، فقد جاء في القرن السابع للهجرة ليُعرِّف ضغطَ الهواء والماء، وليخترع ميزانًا خاصًّا لوزن الأجسام في الهواء والماء، وآخرَ لقياس الكائنات، وقد مهَّدت اكتشافاتُه الطريق أمام (غاليليو) ليصنع (الترمومتر) ميزان الحرارة.

أمَّا ابن النفيس، فقد اشتهر بعلم الطب في القرن السابع للهجرة كذلك، وله مصنفاتٌ عديدة، ومنها ما يثبتُ أنه هو الذي اكتشف الدورةَ الدموية الصغرى (الدورة الرئوية) قبلَ عصر النهضة الأوروبية بقرون، وهو ما يخالف ما تعارف عليه في الطبِّ عام 1628م، مِن أن أولَ مَن اكتشف هذه الدورة هو هارفي (Harvey)، وقد ثبتت أسبقيةُ ابن النفيس بعدَ العثور على كتابه شرح تشريح قانون ابن سينا، وهو ما أكده المستشرق (مايرهوف) عام 1922م، والأستاذ بينه Binet في باريس عام 1948م وغيرهما من العلماء المنصفين.

أمَّا الحسن بن الهيثم، فقد كان أشهرَ عالم فيزيائي في العصور الوسطى حيث كتب أكثرَ من مائتي 200 كتاب، وترجم الكثيرَ من أعماله إلى اللغة اللاتينية، ومن أهمِّ منجزاته شرحُه للعين شرحًا كاملًا، وتبْيين وظيفة كلّ قسم فيها، حيث تبنى علماء طبِّ العيون الأوروبيون نتائجَ أعماله فأخذوا عنه التسمياتِ التي أعطاها لكلِّ قسم كالقرنية (cornea) والشبكية (Retina) والسائل المائي والسائل الزجاجي، وغيرها كثير.

وشرحَ في كتابه الشهير (المناظير) طبيعة الضوء، وكانت كتاباته

مصدرًا للدراسة والبحث حتَّى منتصف القرن السادس عشر، مثل روجر بيكون Roger Bacon عام 1220م، الذي أدخل العلمَ التجريبي كوسيلة للبحث العلمي في أوروبا بناءً على كتابات ابن الهيثم.

وورد في كتاب (تراث الإسلام): (إن علم البصريات وصل إلى أعلى درجة من التقدم بفضل ابن الهيثم).

وليس بغريبٍ أن يكون الفلكي المشهور كيبلر (Kepler) قد أخذ عن ابن الهيثم ما توصَّل إليه من اكتشافاتٍ في علم البصريات، وبنوع خاصٍ ما يتعلق بتكسير الأشعة الضوئية في الجو، كما أكد العالم الفرنسي (لوتير فياردو).

وهذا هو العالمُ (ابن سينا) الذي يُعدُّه المؤرخون عالمَ القرن الرابع الهجري، ولعدّةِ قرون بعد وفاته، فقد تركَ مؤلفاتٍ عديدة شملت مختلفَ حقول المعرفة، وأشهرُ كتبه في الطب هو كتابُ (القانون)، وله شروح ومختصرات طُبعت في روما عام 1593م، وتُرجمت للاتينية في القرن الثاني عشر، وللعبرية كذلك.

وممّا يدلُّ على سعة انتشار كتاب (القانون في الطب) أنه طُبع باللاتينية في القرن الخامس عشر ستَّ عشرة مرة، وأعيدت طباعته في القرن السادس عشر مرات، وظل يُدرَّس في جامعات أوروبا حتَّى أواخر القرن التاسع عشر؛ أي بمعنى آخر كان يدرس في جامعات الطب في الغرب لأكثر من خمسمائة عام (500) بعد وفاته، علمًا بأنه انتهى من كتابتِه وتصحيحه وتنقيحه، ولم يتجاوز العشرين من عمره، حيث إنَّ علمه لم يقتصرْ على الطب، وبالرغم من أهمية كتبه ومؤلفاته الطبية وغزارتها إلَّا أنها لم تشكلْ إلَّا جزءًا بسيطًا من أعماله وكتاباته، فله مؤلفات كثيرةٌ: منها ما أسماه بالعلوم الآلية والتي شملت كتبًا في المنطق وما

يلحق بها من كتب في اللغة والشعر، وعلوم أسماها العلوم النظرية، وتشتمل على كتب العلم الكلي والعلم الإلهي والعلم الرياضي والعلم الطبيعي، وعلوم أسماها بالعلوم العملية وتشمل كتبًا في الأخلاق وتدبير المنزل وتدبير المدينة والقوانين التشريعية.

وممَّا عُرف عنه أنه كثيرًا ما كان يقصد المسجدَ عندما تواجهه معضلة فكرية أو مسألة علمية، يتعبَّد ويدعو ويتفكر في ملكوت وعظمة خالقه، ويُمعن النظر في مسألته، وقد يبقى طوالَ ليلته على هذا الحال، وكثيرًا ما يفتح الله له فيأتيه جوابُ مسألته قبل طلوع فجر ذلك اليوم، ليعود إلى بيته ومكتبته ليكمل ما بدأه، ومازال هذا شأنه طوالَ حياته حتَّى مماته.

ثمَّ توالت القرون من بعدهم وضلَّ عن أمة الإسلام الفهمُ الصحيح الشامل الكامل للعبادة، فنسوا دورهم في عمارة الأرض وقيادة البشرية في شتى ميادين الحياة، واقتصرَ فهمُ الدين على الشعائر التعبدية دون أن يكون لهذه الشعائر انعكاس على واقع حياتهم، فانحدروا واستأثرَ غيرهم بالعلوم النافعة وذهبت قيادة البشرية إلى غيرهم.

ووصل المسلمون إلى عهدٍ لم يكن لديهم فيه الحصيلةُ الكافية ولا العمق الوافي من العلم ليرسِّخ فيهم معاني الإيمان. ولا هُم فهموا دينهم حقَّ الفهم ومارسوه كما يجب أن يمارَس ليفكروا ويبحثوا ويتأملوا فيتقدموا في العلوم النافعة، فضاع عنهم العلم والإيمان، وصاروا في مؤخرةِ الركب، وبعد أن كانت أمةُ الإسلام قائدة مبدعة مُنتجة أصبحت أمةً مقلِّدة متبعة مستهلكة.

أمَّا في الغرب، فالذي حدث مخالفٌ لكل هذا؛ فالفطرة الإنسانية دعت علماءهم للبحث والتأمل والدراسة، ولكنّ الدين المسيحي المتمثل في الكنيسة منعهم من ممارسة ما تدعوهم إليه

فطرتُهم، فحدث الانفصالُ والطلاق بين العلم والدين، وتقدَّم العلم أشواطًا وأميالًا فوصلوا للفضاء، وأنتجوا كلّ ما يحيط بنا من اختراعات وابتكارات واكتشافات.

ولكنَّ هذا الزخم الهائل من التقدم المادي لم يكنْ له رصيد روحي أو نفسي، فاختل الميزان، وأصيب الغربُ بالأمراض النفسية والاضطرابات الخلقية، وظنَّ علماء الغرب في بادئ الأمر أنَّهم في غنًى عن الإيمان والدين كردةِ فعل لتحدي الكنيسة للعلم. وبذلك تمَّ الفصلُ التام بين العلم والإيمان، ولكن علماء الغرب وصلوا اليوم إلى قدرٍ من العلم يجعل علماءهم يقفونَ في ذهول وإجلال أمام قدرة وإبداع ما يرونه بين أيديهم من آيات خلقٍ لا تنشئها الصدفة، وإنما كلها تدعو وتنادي وتشير إلى خالقها: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (2). وبدأت رحلةُ الغرب مرة أخرى تبحث عن خالقها.

---

(7) سورة الملك: 3-4.

(6) سورة سبأ: 6.

(5) سورة العنكبوت، من الآية 20.

(4) سورة آل عمران، من الآية 191.

(3) رسائل فلسفية، الرازي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ص 18 و19.

(2) سورة فصلت، من الآية 53.

العِلمُ والإيمان (2)

كما تحدثنا عن الغربِ وما آلَ إليه نتيجة الزخم الهائل من التقدم المادي، والذي لم يكنْ هناك ما يوازنه من رصيدٍ روحي، لكنّ علماء الغرب وصلوا اليوم إلى قدر من العلم يجعلهم يقفونَ في ذهول وإجلال لقدرة وإبداع ما يرونه بين أيديهم من آياتِ الخلق: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (10).

وبدأت رحلةُ الغرب مرة أخرى تبحث عن خالقها، وهذا ما تؤكده كثيرٌ من الدراسات والإحصاءات والمقالات التي تناولتْ هذا الموضوع بالبحث. يقول أحدُ علماء الفيزياء المرموقين؛ وهو روبرت رسل: (إن الاكتشافات العلمية الحديثة تقدم دعمًا وإثباتا لوجود الله، وليس كما ظنَّ البعض في بادئ الأمر بأنها تؤدي إلى تحجيم دور الدين، وضعضعةِ قوة الإيمان في النفوس بوجود الخالق).

ومثالُ ذلك نظرية بداية الكون (the Big Bang theory) التي ظن بعضُ العلماء في بادئ الأمر أنها تشكك في وجود خالق، إلَّا أن أكثر العلماء الغربيين ينظرونَ إليها على أنها تؤكد وجودَ غرض وهدف وغاية من الخلق ووجود خالق وراء كلّ هذا: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ﴾ (9). وصل علماءُ الفيزياء إلى إثباتاتٍ لا تقبل الشكَّ في أن الكون قد خُلق وصمم بطريقة خاصة لتضمن لنا الحياة.

يقول عالمُ الفيزياء الدكتور بولكنجهورن المتخصِّص في الدراسات الإيمانية: (عندما تدرك انضباط ودقة قوانين الطبيعة

المحيطة بنا والتي تحكم الكون من حولنا، فإنه لا يسعك إلَّا أن تؤمن بأنَّ من وراء كلّ هذا غرضًا وهدفًا وغاية، وأنها لم تكن، ولا يمكن لها أن تكون، نتاج صدفة).

وهناك كتبٌ كثيرة في الأسواق الغربية هذه الأيام تناقش هذا الموضوع وتثبت وجودَ الخالق الواحد مثل: كتاب (العلم والإيمان) وكتاب (الإيمان بالله في زمن العلم) وكتاب (العلماء يكتشفون الله)، وغيرها كثير.

وخلاصةُ ما ذكرَ أن الغرب يشهد اليومَ ثورة فكرية روحية وهو في طريقه إلى الله، وبعدَ إيمان فريقٍ كبير من علمائه بحتمية وجود خالق واحد؛ بدأ البحث عن رسالات الخالق على الأرض.

واليومَ يبحث الغربُ عن رسالة سماوية يقبلها العقلُ كما يقبلها القلب (الفؤاد) لا تلغي العقلَ ولا تقيده، وإنما تحثُّه على أن يجوبَ آفاق السماوات والأرض، وتوجّهه لعمارة الأرض وخيرِ البشرية؛ رسالة خالية من الأوهام الباطلة والانحرافات التي تعطل المنطقَ العقلي، وتخالف الفطرة الإنسانية.

وبما أنَّ رحلة الغرب بدأت من بابِ العلم والدراسة والبحث والتأمل والتفكر، فإنه لنْ يكون هناك بابٌ يدخل منه الإسلامُ للغرب أكثر فعالية من باب العلم: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (8).

ولن تكون هناك صورةٌ أكثر إقناعًا من صورة عالمٍ مسلم تتجسد فيه معاني العلم الحقيقي المتكامل من جانبيْه العقلي والروحي، كما نجح علماءُ المسلمين من قبل في أنْ يقدموا لنا وللبشرية جمعاء، وللتاريخ على مرِّ العصور صورةَ العالم الإسلامي الذي تتجسد فيه

(10) سورة العنكبوت: 61.

(9) سورة الأنبياء: 16.

(8) سورة فصلت، من الآية 53.

العِلمُ والإيمان (3)

يعنُّ لنا من خلال كلّ ما سبق سؤالٌ طبيعي، فارضٌ نفسَه على عقل الأمة المسلمة الآن، وهو: هل المسلمونَ اليوم قادرون على حمل هذه المسئولية، وإيصال آخر الرِّسالات السماوية للغرب، من باب العلم؟ وأين نحنُ من باب الأخذ بأسباب العلم من البحث والدراسة والتأمل والتفكر؟

إنه قد ضلَّ عنا وللأسف فهمُ دور العقل في ديننا وضرورته في ترسيخ معاني الإيمان في قلوب الناظرين وسُمو قدره ورفعة شأنه عند خالقه، وأهمية كلّ هذا في عمارة الأرض ونفع البشرية، فأصبح يُنظَر للتأمل والتفكر والدراسة والبحث كترفٍ فكْري لا كضرورةٍ إيمانية وواجب ديني، فانحدرتْ مكانة العلم والعلماء وأصبحنا في مؤخرةِ الركب، ومَن في المقدمة قلَّما ينظر للمؤخرة. وطبيعة البشرية أن تسير وراء القوة، وتقتفي آثارَ المبدعين المخترعين والمكتشفين.

ولكنّ حكمةَ الله اقتضت أن لا يدعَ حمَلة آخر رسالاته عزلًا من السلاح، فجعل في الكتاب المُطهر المُنزَّل على خاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ من آياتِ الإعجاز العلمي ما يذهل علماء كلّ عصر من العصور: ﴿سَنُرِيهِم آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِم حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُم أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (13).

وهذا ما يؤكده أحدُ علماء الغرب عالم الأجنة الكندي المعروف Keith Moore الذي ألف كتبًا طبية عديدة، أهمُّها كتابه عن (الأجنة) الذي يدرس في كثير من جامعاتِ الطب العالمية، إذْ يقول هذا العالم إنه بعدَ دراسته وبحثه لسنوات طويلة في آيات القرآن الكريم التي تتحدَّث عن مراحل تكون الجنين؛ وصل إلى قناعة أن دقةَ المعلومات المذكورة في القرآن لا يمكن تفسيرُها إلَّا

بأحد احتمالين:

أمَّا الأول فهو أنْ يكون هذا الكتاب (القرآن) الذي نزلَ على نبي الإسلام محمد هو من عند الله.

أمَّا الاحتمال الثاني فهو أنَّ نبي الإسلام محمد ﷺ كان لديه ميكروسكوبًا إليكترونيًّا قبل أكثر من أربعة عشر قرنًا، وهذا الاحتمالُ يرفضه العقل والمنطق السليم.

﴿وَيَرَى الَّذِينَ أوتُوا العِلمَ الَّذِي أُنزِلَ إلَيكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الحَقَّ وَيَهدِي إلَىٰ صِرَاطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ ٦﴾ (12).

إنَّ المسئولية عظيمة، والأمانة غالية، والرسالة مُقدسة، والعالم يبحث، والأرض تئن.

ولنْ يهيمن كتابُ الله على سائر الكتب، إلَّا أن يعمل على الأرض حين تحمله عقولُ وقلوب علماء المسلمين: ﴿وَقُلِ الحَمدُ للَّهِ سَيُرِيكُم آيَاتِهِ فَتَعرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعمَلُونَ﴾ (11).

---

(13) سورة فصلت: 53.

(12) سورة سبأ: 6.

(11) سورة النمل: 93.

رسالاتٌ مختلفة ورسولٌ واحد

تمرُّ على كلِّ إنسان منَّا في هذه الحياة مشاهدُ ومواقف تحرّك أحاسيسه.. وتداعب شغافَ قلبه.. وتطرق بابَ فؤاده إن وجدت بابًا يُطرق.. وتفتح آفاقَ نفسه إن كان للطرق مجيب.

وعلى قدْر عِظَم وقْع المشهد والموقف تكون شدةُ الطرْق، وعلى قدر تأهب القلب وتأهله يُسمع صدى الطرق، وعلى قدْر تيقُّظ الفكر والوجدان يكون الردُّ والاستجابة.. فيسمع الدقَّ دويًّا يبدد صمتَ أيام، بل أسابيع وشهور وسنوات، فيوقظ القلب من غفلته، ويبعثه من مواتِه ويبدِّد ظلمته، ويعيد فيه الحياة من جديد.

وعندما يفاجئ الطرْق قلبًا عرفَ الحقيقة من قبل، ولكن جعلته الأيام غافلًا عن استشعارها واستحضارها يكون دويُّ الطرق على القلب قويًّا، ووقْعه على النفس عظيمًا وجليلًا.

وهذه المشاهدُ والمواقف منها ما يتكرَّر كلّ ساعة، ومنها ما يتكرَّر كلّ يوم أو أسبوع.

ويغفل القلبُ عنها لعدم تأهّله لتلقّيها، وإدراك معانيها إذا كانت قد تراكمت على بابه ملذَّات الدنيا وحطامها.

وقد يتبلد الحسُّ بتكرر المشهد نفسه أو مثله.

فيمرُّ المشهد وراءَ المشهد، والموقف وراءَ الموقف، والواقعة وراء الواقعة، والآية وراء الآية، والنعمة وراء النعمة.. ولا توقظ في القلب شيئًا.

والطبيبُ بحكم عمله، يرى في كلّ يومٍ مشهدًا، بل ومشاهد تحتاج إلى الوقوف عليها، والتفكر فيها.. فليس أقوى من المرض واعظًا إلَّا الموت، ولا يعرف قدر الصحةِ ومعناها إلَّا مَن ذاق المرض، ولا يدرك عِظَم نعمة العافية إلَّا مَن فقدها.. أو مَن آتاه

الله قلبًا يستشعرُ به المعاني فيعيش المواقف مع غيره فتكون هذه المشاهد والمواقف له واعظًا.

ولا يعرف نعمةَ السمع والبصر إلَّا مَن فقدها..

حتَّى شربة الماء لا يعرف قدرَها إلَّا مَن شاهد مريضًا قد سُلب هذه النعمة من جرَّاء الإصابة بمرضٍ سرطاني استدعى إزالة الجهاز الهضمي.

فينظر هذا المريضُ إلى شربة الماء بحسرةٍ وألم وقد كان يشربها من قبل ولا يستشعر عظيمَ نعمة الله فيها، بل ولا يذكر اسمَ الله عليها إلَّا قليلًا.. وإن ذكره فباللسان لا بالقلب.

دخل ابنُ السَّماك واعظُ هارون الرشيد عليه وهو ممسكٌ بكوب من الماء فقال له هارون الرشيد: عظْني يا ابنَ السَّماك. فقال له: أرأيتَ يا أمير المؤمنين لو ظمئت وأشرفتَ على الهلاك أكنتَ تشتري شربةَ الماء بنصف ملكك؟! قال: أفعل.. ثمَّ أطرق ابنُ السَّماك قليلًا، ثمَّ نظر إلى هارون الرشيد وقال: أفرأيت يا أميرَ المؤمنين لو حُبسَت أكنتَ تدفع النصفَ الآخر لتُخرجها؟! قال: أفعل.. قال: فما بالك يا أمير المؤمنين بمُلك لا يساوي شربةَ ماء دخلتْ أو خرجت! فبكى هارون الرشيد وقال: صدقتَ يا ابن السماك.

وكلُّ موقف يستشعر القلب أنّه رسولٌ جاء يُذِكّره بما قد نسي، ويعمّق في القلب إدراكَ نعمة الله عليه.

رسولٌ وراء رسول.. في موقفٍ وراء موقف..

وكلُّ رسول يأتيه في ساعةٍ غير سابقتها، وفي صورة غير ما قبلها.

يناديه أنْ يا ابن آدم، لا تنسَ.

يا ابنَ آدم، أنا رسولُ الله إليك، أخاطبُ قلبك، فإذا ذهبتُ

فقد لا أعود إليك أبدًا.. وأنا لك أو عليك يوم الحساب.

وقد يكون الرسولُ في صورة مريض يأتي للطبيب، فينظر الطبيب فإذا بالمريض لم يتجاوزْ من العمر الرابعة.. يدخل عليه مع أبويْه وقد شُخِّص بمرض السكر قبل ساعات.

وينظر الطبيب في عيني الطفل المريض فيرَى في عينيه عيني ابنه الذي تركه في البيت قبل ساعات نائمًا في فراشه.

ويتذكَّر تلك النظرة التي ألقاها عليه وهو نائمٌ في سكينة وأمان، ويرى يد الله تعمل ويتجلَّى له اسمٌ من أسمائه.. (الودود).

وينظر الطبيبُ إلى الطفل نظرةَ تأمل فيرى تشابهًا عظيمًا بينه وبين ابنه، ويبدأ طرقَ باب القلب طرقًا قويًّا على قلبٍ قد نسي، وكأنَّ الطارق يقول له: يا ابنَ آدم، أنا رسولُك أناديك.. يا ابنَ آدم لا تنسَ.

وكلَّما تحرك الطفلُ ظنّ الطبيبُ أن الذي يتحرك هو ابنه، ومع كلّ حركة للطفل يتحرك القلب، ويزيد الطرق، ويسبح الفؤاد في التأملِ واستحضار نعم الله عليه.. ثمَّ يبدد الصمت صوتُ والد الطفل وقد بدَا على وجهه الألمُ والذعر.. ويسأل كيف سيكون للوالديْن قوة على إعطاء الابن حقنة الدواء (الأنسولين) مرتين في اليوم وفحص الدم ثلاثَ مرَّات في اليوم أو أكثر.. وكيف سيعيش باقي حياته بهذه الصورة، وما مضاعفات المرض في المستقبل؟

وينظر الطبيبُ إلى الوالدين نظرةَ تأمل وتفكر وقد أصابهما الذعر والخوف.. فيطرق المشهد القلب مرَّة ثانية؛ فقد نسي.. نسي ماذا يعني أن يكون قرير العين..

ويناديه رسولُ المشهد مرّة ثانية.. أنْ يا ابنَ آدم أنا رسولك

أناديك.. يا ابنَ آدم لا تنسَ.

ثمَّ يتحدث الأب، ويسأل عن ثمن الحقن والدواء، وزيارات الطبيب المتكررة، وجهاز فحص الدم، فينظر الطبيبُ مرّة ثالثة نظرةَ تأملٍ وتفكر فيرى ما لم يره من قبْل؛ يرى مِن هيئة لباس الوالدين فقرًا وضعفَ حال، ويطرق بابَ القلب مرة ثالثة أقوى من سابقتيها فقد نسي.. نسي ماذا يعني أن تكون مستورَ الحال، فما بال من أكرمَه الله برغدٍ من العيش وسعة من الرزق.

وينادِيه رسولُ المشهد مرةً ثالثة.. أنْ يا ابن آدم، أنا رسولُك أناديك.. يا ابنَ آدم لا تنسَ.

ثمَّ يبدأ الطبيب في شرح الدواء وطريقة تناوله، وجهاز فحص سكر الدم وكيفية عمله، فيجد الأبوان صعوبةً في فهم وتطبيق ما يُقال لهما أكثر من غيرهما.. فيدرك الطبيب مرةً رابعة فضلَ الله عليه أن رزقه عقلًا وفهمًا وعلمًا.. ويُطرق باب القلب مرةً رابعة.. فقد نسي.. نسي نعمة العقل، والعلم الذي وفّقه الله لبلوغه.. وينادِيه رسولُ المشهد مرة رابعة.. أنْ يا ابنَ آدم، أنا رسولك أناديك.. يا ابنَ آدم لا تنسَ.

ثمَّ يود الطبيب أن يخففَ عن والدي الطفل المريض ويواسيهما، وهل هناك خير من ذِكر الله تسليةً ومواساة وتخفيفًا.. وهل يبعث في النفس السكينة والطمأنينة غير ذِكر الله؟

ويكادُ الطبيب أن يذكرَ لهم الله.. ثمَّ ينظر مرّة خامسة فيتدارك نعمة الله عليه أن هداه إلى ذِكْره، وحرمَ كثيرًا من البشر من معرفته.. ويطرق الموقف القلب مرة خامسة طرقًا قويًّا عنيفًا؛ فقدْ نسي.. نسي ماذا تعني الهداية، ونسي فضل الله عليه أنْ أنشأه في ظروفٍ ومحيط أعانه على معرفة الله والإيمان به، واتّباع طريق الحق.

وينادِيه رسولُ الموقف مرّة خامسة أنْ يا ابن آدم، أنا رسولُك أناديك.. يا ابنَ آدم لا تنسَ. وتتوالى الطرقاتُ على أبواب القلب من كلّ جانب تكاد تدُكّه دكًّا.

ويصبح القلبُ كبيتٍ له أربعةُ أبواب، وسقفُ باب كُتب عليه نعمة الصحة والعافية..

وباب كُتب عليه نعمة الأمن والأمان..

وباب كتبَ عليه نعمة ستر الحال والرزق والمال..

وباب كُتب عليه نعمة العقل والعلم..

وسقفٌ يحمي البيت، وقد كُتب عليه نعمة الهداية والإيمان.

وتبدأ الطرقاتُ من جديد على أبواب القلب الأربع، وسقفه، في آن واحد..

وتفتح الأبوابُ الأربعة في آن واحد.. ويرتفع سقف البيت إلى أعالي السماء..

ومازال يرتفع ويرتقي في سويعاتٍ قليلة يحسُّ فيها أنَّ قلبه ليس معه، وإنما يسبح في ملكوت السماوات والأرض، ينادي ويناجي الإله.. يناجي خالقه.. أنْ يا إلهي لا تنسني، وإنْ نسيتك لا تنسني.. وفي هذه السويعات القليلة يستشعر القلبُ فقره إلى الله، ورحمة الله به، ويستشعر عبوديته وربوبية ربه.

وفي هذه السويعات القليلة يدرك الفؤادُ فضلَ الله عليه أن أرسل إليه هذا الرسول، وأعانه على فهْم رسالته والتفكر فيه، والاستماع إليه.

فقدِ ارتقى هذا الرسول.. رسول الذكرى بروحه عنانَ السماء رقيًّا لم يستشعره القلب في شعائر تعبدية كثيرة.

إنَّ نعمَ الله علينا عظيمة لا تعدُّ ولا تحصى في كلّ ثانية من ثواني حياتنا.. وفي كلّ ساعة؛ بل وفي كلّ دقيقة من حياتنا.. رسول ينادينا ويذكّرنا بأن لا ننسى. وعلى ابنِ آدم أن يتفكَّر ويجاهد حتَّى لا ينسى، وعلى ابن آدم أن يبحث عن الرسول والعبرة في كلّ موقف، وفي كلّ مشهد، فقد يأتي الرسولُ ويذهب والقلب عنْه غافل.. ومازال القلب غافلًا حتَّى يموت..

وكلُّ رسول هو لابن آدم أو عليه يوم الحساب..

حُرم أحدُ الصالحين فضلًا من علم، وافتقد أثره على القلب فشكى لأمه، قال: يا أماه لقد حُرمت أثرَ العمل والعلم على القلب، فقالت: يا بنيّ لعلك فعلت حرامًا.. قال: ما فعلت يا أماه.

قالت: لعلَّك يا بني نظرتَ إلى حرام. قال: ما فعلت يا أماه.

قالت: لعلّك يا بني تفوَّهت بحرام. قال: ما فعلت يا أماه.

قالت: لعلّك يا بني استمعتَ إلى حرام. قال: ما فعلت يا أماه.

قالت: لعلّك يا بني صَعّدت النظرَ إلى السماء ثمَّ رددته دون أن تتدبَّر في ملكوت السماوات والأرض. قال: فعلت يا أماه.

قالت: فذلك هو يا بني.. فذلك هو.

فلسفةُ حياة

بعدَ ذِكر الله، ابدأ يومَك بقولك لنفسك: اليوم قدْ أقابل المضايقات والمصادمات، اليوم قد أقابلُ نكران الجميل أو الكذب والخيانة والخديعة. وكلُّ هذا يصدر من منبعٍ واحد؛ وهو جهل أخي في الإنسانية لما هو خير وشرٌّ لنفسه قبل أن يكون خيرًا أو شرًّا لغيره.

أمَّا عن نفسي فقد عرفت منابعَ الخير والشرِّ وطبيعتيْهما؛ بل عرفت طبيعة الفاعل والصَّانع نفسه وهو أخي في الإنسانية، لذلك فلنْ يستطيع بشرٌ أن يضرَّني بشيء لأنَّني لن أسمحَ لنفسي أن تنحرفَ عن طريق الخير، أو أن تنهل من نبع غير الذي عرفت من الحق، ولن أحملَ في نفسي حقدًا شخصيًّا على الفاعل، فجهله أنَّ ما تقترف يداه من أعمال الشرِّ سيُصيبه قبل أن يصيبَ غيره يجعله أحوج للشفقة منه للسخط.

إذا بدأتَ يومك بهذا القول وآمنتَ به، وعملت به فسترى أنَّك لن تصدم في الآخرين كثيرًا، ولن تغضب، ولن تحتدَّ كثيرًا.. وستكون لمصادر الشَّر والخير واعيًا وبصيرًا، بل قد لا تكون الحياة بعد ذلك عبئًا كبيرًا.

وجاهدْ نفسك في كلّ يوم، بل وكلِّ ساعة ودقيقة أن تنظر إلى العمل الذي بين يديك نظرةً عادلة، وأن تفعل ما تعلمه في قرارةِ نفسك بأنه الحق والعدل والصواب. وأن تفعل ذلك كلَّه بثقة روحُها التواضع، وقوة نبعُها الرحمة، وعزة ليس فيها ذِلة إلَّا لله. وأن تسمح لنفسك وعقلك أن يتحرّرَا من كلّ القيود والاعتبارات التي قد تخرس صوت الحق والعدل في قلبك، وتضفي غشاوة على عينيك.

وتستطيع أن تحقق هذا إذا نظرتَ لكلِّ عمل بين يديك على أنه

آخر عمل في حياتك، وأن تخلص هذا العملَ وتنقّيه من شوائب النفس كحبِّ الثناء والظهور والرياء.

مِن رحمة الله على العبد أنَّه لم يُطلب منه الكثير، بل طلبَ منه الإخلاص..

وبالإخلاص يفوز العبدُ ويسود.

خصائصُ الإسلام العامَّة

أنزل اللهُ القرآن الكريم دستورًا، وأرسل نبيَّه محمدًا ﷺ مترجمًا لهذا الدستور كمنهاجِ حياة عملي، فكانت سيرته ﷺ قرآنًا يمشي على الأرض.

وللإسلام خصائصُ عامَّة سنرتكزُ عليها في موضوع اليوم عن (الحوار في الإسلام)، ومن هذه الخصائص: الربانية، والإنسانية، والشمولية، والثبات والمرونة.

أمَّا الربانية، فالمسلم ربانيُّ الغاية والوجهة، ورباني المصدر والمنهاج، وربانية الغاية والوجهة تستلزم من حملةِ دعوته العالمية (الإسلام) أن تصلَ إلى كلّ البشرية، وهذا التبليغُ لا يتم إلَّا بالحوار والمناقشة والمناظرة ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ (24)، ﴿لاَ إكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (23)، ﴿ادْعُ إلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أحْسَنُ﴾ (22).

أمَّا ربانية المصدر والمنهاج، فإنَّها تستوجب من حملةِ الرسالة أن يستقرئوا المنهج السماوي في آيات كتاب الله مترجمةً في حياة رسوله ﷺ والأنبياء من قبْله من خلال القصص القرآني ليتجلَّى بيننا أن (الحوار) هو من أهمِّ المبادئ التي رسَّخها المنهج السماوي ﴿وَإذْ قَالَ إبْرَاهِيمُ رَبِّ أرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (21)، وموسى عليه السلام يحاور ربه، ويطلب منه أن يمدَّه بما يحتاج إليه لإيصال دعوته، والله أعلم بما يحتاج إليه نبيُّه لإتمام الدعوة، ولكنَّه سبحانه أنطق نبيه، فحاورَ وطلب، فأجاب طلبَه لكي يؤصِّل لنا مبدأ الحوار، فبدأ سبحانَه بنفسه مع بعض أنبيائه المصطفين..

﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ (20).

وينبِّههم اللهُ إن خرج الحوارُ إلى الجدل ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ (19).

﴿وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ (18).

﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ (17).

أمَّا الخصيصة الثانية، فهي: الإنسانية، فالإسلام دينُ الإنسان، جاء لتحريره من عبوديةِ الإنسان إلى عبودية خالق الإنسان، وجاء بتكريم الإنسان وحماية الإنسان، وإسعاد الإنسان، والسموِّ بالإنسان. ومن هذا المنطلق كانت رسالة الأنبياء هي دعوةَ الإنسان لتقبُّل الرسالة الربانية بالحوار والإقناع والمجادلة الحسنة، فها هو ربُّ العرش العظيم سبحانه بكرمه وفضله يرسل موسى عليه السلام إلى فرعون، ومَن هو فرعون؟ إنه مَن ادَّعى أنه ربُّ العالمين، ويُعلِّم الله نبيه موسى كيف يحاور الإنسان ممثلًا في أطغى وأمقت صور الإنسان، ألَا وهو فرعون، فيأمر الله سبحانه موسى في كتابه ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ٤٣ فَقُولا لَهُ قَوْلا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ٤٤﴾ (16).

قولا لينًا؟! لمَن؟ لفرعون؟ إنَّه المنهاج الرباني في الدعوة إليه، يخاطب به كلّ من حملَ رسالته وسارَ يدعو بها الإنسان، أيًّا كان الإنسان، ويعرض لنا القرآن صورًا من محاورة الأنبياء لأقوامهم، كموسى عليه السلام مع قومه حين تقاعسوا عن العودةِ إلى أرض كنعان، وحكم اللهُ عليهم بالتِّيه، وقصة موسى ومحاورته للسامري، ومحاورته لأخيه هارون إزاءَ فتنة العجل، وصورًا من حوار الابن

مع أبيه ممثلةً في حوار الابن المؤمن إبراهيم عليه السلام مع أبيه الكافر، وحوار الأب المؤمن نوح عليه السلام مع ابنه الكافر.

وحوارُ المؤمن في سورة غافر لقوم فرعون يستحقُّ دراسات مستفيضة للتعرف على المنهج الإسلامي في الحوار.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ (15).

ويعرض القرآنُ لنا كذلك صورًا من حوار نبي الله موسى مع الرجل الصالح، ليؤكِّد مبدأ أنَّ العلم نسبي، ولا يدري أحدٌ من البشر من الأعلم، فكان هناك في زمن موسى مَن هو أعلم مِن أحدِ أولي العزم من الرسل؛ نبي الله موسى وكليمه، فكان الخضرُ في سورة الكهف التي نقرؤها كلّ جمعة، وصورة أخرى من صور المحاورة بين الرجل وصاحبه في قصةِ صاحب الجنتين الذي كفرَ وتحاور مع صاحبه المؤمن ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ (14).

والسيرةُ النبوية مليئة بصورِ محاوراته ومناظراته ﷺ للمشركين، وإجابته عن أسئلة أهل الكتاب، واستخدام وسائل إقناع متعددة تختلف باختلاف المتلقي والمدعو.

وتوارثت أجيالُ المسلمين هذا الأسلوبَ ليتطور مع تطور العصر وحاجة دعوة الإنسان والتعارف بينهم، فكانت المناظراتُ والمناقشات والحوار على مستوى العلماء والفقهاء والدارسين حتَّى عهد قريب.

أمَّا الخصيصة الثالثة من الخصائص العامَّة للإسلام، فهي

الشمولية، فلا يحدها زمانٌ أو مكان، وهذا يجرِّدها ويحرِّرها من المذهبية والعصبية، فهي للعالم كله على اختلافِ الألسنة والألوان لجميع الأمم في مشارق الأرض ومغاربها، فقد أُرسل محمدٌ ﷺ للناس كافة، لا كمَن سبقوه من رسل ورسالات خاصَّة لأمم وشعوب بعيْنها، وبذلك فليس لأحد أن يكون له الوصاية عليها، فلا فرقَ بين عربي ولا أعجمي إلَّا بالتقوى، وكذلك شموليةُ التشريعات في مجالات الحياة جميعًا.

أمَّا الخصيصةُ الرابعة من الخصائص العامَّة للإسلام، فهي الثبات والمرونة، الثبات في الغايات والأهداف، والمرونة في الأساليب والوسائل، وبذلك يكون (الحوار) أكثرَ فعالية لوجود المرجعية، ونقطة الارتكاز التي ينطلق منها الحوارُ الموضوعي الفعَّال باستخدام وسائل العصر المتاحة.

وبناءً على هذا المبدأ، وانطلاقًا من الحرص على ممارسة هذا المبدأ وتطبيقه، نشأتِ الأجيال الأولى، فكانوا عمالقةً أسَّسوا حضارات يشهد لها التاريخ وعلماء في شتَّى مجالات الحياة والعلوم العقلية والنقلية.

وكان مبدأ الحوار والمناقشة والمناظرة من المبادئ التي تربَّى عليها الفرد في المجتمع، سواء كان في البيت أو المدرسة أو الجامعة أو المتجر أو المصنع أو السوق.

وللحوار أخلاقٌ وآداب لا بدَّ أن يتحلى بها أو ببعضها أهل الحوار، وقد تجلت كلُّها في رسول الله ﷺ في أسمى صورها وأكملها، مثل الصبر وحُسن الخلق، فقد كان خلقُه القرآن، وكان ليِّنَ الكلام حسنَ الصوت، ليس بفظٍّ ولا غليظ ولا صخَّاب ولا عيَّاب ولا مزاح كما جاء في القرآن والسنة.

وبعدَ هذا العرض السريع، هل لنا أن نتساءل: أين هو الحوارُ

الذي أمرنا به الله من فوق سبع سماوات؟ إنَّ العالم يطالبنا اليوم بالحوار، وكان الأولى والأجدَى بنا أن نبدأ نحنُ في السعي وراءَ الحوار منذ عشرات السنين بأرقى الوسائل الحديثة المُتاحة للبشر في عصرنا هذا، ولكن كيفَ لنا أن نحاور وأمتُنا لم تمارس الحوار بمفهومِه الصحيح منذُ زمن طويل، فلا حوارَ بين الابن وأبيه، ممارسة خاطئة لمبدأ طاعة وبرِّ الوالدين، ولا حوارَ بين الطالب وأستاذه، ممارسة خاطئة لمبدأ الأدب والتقدير، ولا حوارَ بين المرؤوس ورئيسه، ممارسة خاطئة لمبدأ الالتزام بالأوامر، ولا حوارَ بين المحكوم وولاة أمره ممارسة خاطئة لمبدأ الطاعة لولاة الأمر.

وأين هي المناظراتُ والحوار بين فقهاء المذاهب وعلماء الأمة بعيدًا عن التجريح والتَّسفيه والتشكيك في العقيدة والتصنيف والإخراج من الملة والتكفير وادِّعاء الوصاية على فكر وعقل المسلم.

إنَّ غياب الحوار الموضوعي داخلَ المجتمع الإسلامي في البيت والمدرسة والجامعة، وغيابَ الحوار الموضوعي بين العلماء والفقهاء والمفكرين، وغيابَ الحوار بين الشعوب الإسلامية بعضها بعضًا، وبين الدول الإسلامية بعضها بعضًا، ومن ثمَّ فإنَّ غياب الحوار الموضوعي بين الأمة الإسلامية وغيرها من الأمم أفقدَ الإنسانَ إحدى أهمِّ الركائز التي ينطلق منها سلامُ العالم المفقود المنشود.

---

(24) سورة النور، من الآية 54.

(23) سورة البقرة، من الآية 256.

(22) سورة النحل، من الآية 125.

(21) سورة البقرة، من الآية 260.

(20) سورة القصص: 34.

(19) سورة هود: 74.

(18) سورة هود، من الآية 37.

(17) سورة هود، من الآية 46.

(16) سورة طه: 44 -43.

(15) سورة غافر: 28.

(14) سورة الكهف: 37.

وبمثلِ الفراشةِ يُعلِّمنا الخالق

إنَّ الدارسَ المتأمل بعمقٍ لسُنن الله في كونه لا يسعه إلَّا أن يستشعر مدى تشابه هذه السُّنن من أصغرِ مكونات المادة كالذّرة إلى أعظم ما تدركه عقولنا من المجرَّات والفلك من حولنا. وكلُّ هذه العلوم تشير إلى حقيقة وحدانية الخلق وانصياع المخلوقات للسُّنن التي مُهِّدت لها، ودورانها بانسجام في فلك الخالق ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسبَحُونَ﴾ (27).

وهذه السننُ تشترك فيها العلومُ بشتى أنواعها، بما فيها العلوم الإنسانية والاجتماعية، وكلُّ ما يحكم حركة البشر.

ولذلك فإنَّ العَالِم في أيّ من هذه العلوم يكتسب حكمةً وإدراكًا يعينانه على فهم قوانين وسنن حركة المادة وتفاعلاتها، ومن ثمَّ إسقاط هذا الإدراك والفهم على سنن حركة البشر وتفاعلاتهم، وفي هذا تسهيلٌ لفهم السنن، ورحمة من الله لعقول البشر، ومكافأة للمتأملين المتدبرين لآيات الله في كونه.

﴿إِنَّمَا يَخشَى اللَّهَ مِن عِبَادِهِ العُلَمَاء﴾ (26).

وقد تغفل النفوسُ عن رؤية هذه السنن نتيجةَ تبلُّد الأحاسيس لتكرار المشاهد وانتكاس الفِطَرْ. وعندما يعرض على الفؤاد صورة جديدة لسنّةٍ من هذه السنن فإنه ينظرُ إليها بعين الطفل كأولِ مرَّة فتصدمه الآية، وتعمق لديه فهمَ سُنة قد نغفل عنها، وإن كانت من أهمِّ أسباب الفوز والنجاة.

وقد أرسل إليّ أخي المهندس محمد فتيحي بمقالةٍ شخصية تجسَّدت وتجلت فيها هذه المعاني، فأحببتُ أن تشاركوني إيَّاها، وأعرضها عليكم كما كتبها أخي بدون زيادة أو نقصان: (اعتقد المفكرون والعامَّة على حدٍّ سواء لعقود بعيدة، أنَّ الكون يعمل كآلةٍ عظيمة

حيث الفعل يولِّد ردةَ فعل مماثلة لقوةِ الفعل، فالأحداث الكبيرة مثلًا تولد ردّات فعلٍ كبيرة، أمَّا الأحداث الصغيرة فتولد هي الأخرى ردَّات فعل صغيرة.

ولكنَّ إدوارد لورنز العالم في أرصاد الأحوال الجوية بالولايات المتحدة الأمريكية تردَّد بقلبه في قبولِ الفكرة ممَّا شجَّعه لمناقشتها في عقله بسؤال مُحيرٍ غريب في مسمعِه، بسيطٍ في مضمونه: هل من الممكن أن يكون لردَّة فعل حركة جناح فراشةٍ صغيرة في سنغافورة مثلًا أثرٌ في إعصار مدمر يهدِّد ولاية كارولاينا الشمالية بالولايات المتحدة الأمريكية؟

وبعدَ دراسة مُستفيضة استغرقتْ منه السنين في البحث والتحليل توصَّل العالِم في عام 1963م إلى الإجابة، وكانت (نعم).

إنَّ الفراشة بحركةِ جناحيها تستطيع أن تؤثرَ على إعصار في كارولاينا الشمالية، فمجموعُ أعمال صغيرةٍ أو ضئيلة في منظورنا لا تؤخَذ بعين الاعتبار في التوقعات؛ قد تؤدي لردَّة فعل عظيمة.

إنَّ ظاهرة أثرِ الفراشة، أو ما يعرف بـ (Butterfly Effect)، هي أهمُّ الفرضيات التي توصَّل إليها العلمُ في العشرين سنة الماضية.

إنَّ هذه الظاهرة تثبت أنَّ كلّ عمل، كبيرًا كان أم صغيرًا، قد يصبح بطريقة مباشرة أو غير مباشرة سببًا لأثرٍ يفوق العملَ ذاته في إمكاناته والتوقعات له، ولذلك فإنَّ كلّ جهد معنويًّا كان أم ماديًّا يُبذل لبناء أيِّ عمل كان قد يكون آخر أصغر حجرٍ لأعظم بناء يراه المرءُ في حياته أو بعدَ مماته، ولا يعلم ذلك إلَّا عالم الغيب والشهادة الذي لا يَعْزُب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ

ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ (25).

---

(27) سورة يس، من الآية 40.

(26) سورة فاطر، من الآية 28.

(25) سورة الزلزلة: 7-8.

صفقةٌ رابحة

يتعامل الإسلامُ مع النفس البشرية فينمّي ما فطرها اللهُ عليه من خير، ويهذب ما في نوازعها من شر، ويأخذُ بيدها فيرتقي بها مدارجَ التقوى والتزكية كما قال الحقُّ عزَّ وجل ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ١٠﴾ (30).

وقد جُبلت النفسُ البشرية على حبِّ ذاتها والحرصِ على الخير لنفسها، وهي خصوصيةٌ قد خلقها الله بها كي تستمرَّ الحياة، وتنمو بالمنافسة والمثابرة والتسابق إلى الخير، وانطلاقًا من هذه الخصيصة وهي حبُّ الخير للنفس، قال الرسول الكريم ﷺ: (احرص على ما ينفعك) (29).

غيرَ أنَّ هذه الخصيصة المهمَّة تتحول إذا هي أعرضت عن هدي الله، وأفلتت من فرائضِ الدين وتربية الإيمان، إلى أنانية غليظة وأثرةٍ ضارَّة، وتناحر دموي، ومن هنا حرصَ الإسلامُ على تشذيبها بترغيبِ المؤمن فيما هو أبقى، وتربيته على السَّخاء والتضحية، ونكران الذات، ابتغاءً لمَا عند الله والدار الآخرة، وسعيًا وراء ما هو أعظمُ من متاع الدنيا الزائل، وأكبر وأنفس من حطامها الرَّخيص.

ومِن هنا، يمكن أن نفهمَ ما يمتلئ به القرآنُ من حثٍّ للمؤمنين على المتاجرة مع الله، والشراء والبيع والقرض والربح والمضاعفة.

وكلُّ هذا ينسجم مع طبيعة حبِّ الخير للنفس، ويتلاءم مع ما جُبلت عليه الفطرة من سعيٍ وراء المنفعة والكسب، وفي هذا أكبرُ الأثر الإيجابي على صحة عقل المؤمن، وسلامة روحه وجسده وهو ينفقُ في أوجه الخير. فالمؤمنُ لا يحس أبدًا

بالغبْن، أو يستشعر أيَّ مرارة لما يُقدم عليه من تضحية ونكران الذات والحرمان عندما ينفقُ في أوجه الخير؛ إذْ هو يعلم أنَّه يقوم بصفقات رابحة يشتري بها بإذن ربه وفضله، الغالي والرخيص، ويكسبُ رضا الرحمن وجنة الخلد بمال هو عند الله بادئ الأمر، وما هو إلَّا مستخلف فيه.

هذا الشعورُ العظيم بكسب ما هو خيرٌ وأبقى يُضفي على روح المؤمن الطمأنينةَ والثقة والسكينة، وعلى عقله نشوةَ الانتصار على غريزة حبِّ المال، بل والإحساس برجاحةِ العقل وحكمة القرار، كما تنعكسُ على جسده طمأنينة الروح ونشوةُ العقل من ارتخاءِ عضلاته وهدوءِ أعصابه وانخفاضِ ضغط دمه وتباطئ دقَّاتِ قلبه، وفوائد أخرى لا يعلمها إلَّا اللهُ تكون للمؤمن بعضَ عاجل الأجر الذي أعدّه الله له في الدنيا قبل الآخرة.

وعندما ينفق المسلمُ دون أن يستشعرَ هذه المعاني فإنه يحسُّ بالغبن والحرمان فيتعارض هذا معَ فطرة حبِّ الخير لنفسه، فتضطرب الروح، ويتعكَّر صفوها، ويقاوم العقل، وقد يتحسرُ على قراره، ويجني الجسدُ ثمرةَ فساد الروح والعقل لما لهما من تأثير خفي على فسيولوجية الجسد وصحته، فتتوتَّر الأعصاب، ويعتلُّ الجسدُ ويمرض، وبذلك يجني الإنسانُ ثمارَ جهله بطبيعة نفسه وطبيعة العمل الذي طلب منه.

إنَّ علينا أن نستشعر دائمًا هذه المعاني التي تساعد المؤمنَ على الإنفاق، وإجراء الصفقاتِ الرابحة مع الله، وشراء الذي يبقى أبدَ الدهر بما يزول ولو بعد حين، والفوز بجائزة الإنفاق في الدنيا قبل الآخرة من سكينة في النفس ورجاحة في العقل وسلامة الجسد وبركة من الله أكبر، وقد كان أولو العزم يقولون عندما يأتيهم سائل: (مرحبًا بمَن جاء يحمل لي زادي إلى يوم القيامة بدون أجر)، وصدق الرسولُ ﷺ حين قال:

(احرص على ما ينفعك) (28).

---

(30) سورة الشمس: 10- 7.

(29) جزء من حديث رواه أبو هريرة، صحيح مسلم، برقم 2664.

(28) سبق تخريجه.

أثرياءُ ولكن

حقًّا إنَّ الزاهدَ لغريبٌ في عصرنا هذا، بل وإنَّ مفهوم الزهد لا يكاد يدركه كثيرون، وهو الذي عرَّفه الجنيد رحمه الله في قوله: (الزهدُ خلوُّ القلب عما خلتْ منه اليد) (32). وليس أجمع مِن مقولة سيدنا الحسن في الزهد: (ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال؛ ولكن أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك. وأن تكونَ في ثواب المصيبة إذا أصبت بها أرغب منك فيها لو لم تصبك) (31).

وبهذا المفهومُ كان من صحابةِ رسول الله أثرياء زهادُ من أمثال: علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم وأرضاهم على ما كان لهم من مالٍ وثراء، فقد تخلَّت قلوبهم عن كلّ ما في أيديهم وإنْ كانت أيديهم عامرةً به، فلم يفرحوا بموجود، ولم يحزنوا لمفقود، وتعلَّقت قلوبهم بما في يدِ المعبود.

وأيْقنوا أنَّ ما في يد خالقهم لا يُدرَك إلَّا بالعبادة، وأنَّ العبادة بمفهومها الشامل تقتضي عملًا دؤوبًا لعمارةِ الأرض ونفعِ البشرية، وأنَّ عمارة الأرض تقتضي التشميرَ عنِ السواعد وخوضِ غمار الحياة بكلِّ ما فيها من صعوبات ومشقات وآلام ومعاناة.

وكانت الحياةُ من حولهم تتفاعلُ بهم وتعملُ معهم، فهُم فيها بمثابة المعنى الذي يُفسِّر المعنى، فنَطقت الحياةُ بهم من حولهم بأجمل كلمات تجسَّدت في سكونهم قبل حركتهم، وفي صمتهم قبل نطقهم، وعمَّروا من العُمر ما عمروا ليعمروا في الأرضِ ما عمروا، وليورثوا حضارة وعمارة لا ينكرها إلَّا جاحد.

وتلاحقتْ من بعدهم أجيالٌ وأجيال، أخذوا القشورَ، وأضاعوا اللُّب. وكان لهم من كلّ معنًى معنى آخر قد لُبس بثوبِ الأول بعد أنْ جُرد من كلّ ما يحويه، فكان رصيدُهم في عمارة الأرض على قدْر فهمهم.

وعُمِّرتِ الأرض، ولكن على يدِ غيرهم، لا كما يريدها اللهُ أن تُعمر، ولكن كما يريدُها الشيطان أن تزيَّن بشبه العمار، وليس فيها من معنى العمار إلَّا بقدر ما في السَّراب من ماء، وتغيَّرت الحياة من حولهم فنطقت بأبشع كلماتٍ تجسدت في كلّ ما يدور حولهم.

ومازال المؤمنُ يجاهد نفسَه في إحياء تلك الكنوز التي قد ورثها ليعمل بها فيصبح في هذه الدنيا كالمعنى الذي يحاولُ أن يُصَحِّح مائة ألف معنى. ومازال المؤمن في جهادِه هذا يسير بقلبه وبدنه في كلّ حالٍ وهو مشمِّر عن ساعديه، والدنيا في إحدى يديه والأخرى تدافعها وتوجِّهها خشية أن تدخلَ قلبه. وعيناه متيقِّظتان خشية أن تُخدعَا، وقلبه وجلٌ معلَّق بخالقه، يطلب منه مددًا متلهفًا أنْ يلقاه وهو في صراعه هذا منصورٌ وإن كان وحيدًا غريبًا على الدنيا تحفُّه عناية الله إلى أن يواريه التراب ويلقى الأحباب.

---

(32) طبقات الشافعي الكبرى، للسبكي، ج 2، ص 264.

(31) مدارج السالكين، ابن القيم الجوزية، ج 2، ص 16.

واقعٌ.. ليسَ من نسجِ الخيال

أحدُ أعجب أثرياء أمريكا العصاميّين، واسمُه تشارلز فيني Charles Feeney، تبرَّع في خلال خمس عشرة سنة بما يفوق 600 مليون دولار على مشاريع خيرية سرًّا وبدون علم أقربِ المقربين إليه، وقد بنى رجلُ الأعمال هذا ثروتَه عن طريق إقامةِ سلسلة من المحلات التجارية في مطارات أوروبا وأمريكا، وبالرغم من أن المجلاتِ الاقتصادية قدَّرت حينها ثروتَه بما يفوق بليون دولار، إلَّا أنها في الحقيقة لا تتعدَّى 5 ملايين دولار؛ نظرًا لتحويله معظمَ رأس المال إلى مؤسستيه الخيريَّتين.

وبعدَ سنوات من السرِّ والكتمان، اضطرَّ رجلُ الأعمال للاعتراف بأعماله الخيرية؛ نظرًا لأنَّ ملفاتِ شركته قد أصبحت علنيةً لعزمه على بيع شركته.

وقد وجدَ أنَّ مؤسَّستيه الخيريتين تنفقان على كثيرٍ من المدارس والجامعات ومعاهد التدريب وتأهيل المدرسين والمستشفيات ومراكز الدراسات والأبحاث الطبية ودور العجزة والمسنين والأيتام وبرامج مكافحة الجرائم والمخدرات وجمعيات إغاثية دولية عديدة.

وعندَ سؤاله عن سببِ هذه التبرُّعات السخية، أجاب: (إنني مقتنعٌ بأنني أملك ما يكفيني من المال، وقد قررتُ منذ زمنٍ أن لا يتحكَّم المال في حياتي ولا يملكني، ولكني أنا الذي أتحكم فيه فأملكه).

وبالرغم من أنَّ هناك الكثير من الأثرياء في أمريكا ممَّن يتبرع بالملايين، إلَّا أن الطريقةَ التي تبرَّع بها الرجلُ، وحرصَه على السرية والكتمان هي نادرة، بل وقد يكون غيرَ مسموح بها.

وقد يظنُّ البعضُ أن الهدف من هذه التبرعات هو التهرب من الضرائب، ولكنَّ العجيبَ في الأمر أنه تبرعَ بكلِّ هذه الأموال بعدَ دفع الضرائب كاملة.

إنَّنا في مجتمعاتنا العربية كثيرًا ما نعتقد أنَّه ليس على وجْه الأرض أمثالنا في الكرمِ والسخاء، بل وكثيرًا ما نصمُ المجتمعات الغربية بالمادية والأنانية وضعف وازع العطاء، ولكنَّ صورًا كهذه ترغمنا على أن نراجع حساباتنا ونظرتنا، ونسأل أنفسنا!

ومثلُ هذه الصور ليستْ ضربًا من الخيال، فتاريخنا الماضي مليء بخير من هذا، ولكنَّنا نعمي أبصارنا عنهم، ونتناسى أنَّ لنا ماض مشرقًا، وفيه من القدوة ما يُضاهي أمثالَ هؤلاء، ولنا في صحابة رسول الله ﷺ القدوة والأسوةُ الحسنة من أمثال: عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف وغيرهما، وقد كانا في عصرهما بمثابةِ أغنى أغنياء عصرنا، وبالرغم من أنهما قد بُشرَا بالجنةِ إلَّا أنهما لم يتوانيَا عن الإنفاق بسخاءٍ عند الحاجة؛ أمَّا عثمان بن عفان رضي الله عنه فيكفيه تجهيز جيش العُسرة من ماله. وأمَّا عبد الرحمن بن عوف التاجرُ الناجح الثري المؤمن، فقد تبرَّع لأهل المدينة بقافلةٍ من سبعمائة راحلة موقرة الأحمال، وبلغ من سِعة عطائه أنَّه كان يقال: (أهلُ المدينة جميعًا شركاءُ لابن عوف في ماله: ثلث يُقرضهم، وثلث يقضي عنهم ديونهم، وثلث يصلهم ويعطيهم)، وما زاده ذلك العطاءُ والإحسان إلَّا ثراءً، حتَّى أنَّه كان يقول: (لو رأيتُني رفعت حجرًا لوجدت تحتَه فضة وذهبًا..). وهل جزاءُ الإحسان إلَّا الإحسان، وأوصى بعد موته بخمسين ألفِ دينار في سبيل الله وأربعمائة دينار لكلِّ مَن بقي ممَّن شهدوا بدرًا، فأخذوا نصيبَهم حتَّى عثمان بن عفان برغم ثرائه وهو يقول: (إنَّ مالَ عبد الرحمن حلال صفو، وإنَّ الطعمة منه عافية وبركة).

إنَّ مسئولية الأغنياء والأثرياء تجاهَ مجتمعاتهم لا تقف عند ما

يفرضه عليهم الشرعُ أو القانون، وإنَّما تتعداهما إلى ما تفرضُه عليهم موجبات التآخي والتكافل والمواساة والنهضة بمجتمعاتهم وشعوبهم وأمتهم، وبمثل هؤلاء تزدهر وتنتصر الأمم.

تجارةٌ نُورِّثها أبناءنا

رغم أنَّ آرمند هامر Armand Hammer قد عُرف في الولايات المتحدة الأمريكية بنجاحه كرئيس لأكبر شركاتِ النفط العالمية؛ وهي أكسيدنتال Occidental، وأحد أكبر رجالات الصناعة، إلَّا أن اسمَه قد عُرف أكثر من هذا في إطار الأعمالِ الإنسانية والمشاريع الخيرية، ليس في أمريكا فحسب؛ بل وحول العالم.

ويُبين آرمند هامِر في كتابه الذي يروي قصةَ حياته جُذور روح حبَّ العطاء والإيثار والعوامل التي دفعت لها فيقول: لقد أصبح أبي شخصية مرموقة ومحبوبة إلى أبعدِ الحدود في المنطقة التي كنَّا نعيش فيها.. وكنت أتشوَّق، بل وأكاد أقول إنَّني كنت أعشقُ أن أجلس بجواره في عربته عندما كان يزورُ مرضاه في أيام الإجازة.

ولقد كانت تلفحُني نفحاتٌ من الاعتزاز والشرف أنَّني ابنٌ لهذا الرجل عندما كان مرضاه يخرجون ليحيّونه على عتبة باب بيوتهم بكلِّ حرارة ومحبة ومودة وامتنان وشوق.

لقد كان بحقٍّ رجلًا خيِّرًا.. ويستحقُّ بلا شك كلّ الحب والمودة التي كان يلقاها.

ثمَّ يستطرد الكاتب فيقول: (لقد كان باستطاعة أبي أن يكون أغنى مما كان بأضعافٍ مضاعفة لو أنه أصرَّ على مطالبة مرضاه بدفع فواتير الكشف الطبي، أو لو أنه توقفَ عن التبرع بماله بسخاء، ولكنه لو لم يفعلْ لما كان الرجل الذي كان).

(ولقد كنتُ أرى أدراجَ مكتبه ممتلئة بفواتير كشوفاتٍ طبية غير مدفوعة من قبل مرضاه، والتي يرفض أنْ يطالب أصحابها

بالسدادِ لعلمه بحالة مرضاه المادية. ولقد سمعت مرارًا في حياته وبعد وفاته قصصًا من مرضاه، وكيف أنه كان لا يكتفي بالكشف المجاني، بل وأنَّه كان يترك ثمنَ الدواء لمرضاه الفقراء بطريقة خفية حاذقة لا يعلمها إلَّا المريض).

إنَّ المبادئ والقيمَ والمُثل وكلَّ المعاني السامية لم توجد على وجْه الأرض لتُسطّر في أوراق الكتب ويتشدَّق بها المدعون، ولكنْ لتستقرّ في قلوب رجال عظماء فيسطِّرون بأعمالهم مواقف لا تسعها صفحاتُ الكتب.

وإنَّ أقيمَ وأصدق هدية يمكن أن نُهديها لأبنائنا هي قدوةٌ تتجلى في موقف ليبقى صورةً حية في الذكريات.

وما أعظمَها من مواقف! وما أبدعها من صور! وما أقيمها من ذكريات نورثها أبناءنا.. إنَّها تجارة الحب والعطاء والإيثار، فأنعمْ بها من تجارة، وأنعمْ به من إرث.

وهكذا تحيا النفوسُ الطيبة حين تعترف بالفضل، وتحافظ على النِّعم بإنفاقها في الخير، واستثمارها مع مَن يملك نماءها.

إنَّ نظرة المسلم لمثل هذه الأعمال تفوق الدنيا بكثيرٍ؛ حيث يعتقد أنَّ هناك رازقًا يملك العطاء، ويمنح البركة، فتتجلَّى صورُ الحب والبرِّ في أسمى معانيها، وترتبط الدنيا بالآخرة في يقين جازم.

الرَّسامُ الياباني والإمْبراطور

يُحكى أنَّ إمبراطور اليابان قبلَ مئات السنين أمرَ أشهرَ رسامي عصره برسم صورةٍ لطير معيَّن فريد من نوعه، وتروي القصة أنَّ الإمبراطور انتظر شهورًا وسنواتٍ دون أن يعودَ إليه الرسامُ ويجيب مطلبه، فغضبَ الإمبراطور وذهب بنفسِه ليزور الرسامَ في متحفه ليسأله عن سبب تأخيره.

وعندَ وصول الإمبراطور أجلسَه الرسام وأحضرَ لوحة بيضاء وبدأ يرسم الطير حتَّى انتهى من لوحتِه في وقتٍ وجيز، وكانت لوحةً في قمة الإبداع والإتقان أذهلتِ الإمبراطور وحاشيته، فأبدى تعجبَه من سرعة ومهارة وإبداعِ الرسام ودقة اللَّوحة وعنايتها بالتفاصيل، ثمَّ سأله الإمبراطورُ ما الذي أخّرك عنا سنوات وقد قمتَ بالعمل أمام أعيننا في وقتٍ وجيز! فلم يجبِ الرسام، وإنَّما ذهب إلى مخزنه وأخرجَ مئات اللوحات وقد رسمَ فيها أجزاء مختلفة من الطير المذكور، فقد رسم الرأسَ والعينين والمنقارَ والرقبة والجناحين والأرجل والمخالب، وحتَّى الريش، ولم يتركْ جزءًا إلَّا ورسمَه على حدةٍ في لوحات عدة.

ووضعَ هذه اللوحات الواحدةَ تلو الأخرى بترتيب أمام الإمبراطور الذي أومأ برأسه علامةَ الموافقة والرضا والإعجاب والامتنان.

أمَّا الحكمة اليابانية المتوارَثة والمستوحاة من هذه القصة فهي أنَّ إتقان العمل بمُجمله ما هو إلَّا محصلةُ إتقان كلّ جزء فيه.. والإتقان أساسُ النجاح.

فإذا أردت أنْ تحيا حياةً ناجحة فاسعَ لأن يكون عامك ناجحًا.

وإذا أردتَ أن يكون عامُك ناجحًا فاسعَ لأن يكون شهرك ناجحًا.

وإذا أردت أن يكون شهرُك ناجحًا فاسعَ لأن يكون يومك ناجحًا.

وإذا أردت أن يكون يومُك ناجحًا فاسعَ لأن تكون ساعتك ناجحة.

الحياةُ الناجحة المتقنة هي محصلةُ لحظات ناجحات متقنات، و (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه) (33).

---

(33) أخرجه أبو يعلى والطبراني، وصححه الألباني.

أبو جميل

إنَّ الصحة والعافية من أجلّ نعم الله على عباده..

لا يعرف قدرَها إلَّا مَن فقدها.. ولا يدرك حقَّ الإله في شكرها إلَّا مَن غابت عنه ولوْ لأمدٍ وجيز، أو مَن كان له قلبٌ واجل يعيش المعاني في غيره من البشر فيرى في ابتلاءِ الغير خيرًا زاجرًا وواعظًا، ويتفاوت عمقُ استشعار هذه المعاني في قلوبِ المدركين لهذه النعمة على قدْر إيمانهم وفتح الله لهم.

وقد يكرم اللهُ عبده في ساعةٍ من ساعات يومه بصورةٍ حيّة تُخرجه من تبلده الحسي، وتحمِّله بعدًا وعمقًا جديدًا في استشعار قدر هذه النعمة.

بينما كنت أقوم بدورتي الصباحية لتفقد مرضاي في المستشفى التي أعمل بها في بوسطن، رأيت في أحد الممراتِ شخصًا أعرفه منذُ سنوات وكنيته (أبو جميل) وهوَ في منتصف الأربعينيَّات من العمر، وهو مِن رواد المساجد في بوسطن ومن الإخوة الأفاضل، ولا نزكِّي على الله أحدًا، ويعرفني كما أعرفه حقَّ المعرفة.

وفوجئت أنه يرتدي لباسَ المرضى فاقتربت منه، وسلمت عليه فأجابني ولكنه لم يعرفني فاستغربتُ لذلك، ثمَّ بدأت أتحدثُ إليه فوجدت أنه لا يتذكر شيئًا ممَّا أقول، وفي هذه اللحظات حضرت الممرضةُ المسئولة عن العناية به فسألتها على حِدَةٍ، فأجابتني بأنه قد أصيبَ قبلَ يومين بجلطة في الدماغ، وبالرغم من أنه لم يصبْ بأيِّ نوعٍ من أنواع الشلل إلَّا أنه أصيبَ بفقدان الذاكرة، فهو لا يذكر شيئًا من الماضي، فسألتها: وماذا عن أهله؟ فأجابتني بأنَّهم متألمون بما حدث فهو لا يذكر زوجتَه وأولاده أو أي شيء من ماضيه.

وتذكرت أنَّ (أبا جميل) كان يحفظ الكثيرَ من القرآن فعدت إليه وسألته أن يقرأ لي سورةً من القرآن فلم يتذكرْ ولم يستطع.. فسألته أن يقرأ لي آيةً واحدة فتمتم وحاول، ولكنَّه لم يتذكرْ ولم يستطع، ولكنه أخذ يكرّر كلمتين فقط وهما (يخافون) و(يحزنون) فظننت أنه كان يحاول أنْ يقول ﴿ألا إنَّ أولِيَاء اللّهِ لاَ خَوفٌ عَلَيهِم وَلاَ هُم يَحزَنُونَ﴾ (35)، ثمَّ أشار إليّ بأنَّ المحاولة قد أجهدته، وأشاح برأسه عني في حزن وأسى، فانصرفت عنه، ولكنْ ما انصرف فؤادي وعقلي عمَّا حدث أيامًا طوالًا.

أينَ أنتم يا طغاةَ الأرض لتنظروا ماذا تفعل جلطةُ دم صغيرة لا تتعدَّى حجم حبة خردلٍ إذا سارت بأمر ربِّها في غير مجْراها واستقرَّت في غير منتهاها الطبيعي، وفي كلّ ثانية تتكونُ في أجسامنا آلافٌ من هذه الجلطات التي يحولها الجسم إلى سائلٍ دموي سَلِسٍ بإلهام الله وأمره، وفي كلّ ثانية تتعرضُ لأخطار في داخلنا لا نعلمها.. اللهُ يعلمها ويلطفُ بنا وهو اللطيف الخبير.

لقد كان (أبو جميل) ينعمُ بصحة وعافية، وفي لحظاتٍ لم يعدْ يذكر شيئًا ورُفع عنه القلم، وسقطت عنه الواجباتُ والفروض، وافتقده أهله رغم أنه على قيْد الحياة.. فهو بينهم وليس معهم.

وما يدري أحدُنا متى يرفَع عنه القلم، وما يدري أحدنا متى ينتهي به العمر ﴿وَمَا تَدرِي نَفسٌ مَّاذَا تَكسِبُ غَدًا وَمَا تَدرِي نَفسٌ بِأيِّ أرضٍ تَمُوتُ إنَّ اللّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (34).

---

(35) سورة يونس: 62.

(34) سورة لقمان، من الآية 34.

حقًّا.. إنَّها أمُّ الكبائر

إنَّ المتأملَ للمجتمع الأمريكي في تعاطيه مع بعض المشكلات الاجتماعية التي يطالُ أثرُها الكثيرَ من الناس يرى أنَّ العقوبات تكون صارمة مثلًا مع كلّ من يقبضُ عليه يقود سيارة وهو تحتَ تأثير المسكر بغضِّ النظر عن وقوع حادث أم لا.. إذا تأكد لرجل الشرطة أنَّ نسبة الكحول في الدم أعلى من النسبة المحددة من قبَل الولاية عن طريق التحليل المبدئي؛ عنْ طريق جهاز فحص خاص، وهو سهلُ الاستعمال وموجودٌ في معظم سيارات الشرطة.

إنَّ أمريكا التي تتفانى في الدفاع عن الحريات الشخصية، والتي لا يحرم فيها شربُ الخمور، بل وهي جزءٌ من شعائر وطقوس الدين المسيحي قد وصلت إلى وجوبِ إصدار مثل هذه العقوبات الصَّارمة حفاظًا على حياة الأبرياء حين تعارضتِ الحقوق الشخصية مع حقوق المجتمع.

وقد منّ اللهُ على أمتنا الإسلامية بتحريم شربِ الخمور، ولذلك فإنَّ المضارَّ المترتبة عليه أقلُّ انتشارًا في مجتمعاتنا العربية، ولكن بالرغم من ذلك فقد يكون في بعض مجتمعاتنا العربية من غير المسلمين أو مَن لا يلتزم بتعاليم الإسلام من المسلمين مَن يرتكب هذه الكبيرة، ويستر اللهُ عليه لعلَّه يتوب ويرجع، وقد حدث ذلك في خيرِ عصور الإسلام، وإنا ندعو لهم بالهداية.

إنَّ حوادث السيارات تزداد في بلادنا العربية، وتزداد كذلك الوفياتُ الناجمة عنها، وقد يكون منها ما هو نتيجةٌ لشرب الخمور، ومن الواجب علينا تقصي ذلك باستعمال أحدث الوسائل والأجهزة، وتنفيذ العقوبات الصارمة، والتي هي من أصل ديننا، فتكون بذلك واعظًا وزاجرًا.

حتَّى لا تسقط الحدود.. وحتَّى لا تذهب دماءُ الأبرياء هدرًا.

هُم القومُ.. فمَن نحن؟

يعودُ شهرُ رمضان في كلِّ عامٍ ليستحثَّ فينا التجديد، وكم نحنُ في حاجة إلى أن نجدِّد إيمانَ قلوبنا، ونحرِّر عقولنا من قيود الدنيا لنرتقي بقلوبنا وأرواحنا فوق ماديات الدنيا ومحبطاتها.

عادَ شهرُ رمضان يحمل مِن الخير ما يحملُ وليسأل: هل في أمة محمد من الأوعية ما يستقبلُ هذا الخير؟ ومَن فقد الوعاء القلبي والعقلي المؤهل لتلقي خير هذا الشهر فلنْ يكون رمضان له إلَّا طقوسًا وشعائرَ وجوعًا وعطشًا يتبعها انكباب على ملذَّات الدنيا وإشباع لغرائزها، كما أخبرَ صلواتُ الله وسلامه عليه في قوله: (رُبّ صائم ليس له من صيامه إلَّا الجوع) (39).

في أيامنا هذه لا بدَّ أن نُسائل أنفسنا كأفراد ومجتمعات: لمَ وصلت أمتنا إلى ما وصلتْ إليه من تداعي الأمم عليها كما تداعى الأكلةُ إلى قصعتها؟ ولم أصبحنا كغثاءِ السَّيل رغم كثرتنا، ولم فقدنا وزنَا بين الأمم والشعوب؟ وهل تبنى الأمم إلَّا ببناءِ الفرد، ومَن لا يبنيه ولا يقوِّمه ولا يصحِّحه ولا يحرره شهرُ الصوم فهل مِن شيء غير ذلك يبني؟!

ولنْ يكون التجديد والتصحيح والتحرير إلَّا عندما نتعمق في فهم الشعائر لنتعدى ظواهرها، ونحيا في أعماق روحها، فمفهومُ الصيام الصحيح الكامل يتضمن أكثرَ بكثيرٍ من مجرد الامتناع عن الطعام والشراب، فهو يقتضي أن تصوم جوارحُ المسلم بكليّتها عن كلّ ما يغضبُ الله، وأن يرتقي المسلمُ في خلقه وتعامله وفكره وأحاسيسه، وإذا أردنا أن نعرفَ هل صامت الأمة حقًّا فلننظر إلى معاملاتها وأخلاقها وتصرُّفاتها أثناء شهر رمضان وبعده، فإنْ لم يتغير شيء من هذا فما صامتِ الأمة إلَّا عن الطعام والشراب.

ومِن فضل الله أنَّ مَن فاته مكافأة يوم من أيام رمضان أعطي فرصة في اليوم التالي لعلَّه يفهم دروسَ الصيام، وهكذا طيلة الثلاثين يومًا.

علينا في هذا الشهر الفضيل، ونحن نرى إخوانًا وأخواتٍ لنا في مشارق الأرض ومغاربها فقراء جياعًا أن يصبحَ لمفهوم الطعام والشراب معنى آخر، وأن نذكر قولَ المصطفى صلوات الله وسلامه عليه: (ما ملأ ابنُ آدم وعاءً شرًّا من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمْن صلبه، فإن كان لا بدَّ فاعلًا فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلثٌ لنفسه) (38) وقوله تعالى ﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ﴾ (37).

إنَّ الأبحاث الطبية التي أجريتْ على أشخاص صائمين تؤكد أنَّ الفوائد الفسيولوجية لا تتم إلَّا بالالتزام بهذا الحديث، وكذلك الحالُ بالنسبة لفوائد الجهاز المناعي والقدرة على مقاومة الأمراض عامَّة، والأمراض السرطانية خاصَّة، والتي ذكرها رسولُ الله ﷺ قبل أكثر من أربعة عشر قرنًا في قوله ﷺ (الصومُ جُنَّة) (36) أي وقاية.

إنَّ الانغماس في التلذذ بأنواع الأطعمة المختلفة ورواج أسواق الأغذية في شهر الصومِ الفضيل من كلّ عامٍ لإشباع شهوة البطن يحتاج منَّا إلى وقفة وتساؤل: هل أصبحَ شهرُ الصيام شهرَ إشباع لشهوة البطن، أو أنه تحكم وسيطرةٌ عليها؟

وهل هذا انعكاسٌ لأمراض النفس وتمكن وتأصُّل الشهوات في النفوس؟

علينا في هذا الشهر الفضيل أن نقفَ عند الأثر القائل (نحن قوم لا نأكل حتَّى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع)، ونسأل أنفسَنا هل هناك معنى أعمق وأبعد من المعنى الظاهر لهذا الحديث؟

إنَّ ما ذكرناه عن الصوم إنَّما هو أمرٌ من أمور كثيرة عرفَها الجيل الأول وربَّاهم عليها شهرُ الصيام، وترجموها هم عمليًّا في حياتهم، فنهضوا بالبشرية إلى أعلى قمتها، فهل نحن القومُ الذين ذكرهم رسولُ الله، أم أنَّنا أصبحنا أشباه القوم؟!

---

(39) حسن صحيح، رواه النسائي، وابن ماجه، واللفظ لهما.

(38) رواه المقدام بن معدي كرب، سنن الترمذي، برقم 2380.

(37) سورة الأعراف، من الآية 31.

(36) رواه معاذ بن جبل وأبو هريرة، صحيح الجامع للألباني، برقم 3865.

فصلُ الدينِ عن الحياة

إنَّ من أعظم الأمور التي ابتُليت بها أمتُنا الإسلامية أنَّها عزلتِ الدين عن الحياة، فأصبحنا نرى مسلمين قوَّامين صوَّامين من أهل العزائم في الأخذ بأسباب القيام بالشَّعائر التعبدية، ثمَّ لا تجد لكلِّ هذا من انعكاس في حياتهم العملية وتعاملاتهم مع غيرهم من البشر، سواء كان ذلك في الأسواق أو الجامعات أو المستشفيات أو غيرها.

فيعامل المسلمُ غيره بما لا يحبُّ أن يُعامل به، ويحلُّ لنفسه ما يحرم لغيره، ويفعل ما ينتقد غيره على فعله، ولا يحترم حقوقَ البشر. فكيف حدثَ هذا الفصل؟ وكيف أصبحَ من المسلمين مَن يثق بأخلاقيات الرجل الغربي في التعاملات أكثر مما يثقُ بالرجل المسلم؟ وهل يرجعُ ذلك إلى وجود قوانين صارمة في الغرب (وخاصَّة أمريكا) تحفظ أدقَّ الحقوق للفرد فتدخل في التفاصيل الدقيقة من حفظ حق الكلمة والفكرة والاختراع والابتكار والإنتاج... إلخ. حتَّى أصبحت من المسلمات عند معظمِ الأمريكيين، وتركت في أمتنا إلى ضمير المسلم ومدى ورعه وتقواه وخلقه في التعامل؟

إنَّ الخُلق لهو من أهمِّ شروط ومظاهر الإيمان الحق. ولهذا امتنّ الله تعالى على نبيِّه وحبيبه فقال عزَّ مِن قائل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (41). وهذا الخلق لا يترك مجالًا من مجالات الحياة إلَّا ويبث فيه روح هذا الدين العظيم.

فإذا أردتَ أن تعرف مدى تديُّن والتزام مجتمع ما بالدين الإسلامي، فاسأل عن خلقِ التاجر في بيعِه وشرائه، واسألْ عن خلق الطبيب في فحصه وعلاجه، واسأل عن خلقِ المحامي في هجومه ودفاعه، واسأل عن خُلق الكاتب في انتقائه لكلماته وصدقِه

في عرض أفكاره، واسألْ عن خلق القاضي في حكمه وعقابه، واسأل في كلّ ميادين الحياة؛ فذلك أصدق برهان.

وإنَّ النبي الكريم ﷺ الذي قال: (إن أحبكم إليّ وأقربكم منِّي مجلسًا يوم القيامة أحاسنُكم أخلاقًا) (40) يؤكد بحديثه هذا على قيمة الأجر المتجسد هنا في الآخرة ولكن بما فعله المسلم وقدمه في دنياه.

وإنَّ الأمة التي يعلو شأنُ الأخلاق فيها لتدرك قيمةً ومكانة بين الأمم تفوق بكثير مَن تنازل عنها، واستعاض بها ماديات وحسابات الدنيا. إنَّ أخلاق المسلمين بالرُّجوع إليها لتضعهم في مصافِّ الأمم الراقية، والتي انبهرَ بها الأوروبيون قديمًا، ومازالوا حتَّى الآن ينقبون بحثًا عنها لترقى أممُهم، وتتغيَّر صورة مجتمعاتهم من الداخل.

---

(41) سورة القلم: 4.

(40) رواه جابر بن عبد الله، أورده الألباني في صحيح الترغيب، برقم 2897.

وزُلزلتِ الآمالُ في دقيقة

ذات ليلةٍ خلالَ إقامتي بالولايات المتَّحدة، أيقظني من نومي، وأيقظ كلَّ نزلاءِ الفندق زلزالٌ مريع، هزَّ القلوب قبل الجدران؛ وقد كانت هذه هي المرةَ الأولى في حياتي التي أشهدُ فيها هذه الآية من الآيات الرَّبانية في الكون، والتي لا أعتقد أنَّني سأستطيع أن أصفَها بالمشاعر والأحاسيس هنا.

فقدْ كنت في نوم عميق، وأحسستُ بالسرير يتحرك بقوة شديدة، ففتحت عيني ونظرتُ حولي بعدما أوقدتُ الضوء، رأيت كلّ ما حولي يتحرك بما فيه جدار الغرفة، وشعرتُ بالأرض تهزّ بناءَ الفندق من قواعده، وأنا في الدور التاسع، والمبنى يتأرجحُ يمنةً ويسْرة كأنَّه ورقة يتلاعب بها الرِّيح، فوجدت نفسي أنطق بالشهادتينِ وأناجي ربي وأدْعو ما استطعتُ في ثوانٍ غالية، قد تكون آخرَ ثوان لي على وجْه الأرض، وقد أدفَن بعدها حيًّا.

وعلمتُ بعدها أنَّ الزلزال استمرَّ قرابة دقيقة كاملة وإنْ كانت بمثابة دهر بالنسبة لي، وخلال هذه الدقيقة أدركتُ معنى قولَه تعالى ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (45)، فكأنما كشفت لي حياتي كلها أنظرُ إليها، خيرها وشرّها، وقد امتلأ قلبي خوفًا وذعرًا أن يكون كتابي قد أغلق، وتفيض النفس ألمًا وحسرة على كلّ لحظة من لحظات حياتي لم تستثمرْ لهذا اليوم (إن كان هذا يوم فراق الأرض ولقاء الرب).

نعم.. أحسستُ أنَّ الغطاء قد كُشف وأنا أنظرُ ببصر كالحديد، وأرى المعادلة واضحةً جليَّة بأمثل الطرق الحسابية، وقلبي يتسارع يكاد يخرج من صدري، وعقلي يسابقه، والقلبُ والعقل يتساءلان: هل بعْنا أم اشترينْا خمسة وثلاثين عامًا، مرَّت كأنها

بضعة أيام، مقابلَ حياة أزلية؟!

وهنا، تذكرت أنَّني ملزَم شرعًا بالأخذ بأسباب النجاة، والتي هي من قضاء الله وقدَرِه؛ فقفزتُ من سريري، وفتحت بابَ غرفتي فوجدت معظمَ نزلاء الطابق التاسع قد وقفوا فوقَ عتبات غرفهم، وهو ما يتبع في حالةِ وقوع الزلازل، حيث إنَّها أقوى نقطةٍ في البناء، وكلُّهم ذهول، وعلى وجوههم علامات الذعر والخوف، وجوهٌ صفراء شاحبة وكأنَّها سُحب الدم منها، ووقفت كما وقفوا ووجدت نفسي لا شعوريًّا أحمل مصحفي في يدي اليمنى ففتحتُه ومازالت الأرضُ تتحرك من تحت قدمي وأنا أناجي وأدْعو ما استطعت، وبما وفَّقني الله إليه، ففتحت المصحفَ أستمع لكلام الله، ففتحَ على سورةِ الروم صفحة 407، ووقعتْ عيني أولَ ما وقعت على رأسِ الصفحة، فقرأت قوله تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاء وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ٢٥﴾ (44).

والحقَّ أنَّني لم أستشعرْ في حياتي كلها بعمقِ صدى كلماتِ الله كمثل تلك اللحظة من حياتي، وقد أخذتْ كلّ كلمة من كلام الله عمقًا وبعدًا وصدى لم أشهده من قبل، وقرأتُ الآية الكريمة التي تليها ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ٢٦ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٢٧﴾ (43).

وهنا، توقَّف الزلزال فعدتُ إلى غرفتي، وأغلقت الباب، ولبست ملابس الخروج وعجلت بالنزولِ إلى خارج الفندق تحسُّبًا لحدوث زلزالٍ آخر، (وهو غالبًا ما يحدث عقبَ الزلزال الأول) فوجدتُ عند وصولي مئات من نزلاء الفندق كلّ يحكي تجربته

وهُم خائفون من العودة إلى غرفهم، وآثرت أنْ آوي إلى ركن بعيد لأكتبَ هذه الكلمات.

وتقدَّم أحدُ المسئولين، وأعلمنا أنَّ الزلزال كان قويًّا جدًّا (قوة 7 ريختر)، ولكن مركزُه كان على بُعد مائة ميلٍ في منطقة صحراوية.

حقًّا إنَّها رحمة الله ولطفُه، فلو قدَّر أن يكون مركزه أقربَ من ذلك لكان لنا شأن آخر، إنَّ ربي لطيف لما يشاء، وإنَّما هي آية وتذكرةٌ وعبرة لأولي الأبصار.

﴿هَل يَنظُرُونَ إلاَّ أن تَأتِيَهُمُ المَلائِكَةُ أو يَأتِيَ رَبُّكَ أو يَأتِيَ بَعضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَومَ يَأتِي بَعضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفسًا إيمَانُهَا لَم تَكُن آمَنَت مِن قَبلُ أو كَسَبَت فِي إيمَانِهَا خَيرًا قُلِ انتَظِرُوا إنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ (42)

---

(45) سورة ق، من الآية 22.

(44) سورة الروم: 25.

(43) سورة الروم: 27 -26.

(42) سورة الأنعام: 158.

دورُ المسجدِ في بناءِ الحضارة

إنَّنا في أمسّ الحاجة إلى أنْ نعيد استقراءَ تاريخنا، وأن ندرس عواملَ نجاح أمتنا في قيادةِ الإنسانية قرابةَ ألف عام، وبناء حضارة يشهد لها أعداؤها قبلَ أبنائها.

أيُّ مدرسة وجامعة فكرية وعلميةٍ واجتماعية تلك التي استمرَّت في إخراج أساتذة للإنسانية في العلوم النقلية والعقلية على حدٍّ سواء قرابة ألف عام من فقهاء ومُحدثين وعلماء في الطبِّ والهندسة والرياضيات والفلسفة والفلك والأدب وغيرها من علوم الدين والدنيا، قلَّما يجتمع مثل هذا الرقمِ الهائل منهم في حضارة واحدة، دعْ عنك أن يكونوا جميعًا نتاج مدرسة واحدة.

أمَّا المدرسة التي أقصدها فهي المسجدُ بمفهومه الشامل المتعمق، وهو مفهومٌ غائب عنْ كثير من أبناءِ أمتنا، المسجدُ الذي يمثل نقطةَ التقاء الأمة وتوحيدها والمظهرَ العملي لوحدتها، ولذلك كان أولُ أعمال أستاذ الإنسانية سيدنا محمد ﷺ هو بناءَ مسجد للمسلمين في قباء في أيامِه الأولى التي أمْضاها في المدينة، وبعدَ انتقاله من قباء إلى المدينة كان أولُ أعماله كذلك بناءَ مسجدِه ﷺ، وحمل أحجارَه بيديه الكريمتين فكان المسجد النبوي مدرسةَ الدعوة الإسلامية الأولى، ودارَ الدولة الإسلامية الكبرى، وكان المدرسةَ والجامعة ومقرَّ مجلس الشورى، وعقد الرايات، وتجهيز الجيوش، وإدارة شئون الأمة؛ صغيرها وكبيرها.

إنَّ المسجد في المفهومِ الإسلامي الخالص هو مقرُّ إعلان العبودية الخالصة لخالقنا: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (51)، وبما أنَّ العبادة في المفهوم الإسلامي شاملةٌ جامعة لحياة الإنسان العابدِ لله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٦٢ لاَ شَرِيكَ لَهُ

وَبِذَلِكَ أُمِرتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسلِمِينَ ١٦٣﴾ (50)، وبما أنَّ العلمَ في الإسلام شرطٌ أساسي في أداء العبادة الصحيحة بمفهومها الشامل فلا بدَّ إذًا من أن يقوم المسجدُ بدور نشْر العلوم، بل وأن يصبح منارةً ومقصدًا علميًّا.

وقد قام المسجدُ بدوره التَّعليمي منذ أيامه الأولى، وحثَّ رسولُ الله على هذا الدور العلمي؛ لقوله ﷺ (مَن غدا إلى المسجد لا يريد إلَّا أن يتعلم خيرًا أو يُعلِّمه كان كأجر حاج تامًّا حجُّه) (49)، وهذا المقصدُ التعليمي أوضحه وبيَّنَه ﷺ في حديثِه ليفرق بينه وبين البعدِ الشَّعائري من إقامة الصلوات في المساجد.

ولم يقتصرِ الدورُ التعليمي للمسجدِ على الرجال، بل نافستْ عليه النساءُ؛ لما أخرجه البخاري في صحيحِه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: (قالت النِّساء للنبي: غلبنَا عليك الرجالُ فاجعل لنا يومًا من نفسك، فواعدهنَّ يومًا لقيهن فيه، فوعظهنَّ وأمرهن) (48) وفتح المسجدُ صدره للمرأة تشهد دروسَ العلم ليتأكد حقُّ المرأة في تحصيلِ العلم ومشاركة الرجل في الحياة، وقد أعجبت السيدة عائشة أمُّ المؤمنين بإقبال الأنصارياتِ على العلم، فقالت: (نعمَ النساءُ نساءُ الأنصار لم يمنعهنَّ الحياء من أن يتفقَّهنَ في الدين) (47).

وكان رسولُ الله ﷺ يُشرف على حلقات العلم التي كانت تنتشرُ في أرجاء المسجد النبوي الشريف، خاصَّة في بواكير الصباح، حيث حدث عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسولَ الله ﷺ مرّ بمجلسيْن: أحدهما فيه دعاءٌ وإقبال على الله، والآخر فيه علم، فأقرَّهما وقعد في مجلس العلم، وشجَّع رسولُ الله ﷺ استخدامَ الوسائل المتاحة آنذاك لتوضيح المعاني والدُّروس،

سواء كانت بصريةً أو سمعية، ومن أمثلة ذلك ما رواه ابنُ مسعود بقوله: خطَّ لنا رسولُ الله خطًّا بيده ثمَّ قال: (هذا سبيلُ الله مستقيمًا) وخطَّ عن يمينه وشماله، ثمَّ قال (هذه السبلُ ليس منها سبيل إلَّا عليه شيطان يدعو إليه)، ثمَّ قرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ (46)، ولو أنَّ الوسائل التعليمية المتاحة لنا في عصرنا هذا وجدت في عصر رسول الله صلوات الله وسلامه عليه لحثَّ على استعمالها، وكان أوَّلُ مَن يستعملها ﷺ.

واستمرَّ المسجدُ في التطور والنموِّ جيلًا بعد جيل ليؤدِّي مهامَّه في صناعة الحياة ليصبح جامعات ومنارات علمية وفكرية رائدة، والأمثلة كثيرة، نذكرُ بعضها مثل جوامع الألف (وسمِّيت كذلك لأنَّه مضى على تأسيسها أكثرُ من ألف عام) مثل جامع عمرو بن العاص قلب الفسطاط الفكري، ومهد الحركة العلمية في مصر، والذي كان يشهد مئاتِ الزوايا العلمية، والجامع الأموي في دمشق، وجامع المنصور ببغداد، وجامع القرويين في فاس بالمغرب الذي امتازَ بالنظام التعليمي الجامعي وديموقراطية التعليم وطرق التدريس فيه، فكانت له شروط دقيقة للتعيين ووظائف التدريس وتخصيص كراسي الأستاذية والإجازات الفخرية، وكان له مساكنُ جامعية خاصَّة للطلبة والأساتذة ومكتبات متخصصة للدارسين الجامعيين، فقصدَها المسلمون وغيرُ المسلمين من شتى أرجاء العالم، وخاصَّة من أوروبا، أمثال القس غربرت دورياق الذي أصبح بابا روما، وكان التدريسُ يبدأ قبل طلوع الفجر وحتَّى الواحدة بعدَ منتصف الليل، أمَّا جامع الزيتونة بتونس فقد أبدع في شتَّى مجالات العلوم النقلية والعقلية، وضمَّت مكتبته العامرةُ ما يزيد عن مائتي ألف مجلَّد، وكذلك كان حالُ

الجامع الأزهر الذي بدأ كغيره كمسجد لإقامة الشعائر التعبدية، وسرعانَ ما أصبح جامعة تدرس فيها العلومُ المختلفة، وتخرج فيها علماء عمالقة في كلّ مجالات الحياة.

واشتركتْ كلّ هذه الجامعات العظيمة في تشجيعها لطلبتها على مبدأ المناقشة والمناظرة والتمرُّس عليها، فأصبحَ من المألوف أن يخالف الطالب أستاذه في الرأي في إطار الأدبِ المتعارف عليه، وبهذا أوجدت المدرسةُ العظيمة التي يطلق عليها بالمسجد (بمفهومِه الشامل) أجيالًا ستظلُّ معجزة العالم ومفخرته، ولها فضلٌ على كلّ علوم الدنيا: شرعية أو كونية أو إنسانية، حيث كوَّنت أساس النهضة العلمية والصناعية في الغرب.

وحظيَ القرنان الخامسُ والسادس الهجريَّان بالتوسع في بناء المدارس المنفصلة عن المساجد، ما أدَّى تدريجيًّا إلى فقْد شمولية التعليم في حلقات المسجد ليقتصر على العلوم الشرعية، وبدأ الضعفُ العلمي يدبُّ في الأمة، وممَّا زاد في تسارع الضعفِ والانهيار حدوثُ كوارث ثلاث في تاريخ أمة الإسلام على مدى ثلاثة قرون.

أمَّا الأولى، فهي حرقُ مدينة الفسطاط عام 564 هـ، وأمَّا الثانية فهي تخريبُ وحرق التتار لبغداد مركزِ الحضارة الإسلامية آنذاك في عام 656هـ، أمَّا الكارثة الثالثة فهي سقوط الأندلس عام 897هـ.

وبفقْد المسلمين للزعامة العلمية تمَّ فقدُ قيادة الإسلام للبشرية، وورثت أوروبا التراثَ العلمي فحمله أبناؤها وقدَّروه حقَّ قدْره، فرفع قدرهم ليتسلموا من المسلمين الزعامةَ العلمية وقيادة البشرية، وأصبح المسلمون يتخبَّطون في الجهل، وضاعت هويتُهم الإسلامية، فبدأوا يفصلونَ بين التعليم الديني والتعليم الدنيوي وهو مفهوم

غريبٌ عند جيلِ عمالقة المسلمين، وانفصلَ بذلك البعد الروحي والخلقي والتربوي للمسجد عن العلوم الدنيوية فضعف التحصيلُ في علوم الدنيا التي فيها قوام الحياة، وعمل الاستعمارُ على تقليص التعليم الإسلامي الشامل، فعملت بريطانيا على الأزهر وفرنسا على جامع القرويِّين في فاس، وكذلك الحال بالنسبة للزيتونة بتونس، ومِن وسائل تحجيم وتحييد هذه المساجد الجامعية إضعاف أوقافها، وتخرَّجت أجيال ممَّن صبغت بغير صبغة الله، وبغير صبغة مدرسة الإسلام، وابتعدَ المسلمون أكثرَ فأكثر عنْ مفهوم الشمولية العلمية وعمارة الأرض والأخذ بأسباب كلّ ما يقيم الحياةَ ويبنيها، بل وعندما فقدت صبغة المسجد فقدَ الإخلاص في تلقي العلوم، وسخرت أممٌ أخرى العلومَ بمعزل عن القيم الروحية وما يصلح النفس البشرية.

إنَّ ضعفَ دور المسجد هو انعكاسٌ لضعف الأمة الإسلامية، ولن تكون الصحوة الإسلامية إلَّا عندما يقوم المسجدُ بدوره الشامل ويرتقي بأساليبه ووسائله التربوية والتعليمية بما يتناسب معَ احتياجات العصر ومقتضياته ليصبح قلب الحياة الإسلامية من جديد، وهو واجبٌ عصري حيث لا يتمُّ واجبُ تعليم الجيل إلَّا به.

إنَّ هناك جهودًا حثيثة لإعادة دور المسجد في بناء الحضارة وصناعة الحياة، ومن هذه الجهود ما تقوم به الجمعيةُ الإسلامية في بوسطن من إقامة أضخم مركز حضاريّ في أمريكا يشمل مسجدًا جامعًا ومدرسة ومكتبة تكون مرجعًا للباحثين، ومركزًا لدعوة غير المسلمين وقاعات للمحاضرات.

---

(51) سورة الجن: 18.

(50) سورة الأنعام: 163 - 162.

(49) أخرجه الطبر اني في المعجم الكبير، برقم 7473.

(48) جزء من حديث.، رواه أبو سعيد الخدري، صحيح البخاري، برقم 101.

(47) صحيح أبي داود، برقم 316.

(46) سورة الأنعام، من الآية 153.

وجاءته الدُّنيا راغمة

أيْقظتني نفسي هذه الليلة، وحدَّثتني بحديثٍ أقضَّ مضجعي، وأطارَ النومَ من عيني، ومازلتُ أسمع منها، وأحسب أنني أردُّ عليها، حتَّى استدرجتني بحجَّتي لتهزمني بها، فأصبحت كالطفل الجاهل الشَّغوف بين يديها، فقفزتُ من فراشي ووضعت قلبي من وراء قلمي، وقلمي بين يدي، وساءلتها بما لي عليها، أن تخطَّ على الورق ما سرَى في العِرق لعلّ القلم يأسر روحَ حديثنا فلا يُنسى مع بزوغ الشمس عليها، وليكون وقع ما سرَى في هذه الليلة على الورق من حبر القلم أطولَ عمرًا ممَّا سرى في القلب من دم العِرق.

قالت لي نفسي: متى ستضربُ بجناحيك آفاق السماء بكلِّ ما أوتيت من قوة وجلد على المشقةِ والعناء؟ وهل تنتظر أن يفوتك الوقتُ ويمضي العمر، أو أن تحرم جناحًا من جناحيك، أو فضلًا قد أسبغه الله عليك.

فقلتُ لها: أرْهقتني يا نفس.. وجلبت عليَّ الحزن والشقاء، أَوَكُلما ارتفعت درجة ازدادَ تأنيبُك لي على ما قد فات من درجات؟!

فقالت: إنْ كنت ترى أو تجد في التحليق مشقةً وعناء، فأنت لم تترك الأرض ساعةً بعد، ولم تعرف لذَّة الشوق للقاء.

فقلت لها: كيف لي أنْ أجوبَ السماء وأتركَ الأرض ورائي، وشقائي وكدِّي فيها هو طريق النجاة.

فقالت لي: إنَّما تجوبها بروحك، ويبقى جسدُك على الأرض يضرب فيها ويأخذ بالأسباب، وهل للجسدِ من قوَّة غير التي تمدُّه الروح بها بتحليقها فوق كلّ ما هو دنيوي وكلِّ ما هو فانٍ.

وإنَّما تملك الدنيا بين يديك، ولا يكون لها من نصيبٍ في قلبك،

وتسخرها لكل ما يعينك على العلوِّ والارتقاء، ويُهيِّئك ليوم اللقاء. وإنَّما يملك الدنيا مَن لا يطلبها، ولو طلبَها فلن تأتيه، وإنْ بدا للجُهَّل أنَّها قد تفعل، وهل لأسبابِ السعادة من قيمة إن لم تحقق غاية وجودها، وهل يغني المرء أن يمتلك أسبابها ويفتقد غاياتها.

وإنَّما أدعوك الساعةَ أن تعود فتقرأ ما ظننت أنَّك قد قرأت منذ زمن، وقد قرأتْه عيناك، ولكن عجز القلب أن يقرأه فأجبتها، وأخذت أبحثُ في جوف الليل عن كتاب (وحي القلم) للرافعي فوجدتُه في مكتبتي، وما ظننت أن أجدَ ما كنت أبحث عنه فيه لتقادُم عهدي بما قرأت، ولكنّ أسبابَ الروح ليست كأسباب الجسد، ولله سبُله التي يهدي بها مَن يشاء، فشاءت القدرةُ الإلهية أن أجده، وإنني أخطها كما قرأتها بدون زيادةٍ أو نقصان وهي من خبر الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله ممَّا حُكي عنه: يقول صاحبُ وحي القلم(53): (فإنه لما زالت المحنة بعد أن ضُرب بين يدي المعتصم، وصُرف إلى بيته، حُمل إليه مالٌ كثير من سروات بغداد وأهل الخير فيها، فردَّ جميع ذلك ولم يقبلْ منه قليلًا ولا كثيرًا، وهو محتاج إلى أيسره، وإلى الأقلِّ من أيْسره، وإلى الشيء من أقلِّه، فجعل عمَّه إسحق يحسب ما ورد ذلك اليوم، فكان خمسين ألف دينار، فقال له الإمام: يا عم، أراك مشغولًا بحساب ما لا يفيدك، قال: قد رددت اليوم كذا وكذا ألفًا وأنت مُحتاج إلى حبة من دانق، فقال الإمام: يا عم، لو طلبناه لم يأتنا، وإنَّما أتانا لمّا تركناه).

رحم اللهُ الإمام وكلَّ مَن لم يطلبها، وكلَّ مَن كانت في يديه لا في قلبه، وقليلٌ ما هم، وقد روي عن رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح (من كانتِ الآخرةُ هَمَّهُ جعلَ اللَّهُ غناهُ في قلبِهِ وجمعَ لَه شملَهُ وأتتهُ الدُّنيا وَهيَ راغمةٌ، ومن كانتِ الدُّنيا

هَمَّهُ جعلَ اللَّهُ فقرَهُ بينَ عينيهِ وفرَّقَ عليهِ شملَهُ، ولم يأتِهِ منَ الدُّنيا إلَّا ما قُدِّرَ لَهُ) (52).

صدقَ رسولنا الكريمُ عليه أفضلُ الصلوات والتسليم.

---

(53) الزاهدان (2)، ج 2، 150.

(52) رواه أنس بن مالك، صحيح الترمذي، برقم 2465.

الصومُ والغَضب.. والإعجازُ العلمي

إنَّ مفهومَ الصيام الصحيح الكاملَ يتضمن أكثرَ بكثير من الامتناع عن الطعام والشراب، فهو يقتضي أنْ يصوم المسلم، وتصوم جميعُ جوارحه عمّا يغضب الله. بل وقد يكون هذا الجزءُ من الصيام أشدَّ على النفس وأكثرَ صعوبة في الالتزام؛ ولذلك أمرنا رسولُ الله ﷺ خصوصًا أن نتجنَّب ما قد يجرُّنا إلى الانفعال والغضب، فعنْ أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: (إذا كان يومُ صوم أحدكم فلا يرفث، ولا يصخب، فإن سابَّه أحدٌ أو قاتله، فليقلْ إني صائم) (56).

والغضبُ مكروهٌ في كلّ أيام المسلم، وإنْ كان في تركيز رسول الله ﷺ على (يوم صوم أحدكم) صورةٌ من صور الإعجاز العلمي.

وعلمُ الطب الحديث يُجلي لنا وجهًا من صور هذا الإعجاز، فعندما نغضب تزداد عشراتُ الأضعاف نسبةُ إفراز أحد هرمونات الجسم المسمَّى بالأدرينالين (Adrenalin)، ويقوم هذا الهرمونُ بوظائف مختلفة نذكر في مقالنا هذا أربعًا منها فقط، وتأثيرَ كلّ وظيفة في (يوم صوم أحدكم).

أوّلًا: يؤدي هرمونُ الأدرينالين إلى ارتخاء عضلات الجهاز الهضمي وتحويل الدم إلى العضلات والقلب، وبذلك يضطرب عملُ الجهاز الهضمي بشكل عام، فيؤدي إلى عُسر هضم إذا وقعَ الغضب والانفعالُ في فترة هضم الطعام والامتصاص في أول يوم الصائم.

وفي اضطرابِ هضم الغذاء اضطرابٌ عامّ لجميع أجهزة الجسم، فيبدأ الصائم يومَه باضطرابٍ في أجهزة جسمه، بالإضافة إلى تعكير صفوه.

ثانيًا: يؤدي هرمونُ الأدرينالين إلى زيادة وتسارع حرْق مخزون الجلايكوجين Glycogen في الكبد، وهذا المخزونُ مُهمٌّ فهو يتحول إلى سكر (جلوكوز) في الدم ليمدَّ الجسم بالطاقة اللازمة أثناء الصيام.

وفي حال الغضب كما ذكرنا سابقًا يزدادُ إفراز هذا الهرمون عشرات الأضعاف، وبذلك يحترق مخزونُ الجلايكوجين سريعًا ليمدَّ الجسم بما يحتاج إليه من طاقة أثناءَ الشجار والعراك، وفي هذا استنزافٌ لطاقة الجسم أثناء الصيام، فما ينتصف نهارُ الصيام إلَّا وقد أحسَّ المسلم الصائم بإنهاكٍ شديد وتعب وإجهاد نتيجةَ استنزاف طاقته في غير محلِّها الصحيح.

ثالثًا: يؤدي هرمونُ الأدرينالين إلى زيادة الإدرار البولي، وبذلك فإن الصائم يفقد كميةً أعلى من السوائل إذا غضبَ أثناء صيامه، وفي هذا إجهادٌ للكليتين والقلب وإضرارٌ به وبجسده، وقد يصيب الصائم من جرَّاء ذلك إحساس بعطش شديد وإنهاك وإعياء في آخر يوم صومِه نتيجةَ زيادة إفراز هذا الهرمون أثناء غضبه.

رابعاً: يؤدي هرمون الأدرينالين بشكل عام إلى زيادة دقات القلب وارتفاع ضغط الدَّم، وتقلص الأوعية الدموية في الأطراف، وازدياد احتياج عضلة القلب للأكسجين، وإذا كان شريانُ القلب مريضًا إلى الحدِّ الذي يسمح بتكوين جلطة في جدارِه الداخلي، سواء كان المريضُ على علم بذلك أم لا، فإنَّ حالات الغضب قد تؤدي إلى انسدادِ الشريان وموتِ العضلة، وهذا ما يسمَّى بالذبحة الصدرية.

إنَّ الذي يغضب خصوصًا في رمضان لغيرِ ما يغضب الله من سفاسف الأمور وتوافهها؛ يفوت عليه الكثير، ففي ذلك نقصٌ

في الأجر والثوب واستخفاف بالعقل والفؤاد وإهدارٌ للطاقات.

قال ابنُ عمر لرسول الله: قل لي قولًا وأقلله لعلّي أعقله، قال (لا تغضب) فأعدت فقال: (لا تغضب) فأعدتُ فقال: (لا تغضب) (55). صدق الرسول الكريم.

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ٣ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ٤﴾ (54).

---

(56) متفق عليه.

(55) أورده ابن حجر العسقلاني بإسناد حسن.

(54) سورة النجم: 4 - 3.

شهرُ رمضان بين المُسرفين والمُتنطّعين

إنَّ مَن يظنُّ أن ما تعايشه أمتنا من ضعفٍ وذلٍّ وهوان هو حصادُ أعمال أعدائنا، فعليه أن يعيد النظرَ لعلَّه يرى ما نرى، ويدرك أنَّ ما نعانيه هو حصادُ أمراض نفوسنا، وانحراف فهمنا وسوء تطبيقنا لآخر الرسالات السماوية على وجه الأرض.

إنَّ انعكاسات أمراض النفس أو انحراف الفهم أو سوء التطبيق على الحياة الإسلامية؛ واضحةٌ جليَّة في كلّ ميادين الحياة، ولكن تكرار هذه الصور ألبس في عقول المتلقين لها صورًا أخرى لا تقلُّ ضررًا فيما تحمله في داخلها، ولكنها لا تثيرُ في نفوس المسلمين حميةً أو غيرة لدينهم، فقد ألبست هذه الصور ثوبًا مألوفًا ليغطّى به الانحراف، ولكي لا تنكره النفوس، وبمثل هذا تتبلَّد أحاسيس الأمة وتُحيّد في صراع الأمم.

وفي شهر رمضان، تظلُّ هذه الصور ولكنَّها تلبس صورًا رمضانية لكي لا تنكرها أعينُ وآذان وعقولُ وقلوب الناس، والصورُ كثيرة ولكنّني اخترت منها اثنتين فقط، حيثُ شاهدتهما في شهر واحد، وهمَا يحملان من التناقض والتنافر والتباعد ما بين المشرقِ والمغرب، ولا أحسب أنهما يخرجان من مشكاةٍ واحدة، فكان لذلك أكبر الأثرِ في نفسي، وأحببت أن أشارككم ما وقعَ في نفسي، خاصَّة وأن قلوبنا تنزف في هذه الأيام المباركة معَ إخواننا وأخواتنا وأطفالنا في بيت المقدس، ونتوجَّه في أمريكا ساعةَ الإفطار إلى القنوات الفضائية العربية لتطالعنا أخبارهم، ونتوجَّه إلى الإنترنت لنعرف تفاصيلَ ما يحدث لهم، ونشاركهم جهادهم وكفاحهم وآلامهم وأحزانهم.

أمَّا الصورة الأولى التي شاهدتها في القناة الفضائية، فهي برنامج يسمى (خيمة رمضان)، وكان الأولَى أن يسمَّى (خيبة

لا خيمة)، وقد اجتمع في هذه الخيبة بعضُ مَن ينتسبون إلى العرب ونحن منهم بَراء على الغناء والطرب والمجون وملء البطون وتدخين السُّموم وتعرض علينا بالساعات، ويتبجَّحون بأن ينسبوا هذه الصورَ المنحرفة إلى رمضان وبركات رمضان، بل ويغنون ويتراقص المغنُّون على بركة رمضان، وهُم على هذا الحال المنحرف ورمضانُ بريء منهم وممَّا يسرفون.

أمَّا الصورة الأخرى، فهي لا تقلُّ غرابة عن أختها الأولى، وإن كانت على النقيض الآخر، ففي وقتٍ تنظر فيه الأمةُ الإسلامية إلى علمائها وورثة أنبيائها أن يفتوها في أمورها العظام وأنْ يرشدوها إلى أولويَّاتها في عصر تكالبت فيه عليها المحنِ من كلّ مكان، ويحثُّوها في أشهر الجهاد والعبادة والجدية على قيام أبنائها بواجباتهم تجاه دينهم وإخوانهم، ننتظرُ أن يفتى لها في حكم التقاعس عن نصرة ودعْم إخواننا وأخواتنا في أرض بيتِ المقدس الذين يُمنع عنهم الغذاءُ والماء بل والدواء، فهم لا يجدون ما يروون به ظمأهم ويبلُّون به ريقهم، نجد فتوى ترسل إلى الملايين في أمريكا، وحولَ العالم عبر الإنترنت تقول (هل يفطر الصائمُ ببلع الريق؟) ويُجاب على الفتوى أنَّ العلماء قد أجمعوا على أنَّ مَن بلع ريقَ نفسه لا يفطر لأنَّ الريق من الفم فلا يؤثرُ على الصائم بلعه، ولا تقف الفتوى عند ذلك بل تسترسلُ وتستطرد: هل يكره ذلك أم لا يكره؟

وإنَّني أقرأ قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (58)، وقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (57)، وأسأل: أين هي تلك الأمةُ العظيمة، وهل انكمشت وتقلصت ما بين مسرفين ومتنطعين؟!

ووالله إنَّ القلب ليحزن، وإنَّ العين لتدمع حينَ نعيش مثل هذه المواقف، وقد كان من المفترض أنْ تعلو الأمةُ بأخلاقها وسلوكها إلى ما يناسب قيمتها وقدْرَها، بل وما يؤمَّل فيها من تغيير للعالم بأسْره، ولكن كيفَ وقد أصبحنا نحلمُ ونرجو التغيير لمجتمعاتنا فقط ممَّا أصابها، والله المستعان.

---

(58) سورة البقرة، من الآية 143.

(57) سورة آل عمران، من الآية 110.

هل ستصومُ الأمَّة.. أم تُستبدل؟

كتبَ الرافعي في مقالٍ له بعنوان (شهرٌ للثورة.. فلسفة الصيام) (59) فقال عن الصِّيام: (.. فقرٌ إجباري يُراد به إشعارُ النفس الإنسانية بطريقة عملية واضحة كلّ الوضوح، أنَّ الحياة الصحيحة وراءَ الحياة لا فيها، وإنَّها إنما تكون على أتمها حينَ يتساوى الناس في الشعور لا حين يختلفون، وحين يتعاطفون بإحساس الألم الواحد، لا حين يتنازعون بإحساسِ الأهواء المتعددة، وبهذا يضع الإنسانية كلها في حالةٍ نفسية واحدة تتلبَّس بها النفسُ في مشارق الأرض ومغاربها، ويطلق في هذه الإنسانية كلِّها صوتُ الروح يعلِّم الرحمة ويدعو لها. ومِن قواعد النفس أن الرحمة تنشأ عن الألم، وهذا بعضُ السِّر الاجتماعي العظيم في الصوم، إذ يبالغ أشدَّ المبالغة، ويدقق كلّ التدقيق، في منْع الغذاء وشبه الغذاء عن البطن وحواشيه مدةً آخرُها آخرُ الطاقة، فهذه طريقة عملية لتربيةِ الرحمة في النفس، ولا طريقة غيرها إلَّا النكبات والكوارث، فهمَا طريقتان كما ترى: مبصرة وعمياء، وخاصَّة وعامَّة، وعلى نظامٍ وعلى فجأة). انتهى كلام الرافعي.

وإنَّني إذ أقرأ هذه الكلمات، أستشعرُ أن من موجباتِ تحقيق أعمال الصيام في النفس هذا العام هي ثورة تُعلي صوت الروح لتعلم الرحمة، وتدعو لها من مشارق الأرض إلى مغاربها، وإلَّا فكيف يكون لصوم خيرِ أمَّة أخرجت للناس معناه الذي ابتغتْه الشريعةُ الغرَّاء؟ وكيف يعلو صوتُ الروح وما استشعرت أمة محمد ﷺ بعدَ الفقر الإجباري الذي فرضه الصيام عليها؟ وكيف يعلو صوت الروح ومازالت خيرُ أمة أخرجتْ للناس مشغولةً بحياتها مهمومة بأعمالها ولا يدرك جُلها أنَّ الحياة الصحيحة وراء الحياة لا فيها؟ وكيف تدرك أنَّها وراء الحياة لا فيها وقدْ ألبستها الحياةُ من

لباسها حللًا زاهية، وأسمعتها أجملَ كلامها، وأرتها أبدعَ صورها، فما عادتِ الأمة تسمعُ أو ترى إلَّا صوت الحياة صاخبًا عاليًا، غالبًا على كلّ الحواس.

إنَّ شهرَ رمضان هو شهرُ الثورة على كلّ شهوات الحياة بمختلف صورها وبذل للجهد والطاقة من أجل تحطيم القيود وكسر العادات التي تحول بين إعلاء صوت الروح والإبصار بما وراء الحياة، وهل كتب اللهُ أن تكون معركتَا بدر وأحد أهمَّ معركتين في تاريخ الأمة وتاريخ الإنسانية إلَّا في شهر الثورة (شهر رمضان) تأكيدًا وتجسيدًا لأهمِّ الدروس العملية لمعنى الصيام من إعلاء لصوت الروح، وهل يعْلو صوتُ الروح في الأرض إلَّا بإعلاء صوت الحق والانتصار له، فكان انتصارُ معلِّم البشرية وخاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ للحق في معركتي بدر وأحد ومعارك أخرى، واقتدى صحابته وتابعوهم بمثل هذا فكانت معاركُ الإسلام الكبرى في هذا الشهر الفضيل، وهل تكتمل معاني الصيام لتحقيق المفهوم الشامل للعبادة إلَّا بمثل هذا.

إنَّ مِن المقاصد العليا في هذا الشهر استشعارَ معاناة الإنسانية بشتى صورِ فقرها ونقصها، وعجزها وضعفها وقهرها، استشعار العاملين لا الخاملين، وإن الأرض في أمسّ الحاجةِ أن تحقق الأمةُ التي حملت آخر الرسالات السماوية مفهومَ الصيام الذي ابتغاه اللهُ منها من أجل تحريرها من كلّ ظلمٍ وقهر واستبداد واستعباد، وبقاع الأرض تئنُّ تحت وطأة الظلم والفساد، وأكثرها أنينًا هي الأرض التي باركها الله وباركَ حولها؛ أرضُ الإسراء والمعراج، الأرض التي اختارها الله دون بقاع الأرض قاطبة ليعرج بآخرِ رسله منها إلى السماء، وليؤمَّ جميع الأنبياء والرسل، ولتكون إعلانًا للبشرية جمعاء، وللأمة التي حملت أمانة هداية البشرية من أنه لا طريقَ للسماء إلَّا من هذه الأرض

وتحريرها وإذعانها لشريعة السماء وهدي الأنبياء.

فهل ستصوم الأمَّةُ هذا العام، وتدرك أنَّ الحياة الصحيحة وراء الحياة لا فيها؟ وهل سيعلو صوتُ الروح يعلِّم الرحمة ويدعو إليها؟ وهل سيربي الصيام الرحمةَ في نفوس أبناء الأمة على كلّ منكوبي الأرض وضعفائها فينتصروا للحق وأهله؟

وإنْ لم تفعل الأمةُ فهل لها غير طريق النكبات والكوارث يبصرها برسالتها والأمانة التي حملتها؟ أو استبدال الله لها بغيرها، وكيف لا وأهلُ الباطل يزدادون تطرُّفًا وقهرًا، وأهلُ الحق يزدادون خنوعًا وخورًا.

---

(59) مقال (شهر للثورة فلسفة الصيام (، وحي القلم، ج 2، دار الكتب العلمية، بتصرف، 57 : 58.

أولوجوان الصَّائمُ ينْتصر

مِن ذكْرياتي أثناءَ إقامتي بالولاياتِ المتَّحدة قصَّة أولوجوان، وهو لاعبُ السَّلة المسلم المعروف في أمريكا، واسمُه الكامل حكيم أولوجوان، وكان ينظرُ إليه معظمُ المحللين الرياضيين على أنه أفضلُ لاعب سلة في أمريكا. وقد لعب واحدةً من أهمِّ مباريات حياته بين الساعة الواحدة والرابعة مساء وهو صائم، ولا يخفى على الجميع ما تتطلبُه هذه الرياضة من مجهود عضلي وعصبي، بالإضافةِ إلى كمية السوائل المفقودة من الجسم التي تحتاج إلى تعويض سريع، وتؤدي إلى الإحساس بعطشٍ شديد، تصعب السيطرة عليه في مثل هذه الظروف. ومعَ ذلك فإنَّ حكيم أولوجوان الذي عُرف عنه الالتزامُ بالشعائر الدينية والأخلاق الإسلامية الرفيعة استطاعَ بتوفيق الله وبركة الصيام أن يظهر بأفضل صورة، ويحقق أكثرَ أهداف المباراة، ويساعد على انتصار فريقه.

وعندَ سؤاله بعد انتهاء المباراة وإحراز النصر عن تأثيرِ الصيام عليه.. وهل أضعفه جسديًّا، أجاب بأنَّ الصيام يعلم الإنسانَ التحكم بملذاته وشهواته، وهنا تكمن القوةُ الحقيقية فلم أفكر في العطش.

وبالرَّغم من أنني لستُ من هواة السلة، ولا ممَّن يتابعون المباريات الرياضية بشكل عام، إلَّا أنَّ هذه الكلمات البسيطة كان لها صدى واسعٌ في أمريكا، فالمتابعون لهذه المباراة قد يصلونَ إلى الملايين، وقد فوجئت بكثرة الأسئلة التي تلقَّيتها في الأيام التالية لهذا الحدثِ من الأطباء الأمريكان الذين أعمل معهم، بل ومِن الكثير من مرضاي، ممَّا فتح لي بابًا للدعوة لم أحلمْ به لتوضيح فلسفة الصيام في الإسلام وتأثيرها على الجسد والروح والعقل.

فهذه الكلماتُ البسيطة التي قالها أولوجوان كان لها من التأثير

ما يفوق جهودَ مئات من الدُّعاة، خاصَّة وأنَّ هذا يتحدث بلسان قومه من واقع قدوةٍ عملية.

إنَّ الإسلام انتشر في معظم أقطار العالم الإسلامي بالقدوة الحسنة، ومثال ذلك ما كان للتجارِ المسلمين من فضلٍ في نشر الدعوة في أندونيسيا، والتي هي أكبر دول العالم الإسلامي كثافة، وكذلك في معظم أنحاء أفريقيا.

إنَّنا نحتاج إلى دعاة قدوة ليثبتوا نجاحَهم ويبرزوا في مجالاتهم، وهؤلاء هم الدعاة وهُم صُنَّاع الحياة.

عِيدٌ.. بأية حال عُدتَ يا عِيد؟!

العيدُ وقتُ الفرح والسرور، وهو وقتُ استعادة ذكريات إنجازاتنا وأعمالنا خلال عامنا.. وهو وقتُ استرجاع النظر إلى الأيام الخالية بسرور وغبطة واعتزاز.. وهو وقتٌ يعود فيه أعضاءُ المجتمع بعضهم بعضًا ليتحسَّس جسدُ المجتمع أعضاءه فيتمّ التكافلُ والتراحم، كما قال رسول الله ﷺ: (مثلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم كمثلِ الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائرُ الجسد بالسَّهر والحمى). (60)

وقد ينظر أحدُنا إلى أعماله الفردية وإنجازاته الشخصية خلالَ عامه فيجدها بفضل ربِّه زاخرةً مثمرة، فيمتلئ قلبه غبطة واعتزازًا، ولكنَّه يسترجع نظره إلى جسد الأمة، الذي هو عضوٌ منه، من مشارقه ومغاربه، ثمَّ يتساءل: كيف كان عامنا.. وكيف رجع عيدنا..؟!

إنَّ الذي يفرح بِعيده وأمتُه تبكي وتئن، هو كاليدِ التي تفرح بسلامتها بينما اليدُ الأخرى تتألَّم تحت وطأة العذاب!

كيف للقلب أن يسعدَ وفي الجسد آهاتٌ وأوجاع؟! وكيف للعين أن تقرّ وهي ترى أمامَها شريط أحداث العام السابق لأمتها. وكل ما يحتاجه أحدُنا هو أن ينظر إلى الصحفِ العالمية ليرى أننا أصبحنا حديثَ العالم ومحورَ الصراعات والنزاعات والحروب والتشريد والجهل والفقر والجوع، ففي أعضاء جسد الأمة الإسلامية من المآسي ما يضاهي مآسي شعوب العالم مجتمعة.

نعم.. لقد أصبح لنا نصيبُ الأسد من هذه المآسي والآلام.

وفي كلّ عيدٍ ندعو أن يرجع عيدُنا بخير ممَّا ذهب..

وما أدري أعِيدُ اليوم خيرٌ من عيد الأمس.. أم أنَّ عيد

الأمس خير من عيد اليوم؟! ولكنَّنا ندعو الله أن نرى اليومَ الذي تحتفل فيه أمتُنا بعيدها كما يجب أن تحتفل به بكلِّ أعضائها وأطرافها وهي معافاة سليمة وقد جفّت دموعُها والتأمت جراحها.

---

(60) رواه النعمان بن بشير، صحيح مسلم، برقم 2586.

فلسفةُ العيد

أخذتُ أُقلِّب عقلي وفؤادي أبحثُ عن ذلك المعنى للعيد الذي هو أوجبُ وأدعى أن يُذكر في يوم عيدنا هذا في عصرنا هذا، ليجسد حالنا، وليكون بمثابة اليوم الذي تستعرض فيه الأمةُ جمالَ أرواحها وأعمالها وإنجازاتها وأنظمتها الاجتماعية، فلم أجد ما هو أصدق لسانًا، وأدقَّ وصفًا للمعنى الذي أنشدُ من كلماتٍ خطتها يدُ الأديب المرهف ذي الضمير الحي في قلب الأمة الأستاذ مصطفى صادق الرافعي من كتابه (وحي القلم).

يقول الرافعي(61): (ما أشدَّ حاجتنا نحن المسلمين إلى أن نفهم أعيادنا فهمًا جديدًا، نتلقاها به ونأخذها من ناحيته، فتجيء أيامٌ سعيدة عاملة، تنبِّهُ فينا أوصافها القوية، وتُجدِّد نفوسنا بمعانيها، لا كما تجيء الآن كالحةً عاطلة ممسوحة من المعنى، أكبر عملها تجديد الثياب، وتحديد الفراغ، وزيادةُ ابتسامة على النفاق.

فالعيدُ إنما هو المعنى الذي يكون في اليوم لا اليوم نفسه، وكما يفهم الناسُ هذا المعنى يتلقَّون هذا اليوم، وكان العيد في الإسلام هو عيدَ الفكرة العابدة، فأصبح عيدَ الفكرة العابثة. وكانت عبادة الفكرة جمْعَها الأمة في إرادة واحدة على حقيقة عملية، فأصبح عبثُ الفكرة جمعها الأمة على تقليد بغير حقيقة، له مظهر المنفعة وليس له معناها.

كان العيد إثباتَ الأمة وجودها الروحانيَّ في أجمل معانيه، فأصبح إثبات الأمة وجودها الحيوانيَّ في أكثر معانيه، وكان يوم استرواح من جدِّها، فعاد يوم استراحة الضعف من ذُلِّه، وكان يوم المبدأ فرجع يوم المادة!

ليس العيد إلَّا إشعار هذه الأمة بأنَّ فيها قوة تغيير الأيام، لا

إشعارها بأنَّ الأيام تتغيرُ، وليس العيد للأمة إلَّا يومٌ تعرض فيه جمال نظامها الاجتماعي، فيكون يوم الشعور الواحد في نفوس الجميع، والكلمة الواحده في ألسنة الجميع، يوم الشعور بالقدرة على تغيير الأيام، لا القدرة على تغيير الثياب.

وليسَ العيدُ إلَّا تعليمُ الأمة كيف تتسع روح الجوار وتمتدّ، حتَّى برجع البلد العظيم وكأنه لأهلهِ دارٌ واحدةٌ يتحقق فيها الإخاء بمعناه العمليّ، وتظهر فضيلةُ الإخلاص مستعلنة للجميع، ويُهدي الناس بعضهم إلى بعض هدايا القلوب المُخلصة المحبة، وكأنَّما العيد هو إطلاق روح الأُسرة الواحدة في الأمة كلِّها.

وليس العيدُ إلَّا التقاء الكبار والصغار في معنى الفرح بالحياة الناجحة المتقدمة في طريقها، وترك الصغار يلقون دَرسهم الطبيعيَّ في حماسة الفرح والبهجة، ويُعلمون كبارهم كيف تُوضع المعاني في بعض الألفاظ التي فَرغتْ عندهم من معانيها، ويُبصرونهم كيف ينبغي أن تعمل الصفات الإنسانية في الجموع عمل الحليف لحليفه، لا عمل المُنابِذ لمُنابِذه، فالعيد يوم تسلط العنصر الحي على نفسية الشعب.

وليس العيد إلَّا تعليم الأمة كيف توجِّهُ بقوتها حركة الزمن إلى معنى واحد كلما شاءت، فقد وضع لها الدين هذه القاعدة لتُخرج عليها الأمثلة، فتجعل للوطن عيدًا ماليًّا اقتصاديًّا تبتسم فيه الدراهم بعضها إلى بعض، وتخترعُ للصناعة عيدها، وتوجِد للعلم عيده، وتبتدع للفن مجالي زينته، وبالجملة تُنشئ لنفسها أيامًا تعمل عمل القُوَّادِ العسكريِّين في قيادة الشعب، يقوده كلّ يوم منها إلى معنى من معاني النصر.

هذه المعاني السياسية القوية هي التي من أجلها فُرض العيد ميراثًا دهريًّا في الإسلام، ليستخرج أهلُ كلّ زمنٍ من معاني

زمنهم فيُضيفوا إلى المثال أمثلةً مما يُبدعه نشاطُ الأمة، ويحققه خيالُها، وتقتضيه مصالحُها). انتهى

رحمك الله يا رافعي؛ فكلماتك مازالت بعدَ عقود وعقود مضت كأنما هي كلمات بالأمس كُتبت.

---

(61) مقال بعنوان (المعنى السياسي في العيد)، وحي القلم، ج1 ، ص 30.

وهلْ نحصدُ إلَّا ما زرعنا!

كلّنا نزرع وكلُّنا نحصد.. وهل نحصدُ إلَّا ما زرعنا!

نعم.. لقد اقتضت حكمةُ الخالق المسبِّب أن يودع الكون سنةَ الأسباب، وأن يكون سبحانه رقيبًا على هذه السنن التي لا تتبدَّل ولا تتغير إلَّا بإذنه سبحانه وتعالى، وهذه السننُ الأرضية لا ترى إلَّا الأسباب، فهي لا تحابي ولا تجامل في الدنيا إلَّا أنْ يشاء المسببُ، فهو فوقها سبحانه وهو خالقها.

﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (66). ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ (65)، ويضرب الله في كتابه الكريم من الأمثال ما يرسخ به مبدأ الأخذ بالأسباب لتحصيل النتائج في الدنيا، وقد أكثر القرآن التحدثَ عن الزرع والشجر والنبات والحرث والثمر وكل ما يتبع ذلك، حيث ينبه القرآنُ حواسَّنا إلى مراحل تطور الزرع والنبات من بذرة إلى نبتة إلى شجرة، ثمَّ لا تلبث النبتةُ أن تخضرَّ ثمَّ تصفرّ وتموت، وفي هذا مجملُ حياة الإنسان في الدنيا يراها كلّ مبصر العين، ولا يعقلها إلَّا مبصرُ القلب.

والزراعةُ من الآيات التي لها مدلولاتٌ عظيمة ومعانٍ عميقة، فهي تجسد للإنسان عواملَ إدراك النتائج، والتي منها العلمُ الصحيح بالأسباب التي لا تتمُّ النتائج إلَّا بها.

فالزارعُ الذي يتقن عملَه ومهنته يعرف كيف يدرس الأرض التي يزرع فيها فيهيِّئها لاستقبالِ الخير الذي سيودعها إيَّاه، وقبل أن يودع الأرض بذورها يتخير البذورَ ويتعهَّدها برعايته وهي مازالت في يده، وحين يضع البذورَ في الأرض يضعها بعلمٍ

وخبرة، فلا يدفنها ولا يلقيها عارية على السطح بل يضعها في المكان والعمق الذي به يدرك النماء.

حتَّى إذا وضعها في الأرض رعى الأرضَ وما تحمله في بطنها بكلِّ ما آتاه الله من علمٍ وخبرة وقدرة ووقتٍ وجهد وصبر، فلا يستعجل النبتةَ ولا الثمرة، إن كان واثقًا بما أودع، وعالمًا بمواسم الحصاد، ولا ينبش الأرض بحثًا عمَّا أودع ولا يكفّ عن رعاية الأرض التي أودعها كلّ خيره، ولا ينفد صبرُه مادام فيه رمق من حياة، فلكلِّ نبات طبيعتُه التي فطره الله عليها، فمنها ما يشقُّ الأرض في يوم ويثمر في يوم آخر، ومنها ما يبقى تحتَ الأرض سبعة أعوام لا يُرى منها شيء على وجه الأرض حتَّى ليحسبها الزارعُ الجاهل بطبيعتها لا تنبت أبدًا ولكنها تضرب لنفسها جذورًا تحت الأرض حتَّى إذا جاء العامُ السابع ضربت أمتارًا فوق الأرض في أشهرٍ معدودات، فإنْ نبشها قبل عامها السابع أو كفَّ عن رعايتها أضاعَ كلّ ما أودع الأرض، وإنْ باعها قبلَ حصادها ذهب حصادها لغيره.

إنَّ ثمار الزرع كثيرًا ما تعكس بعضَ صفات الزراع، فحسنها وقوتها وجودتها انعكاسٌ لإحسان ورعاية وخبرة وعلم وصبر الزارع بتوفيقٍ من الخالق ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ٢٤ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٢٥ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ٢٦﴾ (64)، وقد شبه اللهُ أنبياءه بالزرّاع، وكان سيدنا محمد ﷺ خيرَ الزُّرّاع ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ

الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (63)، نعم كلنا يزرع وكلنا يحصد.. وهل نحصد إلَّا ثمار ما زرعنا ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (62).

---

(66) سورة الإسراء: 20.

(65) سورة الشورى: 20.

(64) سورة إبراهيم: 26 -24.

(63) سورة الفتح: 29.

(62) سورة إبراهيم، من الآية 25.

الشَّجرةُ المهْجورة

وشاءتْ حكمةُ الله أن يهبط آدمُ وزوجه إلى الأرض ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ (71)

ووضعَ آدم عليه السلام بذورَ أول شجرة الخلافة في الأرض ليتوالى أنبياءُ الله ورسله، الواحدُ تلو الآخر، يتلون آياتِ الله ويزكون الناسَ ويعلمونهم الكتاب والحكمة، ويعلِّمونهم كيف يرْعون ويتعهَّدون الشجرة، ولذلك وصفهم الله في كتابه الكريم بالزرَّاع ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (70)

وكان سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه خيرَ الزُّراع حيث أحسن تزكية وتربيةَ وتعليم أمته، فضربتِ الشجرةُ في الأرض جذورًا قوية حتَّى صارت الأرضُ كلها لها جذورا وارتفعت إلى عنان السماء حتَّى التقت الأرض بالسماء، وعمَّ البشرية خيرُ ظلِّ الشجرة وخيرُ ثمارها من مشارق الأرض إلى مغاربها، وكان ذلك عندما حرَّر قانون السماء الإنسانَ، وصانَ له كرامته، وأرسى قواعد المساواة، وكفل حقوقه، واحترم العقل والفكر. ورأت البشريةُ جمعاء ما أثمرته الشجرةُ من حضارات، وما أنجبتْه تلك الحضارات من علوم وعلماء في شتى مجالاتِ الحياة النقلية والعقلية وعمارة للأرض، وصارت الحياة من حولهم تتفاعل بهم، وتعمل معهم، فكانوا بمثابةِ

المعنى الذي يفسِّر المعنى، فنطقت الحياة بهم من حولِهم بأجمل كلماتٍ تجسَّدت في سكونهم قبلَ حركتهم، وفي صمتهم قبل نطقهم، وصارتِ الأرض كلُّها بمثابة كلمةٍ من كلمات الله، كما ضرب اللهُ بها مثلًا في كتابه العزيز ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ٢٤ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٢٥﴾ (69).

وتضاءل بجانب الشجرة الطيبة كلُّ ما دونها من أشجار خبيثة، ثمَّ تلاحقت الأجيال من بعدهم، جيلًا من بعد جيل، يأخذون بقشور الشجرة ويضيعون لبَّها فكان لهم من كلّ معنى معنًى آخر قد لُبّس لثوبِ الأول بعدَ أن جُرّد من كلِّ ما يحويه، فكان رصيدُهم من الشجرة على قدْر فهمهم، فضعفت تعاليم الزُّراع (الأنبياء) في نفوسهم فأضاعَ حملة آخر الرسالات السماوية روحَ تعاليم خير الزراع محمد ﷺ، فغاب عنهم المفهومُ الشَّامل للعبادة فصارت عبادتهم طقوسًا، وضيِّعت حقوقُ العباد، وصار قانونُ السماء دميةً في يد حفنة من الرجال، وأصبحت الفكرة تقيم بالرجال بعدَ أن كان الرجال يقيَّمون ويُعرَفون بالفكرة، وحُجِر على العقل والفكر، وأفتي بفقه النّص بمعزلٍ عن فقه الواقع، وقفل باب الاجتهاد، وفقد بذلك الإنسانُ (خليفة الله في أرضه) قيمتَه، فذهب يبحث عن نفسه بعيدًا عن الشجرة، ونسيَ رسالته ودورَه في مدِّ الشجرة بما تحتاجه لاستمرار نموها وازدياد قوتها، فجفَّت منابعها، وتساقطت أوراقها، وذبلت ونضبت ثمارها، فلا هي تظلُّ ولا هي تثمر، وجِيء بأشجارٍ أخرى قد زينت بزينة الدنيا وما هي إلَّا أشباه أشجار، فليس فيها من معنى الشجرة الطيبة إلَّا بقدْر ما في السراب من ماء، ولكن الناس خدعوا بها، وافتتنوا بزينتها، فلاذوا بجوارها، وقورن

بين الشجرتين، الشجرة الطيبة وغيرها، فكانت مقارنة جائرةً؛ فالشجرة الطيبة قد هجرت منذ زمن طويل، واستحكمت الفتنة، وذهبت خيراتُ الأرض وطاقات البشر بعيدًا عن الشجرة الطيبة فتغيَّرت الحياةُ من حولهم، فنطقت بأبشع كلمات تجسَّدت في كلّ ما يدور حولها من ظلمٍ وقهر واستبداد وحروب وسفك للدماء وضياع لحقوق العباد ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ (68)

إنَّ قيمة حملةِ آخر الرسالات السماوية هي في العودة إلى الشجرة الأم التي تضربُ في الأرض جذورًا منذ أن وضع آدم عليه السلام قدمه على الأرض، وستبقى إلى قيام الساعة بنا أو بغيرنا؛ فقد تعهَّدها الله، وبدون العودة إليها ودعمها فلا قيمةَ لنا، وبطنُ الأرض خيرٌ لنا من ظهرها، ولن تثمر الشجرة من جديد إلَّا بما أثمرت به أولَ مرّة، وذلك ببناء الإنسان الذي كرَّمه الله، وجعله خليفة الأرض، فلنبدأ بالإنسان، وكفانا خداعًا لأنفسنا.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء ٢٤ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٢٥ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ٢٦ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاء ٢٧﴾ (67)

---

(71) سورة البقرة، من الآية 36.

(70) سبق تخريجها.

(69) سورة إبراهيم: 24.

(68) سورة إبراهيم: 26.

(67) سورة إبراهيم: 27 -24.

أمَّةٌ خفيفةُ الوزن

هل نسينا مَن نحن، وما رسالتُنا؟

وهل رضينا أن نعيشَ أحلام الأقزام؟ وكأنَّ الحياة هي هدفُنا ومنتهى غايتنا!

وهل أصبحنا لا نرى مِن الدّنيا إلَّا ما قد رُسم لنا منها على أيدي الأقزام؟ وقد جُرِّدت من أبعادها الأخروية وعلاقاتها السماوية، وهل غلب علينا الهزْل، وصرْنا أمَّةً خفيفة الوزن تجتمعُ على ملء البطون ونفْخ السموم لقتل الهموم والتنافس على إشباع غريزة الأنا وتحقيق الأهداف والمصالح الشخصية!

وهل نسينا أنَّنا تلك الحلقة التي تربطُ بين تاريخ الرسالات السماوية، وأنَّ السلسلة لا تكتمل بدون تلك الحلقة؟!

وما أعظمَها من سلسلة وملحمة إنسانية ربانية!

وهل أصبحنا أشبهَ ما نكون بالحلقة اليتيمة التي لا أولَ لها ولا آخر، فلا هي وصلتْ ولا هي أوصلت، بل هي قطعت وانقطعت؟!

وهل نسينا ما نحملُ بين أيدينا من أمانة ورسالة عظيمة؟!

وهل استبدلنا كتابَ السماء بزيفِ كتب الأرض، وعزَّ قانون السماء بذلِّ قوانين الأرض؟!

وهل صرْنا ممَّن يخشون الناس كخشية الله؟!

قدْ يكون ذلك، ولكن لا بدّ أن تكون هناك بقيةُ خير وإنْ أصبحت أشبه ما تكون بالروايات اللاواقعية لتجردها وصدقها لخالقها.

إنَّه لا ينبغي لأمة محمد ﷺ حاملةِ آخر الرسالات السماوية

للإنسانية أن تكون خفيفةَ الوزن، وأنْ يغلب عليها الهزل، خاصَّة في هذا العصر، فالأمرُ عظيم.. والآمرُ سبحانه أجلُّ وأعظم.

وبينما العالم يحجُّ إلينا، فسيحاجُّوننا عندَ ربنا يوم اللقاء الأعظم.

الواقعُ المرّ

إنَّنا نعيش في عالمٍ تكثر فيه المآسي والآلامُ والفواجع، وتطالعنا الصحف كلّ يوم بأنباء ينفطرُ لها القلب، ويتصدع لها الفؤاد.

وغالبًا ما يتفاوت تأثيرُ هذه المآسي على القلوب، ولهذا التفاوت مبرراتٌ شتى وأسبابٌ مختلفة، فعقائدُ الناس مختلفة، واهتماماتهم متعددة، وللقرب أو البعد النفسي والجغرافي والحضاري والتاريخي تأثيرٌ لا يُستهان به في تكوين عواطف البشر وقدرتهم على التفاعلِ مع المآسي الإنسانية بشتى صورها وأشكالها.

وإنَّنا نشهد في أيامنا هذه مصرعَ المئات من البشر في شتى بقاع الأرض، ونعيش مآسي مجتمعات بأسْرها وقدْ سلبت حقوقها الإنسانية، وشرِّدت من أراضيها، وانتهكت أعراضها، وتعرَّضت للإبادة الجماعية بأشنع الوسائل. كلنا يسمع ويرى ما يتعرَّض له المسلمون في شتى بقاع الأرض، وما يجري من الذبح والقتل والتشريد والتعذيب والتنكيل، والاغتصاب لآلاف المسلمات على مرأى من العالم، في عصرٍ يدّعي الحضارة والمدنية والحفاظ على حقوق الإنسان. ويسمع ويرى معنا أبناؤنا (وأحفادنا؛ لَمَن بارك اللهُ له في عمره ليرى أحفاده) هذا الواقع المرَّ الذليل، وقد يسأل الابنُ أباه في دهشة عمَّا يجري، فكلُّ ما تعلم في المدرسة من قيم ومبادئ يتنافى مع الواقع الذي يراه!

فقدْ سمع وتعلم حديثَ رسول الله ﷺ (مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم، كمثلِ الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائرُ الجسد بالسهر والحمى) (75).

وتعلَّم حديثَ رسول الله ﷺ: (المسلمُ للمسلم كالبنيان يشدُّ بعضُه بعضًا) (74). وتعلم حديثَ رسول الله ﷺ: (والله لا

يؤمنُ أحدكم حتَّى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه) (73)، وقرأ تاريخنا الحافلَ بالشهامة والشجاعة، ودرس فيما درسَ قصة (وامعتصماه) وكيف أن جيشًا سُيِّر لنصرة امرأة مسلمةٍ واحدة!

ويتساءل: كيف تستصرخنا اليومَ جيوشٌ من النساء والأطفال فلا يسير لهم شيء؟ ويسترسل الابنُ ويسرد على أبيه ما تعلَّم في المدرسة وما زرعَ فيه من المبادئ.. وينظرُ الابن إلى أبيه يطلب منه الجوابَ عن سؤاله، ما الذي يجري؟

إنَّ نظرة متأنية معَ هذا الأمر تجعلنا نقف مع أنفسنا، حيث إنه على كلّ منَّا أن ينتظر هذا السؤالَ من أبنائه.. ما الذي يجري؟ فإمَّا أن نعفي أنفسنا من تبعات ديننا وتاريخنا وواجبنا، أوْ أن ندّعي أننا أكثرُ واقعية وأحكمُ ممّن سبقونا وسطَّروا لنا تاريخنا، ونحطم كلّ ما بنيناه في أبنائنا من قيم ومبادئ.

أو نعترفَ أننا لسْنا بالرجال الذين كانوا، فيفقد أبناؤنا القدوةَ التي هُم في أمسّ الحاجة إليها.

على كلّ منَّا أن يحضر نفسَه لكي يجيب أبناءه وأحفاده والأجيال القادمة.. ماذا فعلنا بالأمانة التي بين أيدينا؟ بل وأنْ يواجه المساءلة العظمى يوم القيامة: ماذا فعلتَ لنجدة إخوانك وأخواتك الذين كانوا يذبَّحون صباحَ مساء في مواقع كثيرة من بلاد العالم؟

رُبَّ وامعتصماه انطلقتْ

ملء أفواه الصَّبايا اليُتَّم

لامستْ أسماعهم لكنَّها

لم تلامس نخوةَ المعتصم (72).

(75) رواه النعمان بن بشير، صحيح مسلم، برقم 2586.

(74) رواه أبو هريرة وأبو موسى الأشعري، صحيح الترمذي برقم 1928.

(73) رواه أنس بن مالك، صحيح البخاري، برقم 13.

(72) البيتان للشاعر: (عمر أبو ريشة).

النَّصرُ يبدأ مِن هنا

(يوشكُ أن تداعى عليكم الأممُ كما تداعى الأكلةُ إلى قصعتها، قيل: أوَمِن قلةٍ نحن يومئذ يا رسولَ الله؟ قال: بل أنتُم كثير، ولكنَّكم غثاء كغثاء السيل) (78).

إنَّ الناظرَ إلى حال أمتنا لا يسعه إلَّا أن يستشعر كلّ كلمة من كلمات حديث رسول الله ﷺ، حيثُ لا يخاطب بها صحابتَه قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان، بل يخاطب فينا روحَ صحابته، وما صلح به أولُ هذا الدين، وهو الذي لا ينطق عن الهوى.

ولا يختلف اثنان من أبناء الأمة أنَّنا نبتلى في عصرنا هذا ابتلاء عظيمًا، والعاقل مَن جعل جُلَّ همِّه في أن لا يكون من الخاسرين في هذا الابتلاء، ومَن لا يعي مرامَ الابتلاء ولا يدرك سبلَ النجاح فيه، فإنَّه على خطر عظيم.

ومِن عدم تمام إدراك سُنن الله في تحقيق النصر أنْ تجد مَن يتساءل من أبناء أمتنا عنْ سبب تأخر نصرِ الله للمقهورين والمظلومين من أبناء أمَّة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وينسى السائلُ أنَّ من أهمِّ شروط أسباب تحقق نصر الله هو أنْ يحقَّ العذاب على أهل العذاب، وأن تحقَّ الرحمةُ على أهل الرحمة.

ولا يشكُّ كثيرٌ من علماء الأمة أنَّ العذاب قد حقَّ على أهل العذاب مثل العدو الصُّهيوني ومَن شاكله بما قدَّمت أيديهم، ولكنَّ السؤال هو: هل حقت الرحمةُ على أمة الإسلام؟!

ولنا في قصَّة نوح عليه السلام مع قومه تجسيدٌ لحكمة تأخُّر النصر على أهل الرحمة، وإن حقَّ العذاب على أهل العذاب..

فبعدَ أن يخبر اللهُ نبيَّه أنه لن يؤمنَ من قومه إلَّا من قد آمن، يأمره سبحانه بصنع الفلك، والتي استغرق بناؤها مئات السنين،

ليكون أهلُ الرحمة فيها موضعَ سخرية أهل العذاب.

فإنْ كان الله قد حكمَ وقضى أنْ لا يؤمن مِن قوم نوح إلَّا مَن آمن؛ فلِم التأخير في إنزالِ العذاب على أهل العذاب؟!

إنَّها حكمةُ الله في ابتلاء أهل الرحمة (قوم نوح)، فالله لم يخبر نوحًا عليه السلام أنَّه لن يكفر مِن قومك إلَّا مَن قد كفر فكان ابتلاء من آمن مِن قوم نوح.

وعلينا هنا أن نسأل أنفسَنا كلّ يوم من أيام حياتنا، بل كلّ ساعة من ساعات يومنا: كيف نؤهِّل أنفسنا؟ وكيف نؤهِّل مجتمعاتنا؟ وكيف نؤهِّل أمتنا لإكمال أسباب تحقق نصر الله؟

إنَّ ديننا دينُ الحياة لا دينُ الطقوس والشعائر..

وحياتَنا هي لسانٌ حيٌّ ينطق بحال ديننا..

فكيف حالُ دنيانا؟ وكيف حالُ ديننا؟

وقد مررتُ بتجربة شخصية أدخلتني عالمًا كنت بعيدًا عنه، فلما اقتربت منه اقتربتْ منّي معان، وتجسَّدت لي كأني لم أرها أو أسمع عنها من قبل، وبينما أنا في خضمِّ التجربة وذروتها تذكَّرت كلامًا كنت قد قرأتُه منذ زمن فوجد مكانه في فؤادي، وعرف يومه نخرج ليريني ما قرأت حيًّا، وهي من كتاب (وحي القلم) للرافعي من مقال بعنوان (الدنيا والدرهم) (77)، وهو يروي على لسان الراوي: (إنَّ تاجرًا يدعى بالسّري كان قد اشترى كُرلوز بستين دينارًا، وأثبته في رزنامجه وكتبَ أمامه (ربحه ثلاثة دنانير)، فلم يلبث أنْ غلا السعر فبلغ تسعين دينارًا، فأتاه الدلَّال الذي كان قد اشترى له فقال: أريدُ ذلك اللوز، قال الشيخ: خذه، قال: بكم؟ فقال: بثلاثة وستين دينارًا، وكان الدلالُ رجلًا صالحًا، فقال للشيخ:

إنَّ اللوز قد صار الكُرّ بتسعين. قال السّري: ولكني عقدتُ بيني وبين الله عقدًا لا أحله، فلست أبيعُ إلَّا بثلاثة وستين دينارًا. فقال الدلال: وأنا قد عقدتُ بيني وبين الله عقدًا لا أحلّه ألَّا أغش مسلمًا، فلست أشتري منك إلَّا بتسعين، فلا الدَّلال اشترى منه، ولا السرّي باعه).

يقول الرافعي في مقاله(76): (إنَّ تعظيم الأمة للدنيا والدرهم هو استعبادُ المعاني الحيوانية في الناس بعضها لبعض، وتقطع ما بينهم من التشابك في لحمة الإنسانية، وجعل الكبير منهم كبيرًا وإن صغرتْ معانيه، والصغير فيهم صغيرًا وإن كبر في المعاني، وتكون المنفعةُ الذاتية هي التي تأمر في الجميع وتنهي، ويدخل الكذب في كلّ شيء حتَّى في النَّظر إلى المال، فيرى كلّ إنسان كأنَّما درهمه ودينارُه أكبر قيمةً من دينار الآخر ودرهمه، فإذا أعطى نقص فغش، وإذا أخذ زاد فسرق، وتصبح النفوسُ نفوسًا تجارية قبل أن تنبعث لفضيلة، وتماكر إذا دعيت لقضاء حق، أمَّا التجارة وهي التفسيرُ الظاهر لمعاني النفوس فتصبح بين الغش والضَّرر والمماكرة، وتكون يقظة التاجر من غفلة الشاري، وتفسد الإرادة فلا تحدث إلَّا آثارها الزائغة، وما التاجرُ في الأمة القويمة إلَّا أستاذ لتعليم الصدق والخلق في الموضع المتقلب، وكلمته كالرقم من العدد لا يحتمل أزيد ولا أنقص ممَّا فيه، ويمتحن بالدنيا والدرهم أشدَّ ممَّا يمتحن العابد بصلاته وصيامه، وقد شهد رجلٌ عند عمر بن الخطاب في قضية، فقال له عمر: أنت جارُه الأدنى الذي يعرف مدخله ومخرجَه؟ قال: لا. قال: فأنت رفيقُه في السفر الذي يستدل به على مكارمِ الأخلاق؟ قال: لا. قال: فعاملتَه بالدينار والدرهم الذي يستبينُ به ورعُ الرجل؟ قال: لا. قال عمر: أظنُّك رأيته قائمًا في المسجد يهمهم

بالقرآن، يخفض رأسه طورًا ويرفعه أخرى؟ قال: نعم. قال: فاذهبْ فلستَ تعرفه).

(وإنَّما التاجر صورةٌ من ثقة الناس بعضهم لبعض، وإرادة الخير واعتقاد الصدق، وهو في كلّ ذلك مظهرٌ توضع اليد عليه كما تجسّ اليدُ مرض المريض وصحته، وهذا هو الإسلامُ الذي غلب الأمم؛ لأنَّه قبل ذلك غلب النفس والطبيعة).

إنَّ نصرَ أمتنا يبدأ من هنا..

وإنَّ هزيمة أمتنا تبدأ من هنا، وما نراه من تداعي الأمم علينا وقهرها لنا، وذلنا وهواننا على الناس وتأخُّر النصر؛ كلّ ذلك هو انعكاسُ حصيلة أمراض نفوس أبناء الأمة.

(ولن يغيِّر الله ما بقوم حتَّى يغيروا ما بأنفسهم).

---

(78) رواه ثوبان مولى رسول الله، سنن أبي داود، برقم 4297.

(77) وحي القلم، ج 2، ص 162.

(76) نفس المرجع، ص 13 : 14.

متى ستُهاجر الأمّةُ إلى ربها؟

ومعَ تجدُّد موعد الهجرةِ كلّ عام تتجدَّد الذكرى، وتحيا الأمة حدثًا عظيمًا ألا وهو هجرة المصطفى ﷺ، والذي ينبغي أن نقفَ معه وقفة نستخلص فيها العبرَ والدروس، إلَّا إننا وبنظرةٍ واقعية نجد أننا لا نكاد نستقبل شيئًا من حكمة ابتداء تاريخ الإسلام بيوم هجرة رسول الله ﷺ، ولا بيوم نزول الوحي أو فتح مكة، أو غيرها من الأيام العظيمة في تاريخ الإسلام والإنسانية جمعاء.

إنَّ اختيار هذا اليوم ليكون يومَ ابتداء عام كلّ مسلم على وجه الأرض لهو أمرٌ يحتاج لوقفةٍ وتأمل متعمِّقيْن، ولنبدأ بأحدِ أهمِّ الدروس المستقاة من الهجرة وهي تأصيلُ مبدأ الأخذ بالأسباب، وجعلها من أسْمى صور العبادة، فها هو رسولُ الله الذي أسري به من المسجدِ الحرام إلى المسجد الأقصى في ليلة واحدة ينتظر الإذنَ بالهجرة من مكة إلى المدينة، وتشاء الحكمةُ الإلهية أن لا ينتقل إلَّا بعالم الأخذِ بالأسباب المادية ليكون قدوةً لنا في ذلك، ولتتجلى فيه صلواتُ الله وسلامه عليه عبقريةُ التخطيط البشري والتنظيم، والأخذ بالأسباب على أكمل وجوهها، وفي أسمى صور العبادة إلى الله من قبل آخرِ الرسل على وجهِ الأرض.

وهل يخشى رسولُ الله ﷺ على نفسه الموت؟ أو هل يعجز اللهُ أن يحميه إن تحدَّى قريشًا بأسرها أن يقتلوه إنِ استطاعوا أو يوقفوه عن الهجرة إنِ استطاعوا كما فعل عمرُ بن الخطاب في تحدِّيه لقريش عند هجرته؟! وإنَّما هي دروسُ الهجرة لا بدَّ أن يلقِّنها لنا، ويعلِّمنا إياها معلمُ الإنسانية سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه.

ومِن أمثلة تأصيل درسِ الأخذ بالأسباب ما يلي:

1. يبدأ الرسولُ الكريم بالتكتم على موعد الهجرة، فلا يعلمه أحدٌ حتَّى صاحبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه وقد وردَ في

الأثر (استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان) (87).

2. يأتيه الأمرُ ألّا يبيتَ في فراشه، ولكنّ جبريل لم يأمره أن يطلب من أحد أن يبيتَ في فراشه، ولكنّ الرسول الكريم يؤصل مبدأ استعمال العقل والحكمة والتَّخطيط في طلبه مِن علي كرم الله وجهه أن يبيت في فراشه ليقول له: (نمْ على فراشي وتسبَّح ببردتي فإنَّه لن يخلُص إليك شيء تكرهُه منهم) (86).

3. يخرج الرسولُ ﷺ في أشدِّ ساعات النهار حرارةً من الصيف؛ وهي ساعة القيلولة، وأهلُ مكة في خيامهم وبيوتهم.

4. خرجَ الرسول الكريم ﷺ من ظهر بيت أبي بكر الصديق.

5. اتَّجه إلى غار ثور جنوب مكة، وهو في غير طريق المدينة، وأقام فيه ثلاثة أيام.

6. اتَّخذ استخباراتٍ له في مكة ممثلة في عبد الله بن أبي بكر ليكون عينًا له يأتيه بأخبار مكة.

7. حتَّى الطعام والشراب خطَّط لهما، فلم يتركهما صلواتُ الله وسلامه عليه، وهو يعلِّمنا المفهوم الصحيح لمعنى التوكل في قوله ﷺ: (اعقلها وتوكَّل) (85) وتناط هذه المهمَّة الشاقة والخطيرة إلى أسماء بنت أبي بكر الصديق ليؤصِّل لنا رسولنا الكريم دورَ المرأة الفعال ومشاركتها الرجل في الحياة والكفاح والنضال متمثلةً في دورها في أهمِّ رحلة قام بها بشرٌ على وجه الأرض. وأسماء بنت أبي بكر حاملٌ في شهورها الأخيرة، وفي ذلك قمَّة التخطيط والاختيار الصحيح، ففي استطاعتها أن تخبئ الطعام والشرابَ فلا ينتبه لها أهلُ مكة وهي تحملُه لأبيها وللرسول ﷺ.

8. يطلب الرسولُ من عامر بن فهيرة مولاه الذي يرعى غنمَه أن يعفي الأثرَ من خلفهم لتعجز قريش عن تتبُّع أثرهم.

9. ومِن تمام التمويه أنَّ الرجل كان يلقَى أبا بكر الصديق فيسأله وهو يشير إلى رسول الله ﷺ أمامه، مَن هذا الذي بين يديك؟ فيجيب أبو بكر وهو الذي لا يكذب: هذا الرجلُ يهديني الطريق. (وإنَّ في المعاريض لمندوحةً عن الكذب) (84).

وتشاء الحكمةُ الإلهية حتَّى يكتمل هذا الدرسُ الإنساني العظيم أنه بالرغم من تمام وكمالِ خطة الرسول الكريم والأخذ بالأسباب المتاحة لديه على أكمل صورها، إلَّا أنَّ الخطة لم تكلَّل بالنجاح، ووصلت قريشُ إلى الغار، وهنا تظهر قمة التوكل بعد الأخذِ بالأسباب في كلام رسول الله ﷺ لصاحبه الذي صار قرآنًا ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (83)

وهنا، بعد أن رأى اللهُ من رسوله وصاحبِه ما أحبَّ من الأخذ بالأسباب الكاملة ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم﴾ (82) ومن التطبيق الكامل لمفهوم التوكل، تدخَّلت المعجزة الربَّانية في صورة طيرٍ يبني عشَّه وعنكبوتٍ يبني بيته، فكانت هاتان الآيتان هما كلّ ما يقف بين قريش وبين نبيّ الله وصاحبه، ويحمي اللهُ نبيه ودعوته لتكون الهجرة، ولتكون بداية تاريخ الأمة التي كتب اللهُ لها أن تحمل آخرَ الرسالات السماوية إلى قيام الساعة.

أين نحنُ كأفراد وكمجتمعات وكأمَّة من دروس الهجرة؟

هل يذكِّرنا كلّ عام هجري جديد برسالتنا ودورِنا تجاه الإنسانية؟

وهل نتذكّر قولَ رسول الله ﷺ: (المسلم مَن سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر مَن هجر ما حرم الله)(81). فالهجرة لها أشكال مختلفة وصورٌ متعددة: فقد تكون هجرة وجدان أو مشاعر أو أفعال أو أجسام أو كلها مجتمعة.

هل يذكِّرنا العامُ الهجري الجديد بضرورةِ تجديد النية لله في هجرتنا إليه في عامنا القادم، كما روي عنْ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: (إنَّما الأعمالُ بالنيات، وإنَّما لكل امرئ ما نوى، فمَن كانت هجرتُه إلى الله ورسوله فهجرتُه إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرتُه لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرتُه إلى ما هاجر إليه)(80).

إنَّ كثيرًا ممَّا نعاني منه، وما يحيط بنا من حوادث وأخطاء ومصائب ونكبات وذل وهوان؛ هو بسببِ غياب المفاهيم الصحيحة لديننا العظيم مثل مفهوم التوكل في الإسلام والتي لن يمارسها ولن يطبقها خيرٌ من سيد الأنام سيدنا محمد ﷺ والتي تجلَّت بعضُ صورها في هجرته.

إنَّ أمة قدوتُها وأستاذها آخرُ الأنبياء سيدنا محمد ﷺ لن تقبلَ بالمهازل التي تمارَس عليها، سواء ممَّن يحسبون عليها أو ممَّن يجاهرونها العداء، وإنَّها لتنتظر مِن صانعي القرار مراجعةً ومحاسبة وإصلاحًا قبل فوات الأوان.

ومَن لا يقرأ التاريخ، ولا يعي دروسَه؛ يأبى التاريخ إلَّا أن يلقِّنه أقسى دروسه.

والتاريخ يعيدُ نفسه. ومَن لا يهاجر إلى الله يهجِّره الله ﴿وَإِن

تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ (79)

---

(87) رواه الطبراني، والبيهقي، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة.

(86) السيرة النبوية لابن هشام، باب هجرة النبي ﷺ.

(85) رواه أنس بن مالك، صحيح الترمذي، برقم 2517.

(84) رواه عمران بن الحصين، سنن البيهقي، برقم 199.

(83) سورة التوبة: 40

(82) سورة الأنفال، من الآية 60.

(81) رواه عبد الله بن عمرو، صحيح البخاري، برقم 6484.

(80) رواه عمر بن الخطاب، صحيح البخاري، برقم 1.

(79) سورة محمد، من الآية 38.

بيتُ المقدس وأكنافُ بيتِ المقدس

ماذا عساي أن أقول أكثرَ ممَّا قلت.. وماذا عساي أن أكتب أكثرَ ممَّا كتبت. لقد عدتُ أراجع ما كتبتُ عن قضية الأقصى السجين وشعبه المغتصب فوجدت أكثرَ من عشرين مقالًا، أدعو الله أن يجعلها شاهدًا لي لا عليّ يوم القيامة. ولن أكرر ما قدْ كتبت، ومَن شاء أن يقرأ فليعدْ إلى مقالاتي السابقة بعنوان (ولتعلنَّ علوًّا كبيرًا) و(قتل الفلسطيني فضيلة) و(هل طُبع على قلوب دعاة التطبيع؟) و(الجدار الحديدي) و(أشدُّ حرمة من حرمة الكعبة)، وآخرها مقالي بعنوان (الحرب العالمية الثالثة).

لقد قيل الكثيرُ ممَّا يجب أن يقال، وكُتب الكثيرُ ممَّا يجب أن يكتب، وحان وقتُ تصديق الكلام بالعمل. وإنني والله لأحملَ قلمي هذا، وكلِّي حياء من الذي خلقني مِن علق، وعلَّمني ما لم أعلم، وأكرمني بحمْل القلم، فاليوم إمَّا أن تسطر الأمة بدمائها ما كتبتْه في الأمس بأقلامها، وإمَّا أن تتنصَّل من كلّ ما ادعته، وكلِّ ما كتبته، وكلِّ ما قالته ليصبح كلّ ذلك شاهدًا عليها لا لها يوم القيامة.

إنَّها الأرض المقدسة.. أرضُ الإسراء والمعراج.. إنها الأرض المباركة.. يستهل خالقُ السماوات والأرض سورةَ الإسراء بها في قوله تعالى ﴿سُبحَانَ الَّذِي أسرَى بِعَبدِهِ لَيلاً مِّنَ المَسجِدِ الحَرَامِ إلَى المَسجِدِ الأقصَى الَّذِي بَارَكنَا حَولَهُ لِنُرِيَهُ مِن آيَاتِنَا إنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ (91).

ويروي الخالقُ لنا من أخبار بني إسرائيل فيها في قوله سبحانه وتعالى ﴿وَقَضَينَا إلَى بَنِي إسرَائِيلَ فِي الكِتَابِ لَتُفسِدُنَّ فِي الأَرضِ مَرَّتَينِ وَلَتَعلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (90)

وقد ذكر مرابطوها على لسان رسول الله ﷺ في قوله (لا

تزال طائفةٌ من أمتي على الحقِّ ظاهرين لعدوِّهم قاهرين لا يضرُّهم من خالفهم إلَّا ما أصابهم مِن لأواء حتَّى يأتيهم أمرُ الله وهو كذلك، قالوا: يا رسولَ الله، وأين هم؟ قال: ببيتِ المقدس وأكنافِ بيت المقدس) (89).

إنَّ هذه الطائفةَ المباركة التي ذكرها الرسولُ الكريم صلوات الله وسلامه عليه الذي لا ينطقُ عن الهوى، يأبى أبناؤها وبناتُها أن يبيعوا شبرًا من الأرض التي بورك حولها، وإنْ باعها العرب والمسلمون جميعًا، وإنَّها كلمات النبوة تأبى إلَّا أن تظهرَ جليةً كعين الشمس لا لبسَ فيها، وإنَّها الطائفة التي ذكر الرسول ﷺ أنَّها على الحق ظاهرة، لعدوِّها قاهرة، بنا أو بدوننا، فقد قضي الأمرُ، وثبتَ على لسان آخر الرسل والأنبياء على وجْه الأرض، وآخر اتصال بين الأرض والسماء.

وإنَّهم لن يهزموا، وإنَّما سيهزم كلّ مَن لا ينصرهم من أبناء المسلمين، وقد كتب الرافعي قبلَ بضعة عقودٍ مقالًا في محنة فلسطين بعنوان (أيها المسلمون) (88) يقول فيه الرافعي: (أيُّها المسلمون.. نهضت فلسطين تحلُّ العقدة التي عقدت لها بين السيف، والمكر، والذهب..

عقدة سياسية خبيثة، فيها لذلك الشعبِ الحرِّ قتل، وتخريب، وفقر..

عقدةُ الحكم الذي يحكم بثلاثة أساليب: الوعد الكذب، والفناء البطيء، ومطامع اليهود المتوحشة.

أيُّها المسلمون، ليست هذه محنة فلسطين؛ ولكنها محنةُ الإسلام، بريدون ألَّا تثبت شخصيته العزيزة الحرة.

أولئك إخواننا المجاهدون، ومعنى ذلك أنَّ أخلاقنا هي حلفاؤهم

في هذا الجهاد.

أولئك إخواننا المنكوبون، ومعنى ذلك أنَّهم في نكبتهم امتحانٌ لضمائرنا نحن المسلمين جميعًا.

أولئك إخواننا المضطَهدون، ومعنى ذلك أنَّ السياسة التي أذلَّتهم تسألنا نحن: هل عندنا إقرار للذل؟

ماذا تكون نكبةُ الأخ إلَّا أن تكون اسمًا آخر لمروءة سائر إخوته أو مذلَّتهم؟ يقول اليهود إنَّهم شعبٌ مضطَهد في جميع بلاد العالم، ويزعمون أنَّ من حقهم أن يعيشوا أحرارًا في فلسطين، كأنَّها ليست من جميع العالم.. الإسلام قوةٌ كتلك التي توجد الأنياب والمخالب في كلّ أسد، قوة تخرج سلاحَها بنفسها؛ لأنَّ مخلوقها عزيز لم يُوجَد ليؤكل، ولم يُخلَق ليُذل، قوة وراءها قلبٌ مشتعل كالبركان، تتحول فيه كلّ قطرةِ دم إلى شرارةِ دم، ولئنْ كانت الحوافر تهيئ مخلوقاتها ليركبها الراكب، إن المخالبَ والأنياب تهيئ مخلوقاتها لمعنى آخر.

لماذا ارتفعت المآذن إلَّا ليعتاد المسلمون رفعَ الصوت في الحق؟

أيها المسلمون! كونوا هناك.. كونوا هناك مع إخوانكم بمعنى من المعاني). انتهى مقال الرافعي.

يا طائفةَ بيت المقدس، وأكنافِ بيت المقدس، هنيئًا لكَ يا مَن خصَّك رسول الله ﷺ بالذِّكر قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان.

إنَّ فضلك علينا عظيم، ولن تحرِّرَ القدس بإذن الله فحسب؛ وإنَّما بك سيعرِّي اللهُ الباطل ويُظهر الحق.

وبكَ ستستيقظ الأمة، وتنفض عن نفسها غبارَ مئات السنين من الذل والهوان.

وبك ستنهض الشعوبُ وتسقط الأصنامُ البشرية، الواحد تلو

الآخر.

وبك ستستعيد الأمةُ سيادتها وعزَّها من جديد.

---

(91) سورة الإسراء: 1.

(90) سورة الإسراء: 4.

(89) رواه أبو أمامة الباهلي، السلسلة الصحيحة للألباني، برقم 599.

(88) وحي القلم، ج 2، ص 209.

للفوز سُننٌ مشتركة

إنَّ من رحمةِ الله بعباده أنْ خلق الأرض، وجعل للحياة الإنسانية فيها سننًا كونية لا تتبدل، ولمَّا كان الهدفُ من خلق الإنسان هو عبادةَ الله ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (98)، ولمَّا كان مفهومُ العبادة الشامل أن يقوم الإنسانُ بدوره كخليفة لله على أرضه لعمارتها تبعًا لأمر السماء، فقد أرسل اللهُ الأنبياء لهداية البشرية لمنهاجِ السماء في عمارة الأرض التي لا سبيلَ لدخول الجنَّة الموعودة إلَّا من خلالها منذُ أن هبط آدم عليه السلام من الجنة إلى الأرض، وجُعلت له ولزوجه وذريته مستقرًّا ومتاعًا إلى حين.

وجاءت آخرُ الرسالات السماوية للبشرية جمعاء مؤكِّدة هذا المعنى، فلا تجد آية قرآنيةً يذكر فيها الإيمانُ بالله إلَّا ويعقبُها تصديق الإيمان بالعمل ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (97).

والمسلمُ يؤمن بالمسبِّب لا بالأسباب، ولكنَّ الإيمان بالمسبب يقتضي طاعته، واللهُ أمرَ بالعمل والأخذِ بالأسباب، بل وجعلها أسمى صور العبادة له سبحانه وتعالى، فقال: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ (96).

فلا إيمانَ بلا عمل، ومن تمام التوكل على المسبب الالتزامُ بما أمر، والأخذ بأسباب سننه الكونيَّة لعمارة الأرض كما يحبّها الله أن تعمُر.

ولسنن الله في الكون صبغةٌ مشتركة، فالخالق واحد، والكون يسير بانسجام وتناغم بديع.

وهذا التشابهُ الإعجازي والإبداعي يراه العلماءُ في أكبر ما

ندركه من صنع الله في الكون، وأصغر ما ندركه من صنعه سبحانه في مكوِّنات الذرة ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (95).

وهذه السننُ المشتركة المتشابهة نراها في كلّ شأن الخليقة، ومن هذه السنن سنةُ تحقيقِ الغايات وإدراك النجاح، والتي جاء سيدنا محمد ﷺ تطبيقًا عمليًّا لها.

ونظرًا لتشابه هذه العوامل، فإنَّ الأفراد والمجتمعات والأمم التي تأخذ بالأسباب تدرك النتائجَ المرجوَّة في الدنيا، وتدركها في الدنيا والآخرة إنْ كان المسبب (الله) هو هدفها وكلّ بإذن الله.

﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (94).

ولذلك فإننا نجد الأممَ الناجحة إنَّما هي ناجحة في معظم مجالات الحياة، والأمم الفاشلة فاشلة في معظمها؛ نظرًا لتشابه السنن وأسباب إدراك النجاح كما فصلنا سابقًا.

وهناك عنصران أساسيَّان لتحقيق أيِّ نجاح، وهمَا: الفرد (الإنسان) و(النظام).

والأمم الناجحة هي التي تبني أفرادها عقليًّا ونفسيًّا وجسديًّا حقَّ البناء، وتطبق الأنظمة العادلة القادرة على استيعاب الطاقات البشرية وغير البشرية وتطورها.

وقدْ جاء الإسلام ليكرِّم الإنسان (ولقد كرَّمنا بني آدم)، ومن أسس هذا التكريم إرساءُ أسس العدالة، وفي ذلك يقول ابن تيمية: (إنَّ الله يقيم الدولة العادلة ولو كانت كافرة، ويزيل الدولةَ الظالمة ولو كانت مسلمة) (93).

والأممُ التي تجهل عواملَ النجاح هذه أو تتجاهلها تجدها تتخبَّط

يمنة ويسرة، وتخرج من عثرةٍ إلى أخرى، وتتوالى عليها الهزائمُ الواحدةُ تلو الأخرى بغضِّ النظر أيَّ ميادين الحياة طلبت أو سلكت: اقتصادية كانت أو سياسية أو صناعية أو اجتماعية أو حتَّى رياضية.

فالمناخُ أو النظام الذي لا يوفِّر ما يحتاج إليه الفرد من زادٍ نفسي أو عقلي أو جسدي أو مادي للنجاح والنبوغ والإبداع؛ لا يستثني مجالًا من مجالات الحياة، فعواملُ النجاح مشتركة، ولا نصر لأمّةٍ بدونها، وهذه سنةٌ من سنن الله في الكون..

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا﴾ (92).

---

(98) سورة الذاريات: 56.

(97) سورة لقمان: 8

(96) سورة التوبة، من الآية 105،.

(95) سورة فاطر، من الآية 28.

(94) سورة الإسراء: 20.

(93) مجموع الفتاوى، 28/146.

(92) سورة الفتح، من الآية 23.

الصَّلاةُ على الأطفال

إنَّ من الخصائص التي أودعها اللهُ الإنسان، خصيصةَ القدرة على التأقلم والتكيف لمتغيِّرات الحياة. وهي خصيصةٌ أساسية لضمان استمرار البشرية، ولهذه الخصيصة (خصيصة القدرة على التكيف والتأقلم) إيجابياتُها التي لا يستهان بها، ولكنْ كمعظم الأشياء في هذه الدنيا فإنَّ لهذه الخصيصة كذلك سلبيات، حيث إن لها وجهًا آخرَ يلازمها في كثيرٍ من الأحيان، وهذا الوجهُ الآخر يمكن أن يسمى بخصيصة (التبلد) أو عدم القدرة على تلقِّي الحدث على نفس مستوى اليقظة النفسية والوجدانية التي ترافق معايشةَ الحدث أولَ مرَّة، والأمثلة على ذلك كثيرة في حياتنا الخاصة مثل: الطبيب الذي يتعامل مع الحوادث والطوارئ، والجراح الذي يتعامل مع المشرط والدم ليلَ نهار، وهناك أمثلةٌ لنوع آخر من التبلد مثل تبلد الأحاسيس لآياتِ الله في كونه، فلا يثير مشهدُ شروق الشمس وغروبها أو اكتمال وجْه القمر أو النجوم في السماء في النُّفوس ما هو متوقَّع من عظيم آيات الله في الكون إلَّا مَن استطاع أن يجدِّد قلبه ويتفكَّر في آيات ربه وكأنَّه ينظر إليها لأول مرَّة فتثير فيه العبرَ التي من أجلها خُلقت.

ومِن تمام الإيمان أنْ يجاهد المؤمن نفسَه، ويدرِّبها أن ترى الآياتِ من حولها بعين الطفل الذي يرى الآيةَ لأول مرةٍ فيقف عليها متأملًا متفحصًا متفكرًا، ولا يكون ذلك عند الكبار إلَّا بالمجاهدة الدائمة لإزالة قشرةِ التبلد التي قد تحيط بالقلب.

وقد تعتري الواحدَ منَّا ومضةٌ من ضياء نور اليقظة ليرى الشيء الذي تبلد له حسُّه بعين كأنما لم ترَ ما رأت من قبل.

وقدِ اعترتني ذاتَ مساء وأنا أصلي في الحرم الشريف ومضةٌ من تلك الومضات فاقشعرَّ لها بدني، وكانت لها في نفسي آثارٌ أحببت

أن تشاركوني إياها..

لقد دعي لصلاةِ الأموات على طفل، فكبَّر الإمام وكبَّر مَن خلفه، أكثر من ألف ألفٍ من المصلين يصلُّون على الطفل، والدعاء له، فسألت نفسي: أليست الجنة قد كتبتْ له حيث إنّه طفل؟ فأجابتني نفسي بنعم!

وسألتني نفسي: هل ارتكبَ من الذنوب ما يستحق أو يستوجب دعاءنا له بالمغفرة؟ فأجابتني نفسي بلا.

لمَ إذن تصلي الملايينُ الغفيرة من المسلمين، يقطعون صلاة التراويح والتهجد والقيام للصلاة على طفلٍ قد انتقل إلى رحمة الله طاهرًا نظيفًا على الفطرة وقد كُتبت له الجنة؟ وهنا، أدركت أحدَ الدروس والعبر والحكم من هذه الصلاة، فهزَّني هذا الإدراك وكأنَّما أستشعره لأولِ مرَّة، وكأنما أعايش الحدثَ لأول مرة.

إنَّ من حكم الصلاة تحقيقَ التدريب النفسي والوجداني لتعميق قدسية الروح (أيًّا كانت)، وإشعارَ المسلمين بأنهم كالجسدِ الواحد يتفاعل الكلّ مع أصغر الأعضاء وأضعفها.

وهذا التدريبُ الوجداني لا يكون قد حقق نتائجَه إن لم يكن له انعكاساتُه العملية في حياة المسلم، ولم أجهدْ نفسي كثيرًا لأرى بيّنًا أنَّ هذا التدريب لم ينعكس على حياتنا كمسلمين.

فآلافُ الآلاف أُمروا أن يصلوا على حياة طفلٍ صغير لا يملكون بصلاتهم هذه له ضرًّا ولا نفعًا، فهو في رحمةِ الله وفي جناته، ولكنّ المسلمين أنفسهم قد تبلدت أحاسيسهم لرؤية أطفال أبرياء يقتلون في شتى بقاع الأرض، وفي الأرض التي بارك اللهُ حولها، أرض الإسراء والمعراج، وفي يد المسلمين الأخذُ بأسباب الدفاع عنهم ولا يفعلون.

وهنا سألت نفسي: هل تحولت عباداتُنا إلى طقوس وشعائر لا مصداقية لها في حياتنا؟ أو أنّ قلوبنا قد ماتتْ فتبلدت أحاسيسنا فعجزنا أن نرى ما وراء الشعائر؟

الظُّلمُ والعدلُ وسُنن التَّمكين

مِن علامات تفشّي الجهل أن يستغرق الناسُ في مشاهدة الأحداث ويعجزون عن قراءة ما وراءها من سننٍ غالبة، فيكونون بذلك أشبه بالذي وُضع بين يديه كتاب فأخذَ يقرأ كلماته حرفًا حرفًا، ولا يكاد يعي ما تكوِّنه الحروف من كلمات، ناهيك عمَّا تكونه الكلمات من جُمل، أو ما تحمله الجملُ من معان، أو ما ترويه القصص من عبَر، وما وراء القصص من حكم وسنن.

إنَّ ما نعايشه اليومَ لا يخرج عن سنة من سنن الله التي لا تتبدل ولا تتغير على مرِّ العصور، تتغير المشاهد، ويتغير الأشخاص، ويتغير الزمن والمكان، وتبقى السنة لتعلنَ عن نفسها، وتؤكِّد قدرة الخالق على من خلق وإحكام السنن على العباد والخلق إحكامًا قهريًّا.

فعنْ أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: (إنَّ الله ليُملي للظالم حتَّى إذا أخذه لم يفلته (105)، ثمَّ قرأ.. ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (104). وعن أبي أمامة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: (مَن اقتطع حقَّ امرئ مسلم بيمينه، فقد أوجب الله له النار، وحرم عليه الجنة، فقال له رجل: وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسول الله؟ قال: وإن كان قضيبًا من أراك) (103)، أو كما قال صلواتُ الله وسلامه عليه. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (إنما أهلك من كان قبلكم أنهم منعوا الحقَّ حتَّى اشترى، وبسطوا الجور حتَّى افتُدِي) (102) وقال ابنُ تيمية رحمه الله تعالى: (إنَّ الناس لم يتنازعوا في أنَّ عاقبة الظلم وخيمة، وعاقبةَ العدل كريمة. ويروى أنّ الله يقيم الدولة العادلة وإنْ كانت كافرة، ويزيل الدولة الظالمة وإنْ كانت مسلمة) (101).

نعم، إنَّ الظلم هو أشدُّ معاول خراب الديار وانهيار الدول، أمَّا العدل فقد نقل عن أحدِ البلغاء قوله: إنَّ العدل ميزانُ الله الذي وضعَه للخلق، ونصبَه للحقِّ، فلا تخالفه في ميزانه، ولا تعارضه في سلطانه.

ولذلك كان العدلُ من أسماء الله تعالى، وبالعدل قامتِ السماوات والأرض، وليس مِن شيء على وجْه الأرض أسرع لخرابها من الجور وزوال العدل.

وإذا أردتَ أن تعرف مكانَ العدل في قومٍ فانظرْ في مدى تحقيق المساواة فيهم، والتي هي غايةُ العدل والعدالة، يقول رسولُ الله ﷺ: (المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمَّتهم أدناهم) (100)، ويتجسَّد هذا المعنى في قول ابن تيمية رحمَه الله تعالى: (العدل نظامُ كلّ شيء. فإذا أقيم أمرُ الدنيا بعدل قامتْ وإن لم يكنْ لصاحبها في الآخرة من خَلاق، ومتى لم تقمْ بعدل لم تقمْ وإن كان لصاحبها مِن الإيمان ما يجزى به في الآخرة) (99).

ولمَّا كان الحاكم هو قوامَ تطبيق العدل والعدالة، كان ثوابُه وعقابه بقدر ما حمل من عظيم المسئولية، فإنْ عدلَ كان من السبعة الذين يظلهم اللهُ بظله يومَ لا ظل إلَّا ظلُّه، وإنْ ظلم كان ممَّن لا تناله شفاعةُ رسول الله.

ولذلك كلما أغمضُ عيني تعود الذكريات بي إلى عهدٍ قريب سمعنا فيه وشاهدنا وقرأنا عن إخوةٍ لنا في الدين والإنسانية وقعَ عليهم من الظلم والقهر ما تعجز الكلماتُ عن وصفه، يتراكم بعضُه فوق بعض، واللهُ يسمع ويرى، ويمهل ولا يهمل، ويُملي للظالمين، حتَّى كثر دعاءُ المظلومين وفتحت أبوابُ السماء لدعائهم.

اللهمَّ إنا نسألك بعزتِك أن تهلكَ الظالمين بالظالمين، وأن تُخرجنا من بينهم سالمين.

---

(105) صحيح البخاري، برقم 4686.

(104) سورة هود: 102.

(103) رواه أبو أمامة، صحيح مسلم، برقم 218.

(102) نضرة النعيم في أخلاق الرسول الكريم، مجموعة مؤلفين، ج 10، ص 4942.

(101) الدرر المنتقاة من الكلمات الملقاة، أمين بن عبد الله الشقاوي، ج 3، ص 748. نقلا عن مجموع الفتاوى لابن تيمية، 28/63.

(100) رواه علي بن أبي طالب، سنن البيهقي، برقم 2937.

(99) مجموع الفتاوى، 28/146.

واتَّقوا فتنة..

مازلتُ أكتب مقالي هذا فأثبتُ فيه وأغيِّر، وأضيف ثمَّ أحذف، وما كانت هذه عادتي فيما أكتب، ففهمتُ معنى كأنَّا بالأمس نقرؤه، واليوم أصبحنا نستشعره ونعيشه؛ ألا وهو أنَّ من الفتن ما يدع الحليمُ حيرانًا، فرأيت أصدقَ الحديث في هذا كتاب الله وسنة رسوله، قال رسولُ الله ﷺ: (إنَّ الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقَها ومغاربها، وإنَّ مُلك أمتي سيبلغ ما زُوي لي منها، وأعطيتُ الكنزيْن الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي: أنْ لا يهلكها بسنة عامَّة، ولا يسلِّط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتَهم، وإنَّ ربي قال لي: يا محمد، إني إذا قضيتُ قضاءً لا يرد، وإني أعطيك لأمتك ألَّا أهلكهم بسنةٍ عامَّة، وألَّا أسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمعَ عليهم من بين أقطارها حتَّى يهلك بعضُهم بعضًا، وسبي بعضُهم بعضًا) (112)

لذا؛ تعالوا نقفُ اليوم وقفةً واحدة نُسائل فيها أنفسَنا عن دواعي تسليط الله علينا الأعداء، ولنتعامل اليوم في تفسيرنا لمجريات الأمور مع مسبِّب الأسباب، لعلنا نجدُ طريق التقوى فترفع عنَّا الفتنة ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُم خَاصَّةً﴾ (111).

وقد بحثتُ في أبواب الفتن أيامًا لعلَّ الله يهديني لحديثٍ من أحاديث رسول الله ﷺ أجدُ فيه جوابَ سؤالي، فنظرت في أحاديث عدَّة أشاركم بعضها: أوَّلها قولُه ﷺ: (يوشك أن تداعى عليكم الأممُ كما تداعى الأكلةُ إلى قصعتها، فقال قائل: أوَمِن قلةٍ نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يؤمئذ كثير، ولكنكم غثاء

كغثاء السيل، ولينزعنَّ اللهُ من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفنَّ في قلوبكم الوهن. قيل: وما الوهنُ يا رسول الله؟ قال: حبُّ الدنيا وكراهةُ الموت) (110).

وأحاديثُ كثيرة عن إرهاب المسلم للمسلم، منها ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال ﷺ: (مَن أشار إلى أخيه بحديدة فإنَّ الملائكة تلعنه حتَّى وإن كان أخاه لأبيه وأمِّه) (109). وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قوله: مرَّ رجلٌ في المسجد بسهام، فقال له رسولُ الله ﷺ: (امسك نصالَها) (108) وقوله ﷺ: (لا يحلُّ لمسلم أن يروِّع مسلمًا) (107)، وقوله: (لا يشرْ أحدُكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري أحدكم لعلَّ الشيطان ينزع في يده فيقعُ في حفرة من النار) (106).

لقدِ اجتمع في أمةِ الإسلام اليوم كلّ ما ذُكر من تحذير رسول الله ﷺ لنا في الأحاديث السابقة، ولقد مرَّ على أمة الإسلام أزمنةٌ أصيبت بالوهن فتلاشتْ عزَّتها، وسلَّط عليها أعداؤها بذنوبها، وقد حدثَ ذلك للمسلمين عندما أخذ الفرنج بيتَ المقدس وقتلوا أكثرَ من ستين ألف مسلم عام 492هـ، وحدث كذلك للمسلمين في زمن التتار 656هـ، عندما دخل التتار بغداد بعونٍ ومساعدة وإمدادٍ مِن صاحب الموصل خوفًا على نفسه من التتار ومصانعةً لهم، وسقطت دولة بني عباس وقُتل أكثرُ أهل المدينة ومِن بينهم خليفتها، وجرتْ في بغداد أبشع مذبحة للرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان، حتَّى أنَّ أهلها أخذوا يختبئون في الآبار وقنى الوسخ يكمنونَ فيها أيامًا لا يظهرون، حتَّى إذا ما وجدهم التتار ذبحوهم، لتسير الدماء في الأزقَّةِ لا تتوقف، وانقلبتْ بغداد خرابًا خاوية من أهلها بعدَ أن كانت

أكثر المدن حيوية.

وأعجبُ ما في قصة دخول التتار بغداد وإسقاطهم للخلافة هو خيانةُ الوزير العلقمي الرافضي الذي كاتبَ التتارَ وأطمعهم في أخذ البلاد وسهَّل لهم ذلك، وكشف لهم أسرارَ ضعف الدولة، ووهن الرجال؛ فاكتسب بذلك إثمَ كلّ مَن قُتل ببغداد من رجال ونساء وشيوخ وأطفال.

إنَّ أمتنا تمرُّ بفتنة عظيمة، وشأنها شأن الفتن يعرفها الكلُّ وهي مدبِرة، ولكن لا يعرفُها وهي آتية إلَّا أهل البصائر.

نسأل الله أن يقينَا شرَّ الفتن.

---

(112) رواه ثوبان مولى رسول الله ﷺ، صحيح مسلم، برقم 2889.

(111) سورة الأنفال، من الآية 25.

(110) رواه ثوبان مولى رسول الله، سنن أبي داود، برقم 4297.

(109) صحيح مسلم، برقم 2616.

(108) صحيح مسلم، برقم 2614.

(107) مسند أحمد برقم 23064، سنن أبي داود برقم 5004.

(106) رواه أبو هريرة، صحيح مسلم، برقم 2617.

مَن نحن؟

إنَّ العقل البشري لهوَ من أعجب خلق الله ﴿وَفِي أَنفُسِكُم أَفَلا تُبصِرُونَ﴾ (114)، ومن عجائبِ هذه الخليقة التي تسمَّى الدماغ خصيصةٌ كشفها لنا تقدمُ علم الطب، ففي إحدى الدراسات تمَّ تحديدُ التفاعلات التي تحدث في الدماغ أثناء مشاهدة منظر أو حدث، وذلك باستخدام أجهزةٍ تكشف مناطق الدماغ التي استحثت أثناء المشاهدة؛ حيثُ طلبَ من الأشخاص المشاركين في الدراسة أن يركزوا كلّ قواهم العقلية في النظرِ إلى صورةٍ من صور الطبيعة، وفي أثناء ذلك يتمُّ تحديدُ التفاعلات التي حدثتْ في الدماغ أثناءَ النظر إلى هذه الصورة، وهي خلاصة التفاعلات الكيميائية الدماغية. وفي اليوم التالي طلبَ من الأشخاص المشاركين في الدراسة إغماضُ أعينهم، وتذكّرُ الصورة التي شاهدوها بالأمس (تمامًا كما رأوها) والتركيز على ذلك فقط. هنا حدثتِ المفاجأة، إنَّ مجرد تذكر الصورةِ ذاتها أدَّى إلى إحداث تفاعلات مطابقة تمامًا للتفاعلات التي حدثت من جرَّاء النظر إلى الصورة الحقيقية بعينها؛ أي بمعنًى آخر فإنَّ الدماغ البشري لا يستطيع التمييزَ بين ما يرى كحقيقةٍ واقعة أمامَ العين وما يرسمه صاحبُ هذا العقل والدماغ من صورة في الدماغ. وبناءً على هذه الصورة والتفاعلات المصاحبة يفرز الدماغُ عشرات المواد الكيميائية والهرمونات مثل (الدوبامين)، والتي من شأنها أن تغيِّر فسيولوجية الإنسان من غمٍّ وهمٍّ إلى فرح وانشراح، ومِن إحساس بالضعف والهوان إلى إحساسٍ بالقوة والنشاط، ومن الإحساس بالذلِّ والضعة إلى الإحساس بالعزة والرفعة.

ولذلك جاء القرآنُ الكريم ليعمل في العقل البشري هذا (السحر) إن صحَّ التعبير، فكان معظمُ القرآن الكريم لصورٍ حية

كجنة ونار كأنَّك تراهما رأيَ العين، ولأمم قدْ خلت وقصص مليئة بالعبر كأنَّك تعيش مع أصحابها، وعاشَ صحابة رسول الله والتابعون من بعدهم معَ القرآن الكريم، فكانوا قرآنًا يدبُّ على الأرض، وعمل القرآن في كلّ ذرةٍ من ذرات مكوناتهم أعمالًا، فلم يروا أنفسَهم بواقعهم المقيت الذي كان يعيش فيه العربُ آنذاك من تمزُّق وهوان وضلال، إنما رأوا أنفسهم عمالقةً بحملهم آخرَ الرسالات السماوية للبشرية جمعاء، فكانوا كما وصفهم القرآن خيرَ أمةٍ أخرجت للناس، وسادوا الأرضَ وعمروها في كلّ مجالات الحياة، ونبغوا في كلّ جزئية من جزئياتها، وكيف لا يكون ذلك وهُم إذا خلوا لأنفسهم وأغمضوا أعينهم لا يرون إلَّا دواعي العزة، والجنة عن يمينهم، والنار عن يسارهم، والله مقصدهم، وقد حملوا الأمانةَ وساروا بها يَسمعون كلامَ الله ويُسمعونه لأهل الأرض، وينظرون إلى الله في كلّ أعمالهم ليروا البشريةَ ما أراهم الله.

وهذا ما يسمَّى في علم النفس (صورة النفس) Self Image أو الكيفية التي يرى بها الشخصُ نفسه، وتؤكد الدراساتُ النفسية بدون أدنى شكٍّ أن نجاح الشخص ينطلق من هذه النقطة (كيف يرى الإنسان نفسه؟)

وهذا هو السؤالُ الذي يجب أن نسأل أنفسنا إيَّاه، خاصَّة في هذه الأيام العصيبة على الأمة، كيف نرى أنفسنا؟

إنَّ صورة المسلم قد مُسخت وحرِّفت من قبَل أعداء الإسلام، وأخطاء بعض المسلمين، وأصبح الهدفُ الأول للإعلام العالمي هو تشويهَ صورة الإسلام من خلالِ صورة المسلم. وللإعلام قوةٌ عجيبة في رسم أيِّ صورة وتحريفها بل وإلباسها ثوبًا يتعارض تمامًا مع كلّ محتويات الصورة ومعانيها.

وهناك مئاتُ الأمثلة أذكرُ اثنين منها: استفتي آلافُ الأشخاص في دراسة، وكان السؤال: ما أكثرُ الحيوانات بغضًا؟ فوجد أنَّ الجرذ (الفأر) هو أمقتها بدون منازع، فكيف إذًا استطاع ديزني Disney أن يحوِّل في أذهان البشر أمقتَ الحيوانات إلى أحبِّها وأشهرِها عالميًّا لكلِّ شعوب الأرض في صورة الشخصية المعروفة في الرسوم المتحركة (ميكي ماوس)؟!.

وكيف استطاع الإعلامُ الأمريكي أن يجعل العالمَ يرى أصحاب أمريكا الأصليين (الهنود الحمر) مُجرمين وقتلة، وهم أصحابُ الأرض، وهُم الذين وقع عليهم الاستعمارُ والإبادة والاحتلال؟! وقد كنَّا صغارًا نشاهد أفلام رعاة البقر Cowboys وقلوبُنا ومشاعرنا مع راعي البقر وهو يحصدُ العشرات من الهنود الحمر، وهناك صورٌ أخرى كثيرة.

إنَّنا اليوم ألبسنا ثوبًا لا يعكس صورةَ الإسلام العظيمة، وإنَّما يعكس حقدَ أعداء الإسلام، وتضخيم أخطاء أقليَّة من المسلمين.

وجلُّ همِّنا لا بدَّ أن يصبَّ في سؤال واحد: هل نعرف حقًّا مَن نحن؟ وعندما ننظر إلى المرآة هل نرى أنفسَنا بالثوب الذي ألْبسْناه من قبَل أعداء الإسلام، أم الثوب الذي ألبسَه لنا رسولُ الله ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم.

أهدى حكيمُ بن حزام رسولَ الله ثوبًا كان لملك اليمن (ذي يزن)، وكان ثوبًا بالغ الجمال، فلبسَه رسولُ الله ﷺ يومًا فكان جميلًا لبسَهُ الجميلُ صلواتُ الله وسلامه عليه، وفي اليوم التالي بينما كان حكيم بن حزام يسير في المدينة ولم يكنْ قد أسلم رأى أسامةَ بن زيد يلبس الثوبَ فتعجَّب وأوقفه قائلًا له: أوَتَلبس ما كان يلبس ملكُ اليمن؟! ولم يكن أسامة بن زيد رضي الله عنه جميلَ الشكل، وإنْ كان رضي الله عنه جميلًا في كلّ شيء عدا ذلك.

أجابَه أسامة قائلًا: والله إني خيرٌ من ذي يزن، وأمّي خيرٌ من أمّه، وأبي خير من أبيه، فإنا نقول لا إله إلّا الله ولم يقولوها!

إنَّنا مطالبون ومأمورون كأفرادٍ وكأمةٍ بالعمل (وقل اعملوا..) ولن تبدأ رحلتنا في عمارة الأرض وتحرير البشرية من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، وربط السماء بالأرض؛ إلّا عندما تتحرَّر عقولنا من الصور المقيتة التي رسمت لنا ومن الثوب الذي ألبسناه، وعندما ننظرُ إلى المرآة نرى أنفسنا جزءًا من سلسلة أولها آدم عليه السلام، وحلقاتها الأنبياء من بعده إلى قيام الساعة، ونرى مسئولياتنا تجاهَ الأرض التي تئنُّ، والسماء التي تنظر.

وإنْ لم نرَ هذه الصورة فإننا قد خُنَّا أمانة السماء التي أبتِ الجبال أن تحملها وحملَها الإنسان، وسنفتقد العزيمة والنشاط والقوة لتغيير الواقع المهزوم الذي نعيشُه، وسنوكل إلى أنفسنا وسنستعبد من غيرنا.

و﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (113).

---

(114) سورة الذاريات: 21.

(113) سورة الرعد، من الآية 11.

في النفس والمجتمع

الاستثمارُ الأخلاقي (1)

قرأت كتابًا بعنوان (The Ethical Investor)، والترجمة الحرفية له هي (المُستثمر الأخلاقي) أو المستثمرُ ذو الخلق؛ وهو المستثمرُ الذي لا يضع أمواله إلَّا في المشاريع التي تتوفَّر فيها معايير أخلاقية محدَّدة سنفصلها فيما بعد.

ويخاطب المؤلفُ الفردَ المُستثمر، ويثبت له بالأرقام والإحصائيات الموثقة كيف يستثمرُ أمواله في مشاريعَ ناجحة، وفي الوقت ذاته يخدمُ مجتمعه ويُسهم في نموِّه وازدهاره ورقيِّه، فيبيِّن المؤلفُ إحصائيًّا الفوائدَ التي جناها المساهمون الحريصون على استثمار أموالهم في مشاريع هدفها الرئيس خدمة المجتمع.

وذلك من خلال نقاطٍ عديدة يمكن ذكرُ بعضها على سبيل المثال لا الحصر، مثل:

• المشاريعُ التي تقدِّم خدمات أساسية للمجتمع، وترفع من مستواه العلمي والاجتماعي والتربوي والصحي.

• المشاريعُ التي تستهدف الحفاظَ على المصادر الطبيعية وإيجاد البدائل التي تساعد على حماية البيئة (من ماء وهواء وغذاء) من التلوث والعبث والاستنزاف وسوء الاستعمال.

• المشاريعُ التي توفِّر للأفراد فرصَ عملٍ جديدة وشريفة، وتعين على بناء الفرد ورقيِّه لا هدمه واستعباده.

• الابتعادُ عن كلّ المشاريع التي لا تعينُ على تحقيق المصالح المذكورة أعلاه.

ويبدأ المؤلفُ كتابه بتحليل مفهومٍ أصبح للأسف جزءًا من

عقلية ونفسية الأغلبية العظمى من البشر في هذا العصر الذي تهيمنُ عليه الرأسمالية، ألا وهو أنَّ الفرد عندَ قيامه بعملٍ هدفُه الأساسي جلبُ الخير والمنفعة لغيره، فلا بدَّ له أن يضحي بمصالحه الشخصية.

ويؤكد المؤلفُ أنَّ هذا المفهوم خاطئ، وتدحضه الدراسة العلمية الدقيقة لتاريخ مثل هذه الاستثمارات بالإحصائيات والأرقام التي لا تقبل المناقشة، وإنني أضمُّ صوتي إلى صوتِ المؤلف فأقول: إنَّ هذا المفهوم في الحقيقة هو مفهوم خاطئ ودخيل علينا، كأمةٍ لها تاريخُها العريق في جلب المصلحة للفرد أثناء بل ونتيجة خدمته لمجتمعه وأمته.

وتاريخُنا مليء بالصحابة والتابعين رضي الله عنهم وأرضاهم ممَّن أنعم الله عليهم بالثراء فاستثمروا أموالهم في كلّ ما يخدمُ مصالح المجتمع الإسلامي ويرتقي به في شتَّى ميادين الحياة، فبارك اللهُ لهم في أموالهم، وما ازدادوا إلَّا صلاحًا وثراء.

والحقيقة أنَّ هذا المفهوم الخاطئ هو نتاجُ القصور في فهم الأبعاد قصيرة المدى وبعيدة المدى في تقييم المشاريع والاستثمارات، فهناك شركات أولوياتها الرفعُ من أرباح المستثمر في المدى القصير وإنْ كان لذلك عواقب سلبية على المدى البعيد.

وفي وقتنا الحالي أرى أنّنا في أمسّ الحاجة أن نحلّل هذا الكتاب القيم، ونسرد بعضَ الأدلة الحية والواقعية لشركات واستثمارات تندرج تحت تعريفنا للاستثمارات الأخلاقية تصدَّرت وتقدمت على منافسيها كنتيجةٍ حتمية للمبادئ والأخلاقيات التي تسعى لتحقيقها لنفع المجتمع، ومن ثمَّ نسقط هذه المبادئ على مجتمعنا واحتياجاته في المرحلة القادمة، والتي قد تكون من أصعب المراحل التي ستمرُّ علينا أفرادًا ومجتمعات.

الاستثمارُ الأخلاقي (2)

قدْ يبدو بالقراءة السَّطحية للموضوع أنَّ كلّ عمل واستثمار هو في الحقيقة أخلاقي، لكنَّ المؤلف يبين أنَّ هذا غير صحيح؛ فهناك أولويات واحتياجات تختلف من مجتمع إلى آخر، وهذه الأولويات والاحتياجات هي التي تفاضل بين الاستثمارات. ونحن هنا لا نتحدَّث عن الاستثمارات اللاأخلاقية (بديهيًّا) مثل الاستثمار في الأمور ذات المَضرَّة الواضحة البيِّنة مثل الدخان بأنواعه المختلفة، وإنما نتحدث عنِ استثمارات قد لا تحمل مضرَّةً واضحة ولكنَّها لا تساعد على رفع مستوى أفراد المجتمع علميًّا أو اجتماعيًّا أو عقليًّا أو تربويًّا أو صحيًّا، أو أنها لا تحمي البيئة، ولا تحافظ على طاقات المجتمع، ولذلك فقد أدرج المؤلفُ تحت تعريف الاستثمار الأخلاقي ما يسمَّى بالمستثمر المهموم بمجتمعه (Socially Concerned Investor) وجعلها شرطًا من شروط اكتمال واستيفاء تعريف الاستثمار الأخلاقي.

فالمستثمرُ المهمومُ بمجتمعه هو الذي يحمل همومَ مجتمعه فوقَ كاهله لتصبح خدمةُ مجتمعه والسعيُ لرفعته وتقدمه هي (همَّه) الشاغل. فعلى سبيل المثال إذا انتشرت في مجتمعٍ ما الأطعمة السريعة (Food Junk)، وشحَّتِ البرامج التي تساعد على نمو الفرد عقليًّا ونفسيًّا وصحيًّا، لا يصبح الاستثمار في الأطعمة السريعة أولويةً لهذا المجتمع، دعْ عنك ما تسبِّبه هذه الأطعمة من أمراض جسدية على المدى البعيد نظرًا لرداءتها وعدمِ مراعاتها للمبادئ الأوليَّة للأغذية الصحية إلَّا ما ندر منها.

ويؤكد الكاتبُ أنَّ استثمار الفرد في المشاريع (الأخلاقية) التي تعنى بخدمة المجتمع ليستْ في الحقيقة تضحيةً وإيثارًا لمستقبلٍ بعيد المدى وغير معروف، وإنما هي استثمارٌ تتوفَّر فيه جميعُ العناصر

التي تتوافر لغيره من المشاريع قصيرة المدى التي لا تعنى بمثل هذه المبادئ. والفرقُ هو أنَّ المشاريع (الأخلاقية) تعنى بخدمة المجتمع ونموِّه وازدهاره، فبقاؤها مضمونٌ ببقاء المجتمع، أمَّا المشاريع قصيرة المدى التي لا تبالي بمثل هذه المبادئ فبقاؤها مشروطٌ بظروف تحكمها.. وبتغير تلك الظروف (كانتشار الوعي الصحي، أو ارتفاع المستوى العلمي للفرد في المجتمع... إلخ) تتلاشى وتضمحلّ مثل هذه المشاريع والمؤسسات.

الاستثمارُ الأخلاقي (3)

إنَّ التعامل الأخلاقي معَ المستهلك يؤدي على المدى البعيدِ لتكوين ولاء عند المستهلك ممَّا يؤدي إلى تخفيف العبء المادي المخصص لمعالجة وإزالة الانطباعات السلبية عن الشركة، وتخصيص المبلغ ذاته في العمل على تكوين الانطباعات الإيجابية والتي تساعد على سرعة نموِّ وتقدم الشركة.

وهذا كلُّه في الحقيقة يُمكن أن يترجمَ في النهاية إلى رفع مستوى وفعالية العمل وما يتبعه من نجاحٍ مادي أكبر يمكن توجيهُه لرفع مكافأة العاملين على جهودهم ومثابرتهم، ومكافأة المُستثمرين على حُسن اختيارهم لمشاريع تعنى بخدمة المجتمع ورفع مستواه.

والحقيقة أنَّ ديننا الحنيف ما ترك شيئًا من أمور الدنيا يصلح أمرَ البشر إلَّا وقدم لنا صورةً نقتدي بها ونسقطها على واقعنا.

فممَّا قال رسولُنا الكريم عليه أفضل الصلوات والتسليم في طريقة التعامل مع القوى العاملة: (إخوانُكم خولكُم جعلهم اللهُ تحت أيديكم، فمَن كان أخوه تحت يده فليطعمْه ممَّا يطعم، وليلبسه ممَّا يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإنْ كلَّفتموهم فأعينوهم) (127).

وقولُه: (ثلاثةٌ أنا خصمُهم يوم القيامة، ومَن كنتُ خصمه خصمته: رجلٌ أعطى بي ثمَّ غدر، ورجلٌ باع حرًّا فأكل ثمنه، ورجلٌ استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطه أجرَه) (126). وغيره كثير.

وفي سياق قصة نبي الله شعيب عليه السلام (كآجر) مع موسى عليه السلام (كأجير) (قبل أن يكون نبيًّا) عِبرٌ ومنهاج عمل يساعدُ على فهم الأسس الصحيحة للمشاركة في الإسلام.

وإذا بدأنا في إسقاط قصَّة نبي الله شعيب كآجر مع موسى عليه السلام كأجير، قبلَ أن يوحى إليه، على واقعنا؛ لوجدنا فيها عبرًا ومنهاجَ عمل يساعد على فهم الأسس الصحيحة للمشاركة في الإسلام وإنِ اختلفت صورة هذه المشاركة، ولكنَّ الأسسَ الأخلاقية التي بنيت عليها تظل متشابهة.

فقدْ بدأتِ المشاركة من طرفٍ أول هو موسى عليه السلام حين رأى احتياج عضوٍ من أعضاء المجتمع الذي نزل عليه لتوِّه (مدين) لشيء في يده ووسعه، وقد تمثلَ هذا الاحتياجُ في ابنتي شعيب عليه السلام ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ (125)، وبالرغم ممَّا كان يحمل فوقَ كاهليه من هموم الدنيا وقد خرج من مصرَ خائفًا يترقب، إلَّا أنَّ اهتمامه بالمجتمع الذي نزل عليه أكبرُ من همومه الشخصية، فبادر وأتبعَ سببًا ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ (124) وتأكدَ من اكتمال عمله على أكمل وجه ﴿ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (123).

وجاءتِ المشاركةُ الثانية على هيئة رأي ونصيحة صادقة من إحدى ابنتي شعيب لأبيها ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ (122).

وقيَّم شعيب الأجرةَ لا على قدْر احتياج موسى وهو الفقير الجائع آنذاك، وإنما على قدْر ما توسَّم فيه من خير وخُلق وأمانة وقوة، فشاركه في أغلى ما يملك ألا وهي ابنتُه ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ (121) وبدأ عقد الإجارة بينهما، وكان اللهُ الشاهد والوكيل.

وأحسنَ كلاهما للآخر، فما شقَّ الآجرُ شعيب على أجيره موسى عليهما السلام، بل كان شعيب من الصالحين. وأخلصَ الأجيرُ موسى لآجره، ونجحت الشركة بينهما وتمَّ عقدُ الإجارة على أحْسن وأكمل وجه. وكيف لا وقد بدأ على الأسس الخلقية الصحيحة. وأتمَّ الأجيرُ موسى عشرًا من عنده برًّا ووفاء كما أخبرنا رسولنا الكريم عليه أفضلُ الصلوات التسليم عندما قال: (سألت جبريل أي الأجلين قضى موسى؟ قال: أتمهما وأكملهما) (120) وفي حديث آخر (أبرهما وأوفاهما).

وهذه الأسسُ الخلقية في الإجارة وبناء الشركات لا تستهلك الفرد العامل وتهلكه وتستنزفه كما يحدثُ في كثيرٍ من الشركات القائمة، وإنما تساعد على نمو الفرد (الأجير) نفسيًّا وعقليًّا وماديًّا، وتؤهِّله لشيء أكبر، وهذا ما حدث لموسى عليه السلام فقد جعل الله إجارته بمثابة تأهيلٍ له قبل النبوة ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ (119).

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى ١٣ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ١٤ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ١٥﴾ (118).

والعقودُ والشركات تقيَّم بخواتيمها ونتائجها على المدى البعيد لا على المدى القصير كما يظن الكثير.

وكما قال الرسولُ الكريم ﷺ (البيِّعان بالخيار فإنْ صدقا وبيَّنا بورك لهما في بيعهما، وإنْ كذبَا وكتمَا مُحقت بركة بيعهما) (117).

وما يهمُّنا في ذكر بعض الأمثلة هو أن نؤكد بأنَّ ما يدعو له المؤلف من أخلاقيات ومبادئ مُستوحاة من أرض الواقع،

تساعد على نجاح الشركات، قد بيَّنه اللهُ لنا في كتابه ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ (116).

وصدقَ الحقُّ إذ قال: ﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (115).

---

(127) رواه أبو ذر الغفاري، صحيح البخاري، برقم 30.

(126) رواه أبو هريرة، صحيح البخاري، برقم 2227.

(125) سورة القصص، من الآية 23.

(124) سورة القصص، من الآية 23.

(123) سورة القصص، من الآية 24.

(122) سورة القصص، من الآية 25.

(121) سورة القصص، من الآية 27.

(120) رواه عبد الله بن عباس، أورده الألباني في صحيح الجامع، برقم 3591.

(119) سورة القصص، من الآية 29.

(118) سورة طه، الآيات 13 - 11.

(117) رواه حكيم بن حزام، صحيح البخاري، برقم 2108.

(116) سورة النحل، من الآية 89.

(115) سورة الفرقان: 33.

الاستثمارُ الأخلاقي (4)

إنَّ المسلم الحقَّ بفطرته السوية، وبفهمِه الصحيح لدوره في عمارة الأرض ونفعِ مجتمعه الإسلامي؛ لتجدَه يرى بعينٍ غير تلك التي يرى بها قصارُ النَّظر ممَّن يجهلون حقائقَ الإسلام وأهدافه السامية وشمولية منهاجه.

فالمسلمُ الحقُّ ينظر بالنظرة الربانية في الحكم على كلّ أموره، بما فيها القرارات الاستثمارية، والتي ثبتتْ أفضليتها وسموّها على غيرها بما تحمله من أخلاقيات ومبادئ سماوية يحبُّ الخالق أن تُعَمَّر أرضُه بها.

ويأتي أحدُ الإثباتات على أفضليةِ مثل هذه الاستثمارات الأخلاقية من أرض الواقع على لسانِ وبقلم مؤلفٍ غربي من أهل الكتاب، فأين نحنُ حملة آخر الكتب السماوية وخيرُ أمَّة أخرجت للناس من هذه المعايير الأخلاقية عند استثمارنا لأموالنا؟ وأين نحن من خدمة مجتمعاتنا؟ وهل أثرياؤنا حقًّا مهتمُّون ومهمُومون بقضايا مجتمعاتهم وكلِّ ما يصلح أمرَ الفرد في المجتمع الإسلامي؟

لقد شهدت منطقتُنا على مرِّ عقدين من الزمان ثراءً قد لا تشهده كثير من الأمم على مرِّ السنين، وصنعتْ هذه الحقبة و(الطفرة) شريحةً من الأثرياء، وسيسأل كلّ يوم القيامة ممَّا يسأل عنه؛ عن ماله مِن أين اكتسبه وفيمَ أنفقه. وما يهمنا في موضوعنا هذا هو وفيمَ أنفقه....

إنَّ على الأثرياء في المرحلة القادمة، والتي قد تكون من أصعبِ المراحل التي ستمرُّ علينا أفرادًا وجماعات؛ واجباتٍ وحقوقًا لمجتمعاتهم، والاهتمام والعمل على إحياء المشاريع الاستثمارية النافعة لأفراد المجتمع المسلم ليس تفضلًا من الأثرياء، بل هو حقٌّ

مجتمعاتهم عليهم، والتي اكتسبوا أموالهم منها، وحقُّ الله عليهم في عمارةِ أرضه بالخير (المال) الذي استخلفهم فيه، وإنَّهم إنْ وفقوا لفعل ذلك لنفعوا وانتفعوا قبلَ وبعد ذلك في الدنيا والآخرة.

إنَّني أدرك أنَّ الموضوع أعقد من ذلك، وأنَّ الهدف الذي أرمي إليه يتطلب جهدًا وعملًا متواصلًا وصادقًا لتهيئة ما يساعد من ظروف اقتصادية وسياسية واجتماعية، ولكني أؤمنُ في الوقت ذاته أنَّ على كلّ ثريٍّ من الأثرياء واجبًا فرديًّا في أن يكون مستثمراً أخلاقيًّا مهتمًّا بمجتمعه، وإن لم يفعل فقد ظلم نفسه قبل أن يظلمَ مجتمعه، ومَن أراد العاجلة عُجل له فيها.. وعواقبُ الأمور بخواتيمها. ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (128).

---

(128) سورة البقرة، من الآية 201.

الاستثمار الأخلاقي (5)

إنَّ كثيرًا من الشركات الغربية أدركت أهميةَ ما ذكر، فنجد أنها تمنح موظفيها أسهمًا في الشركات؛ أي تشرك موظفيها في ملكية الشركة وتقدِّم لهم الأولوية والأفضلية والتسهيلات اللازمة لشراء عددٍ أكبر من الأسهم، وبذلك يزداد حرصُ العامل على إنجاح شركته، وكيف لا وقد أصبح جزءًا منها وهي جزء منه!

وإنني لأعجبُ كيف طبَّق الغرب هذه المبادئ الخلقية في بناء الفرد العامل، وفي الإجارة والاستئجار وبناء الشركات على نطاقٍ أوسع بكثير ممَّا نطبقه نحن في مجتمعاتنا الإسلامية، بالرَّغم من أن ديننا الحنيفَ قد سبق في ترسيخ هذه المبادئ، بل وقد تجدُ كثيرًا من الأثرياء وأصحاب المؤسسات والشركات مازالوا يفكرون بأسلوبٍ مُتخلف في إدارة الأفراد العاملين والموظفين، بما يشبه حكم السادة للعبيد أو الفراعنة فيطرد مَن يشاء متى يشاء وكيف يشاء بمبرِّر وبدون مبرر، بل ويعتقد بعضُهم أنَّ من عوامل النجاح الرئيسية أنْ تجعل على كلّ موظف رقيبًا، وأن تضربَ بقبضة من حديد على يد كلّ مَن يخطئ أو يتهاون في عمله، مما يزرع في الموظف الخوفَ من الخطأ والعقاب، ويصبح أشبه بالمشلول لا يستطيع حراكًا، ولا يجرؤ على إبداءِ الرأي والنقد البنَّاء ومحاولة إيجاد حلول جديدة، ويصل إلى حالةِ اللامبالاة مادام يقبض راتبه في نهاية الشهر، ثمَّ يتساءل أصحابُ هذه الشركات: لماذا لا تنمو شركاتُهم كما تنمو الشركات الغربية الأمريكية التي تساوي ميزانياتها ميزانيات بعض الدول أو تزيد عليها؟

وأذكرُ في هذا السياق قصةً سمعتها من أحد أساتذتي السابقين في كلية الطب بجامعة هارفرد؛ وهو من روَّاد الأبحاث في الطب، وكان يشغل منصبًا إداريًّا مرموقًا في كلية هارفرد الطبية.

يقول البروفسور (Arkey) إنَّه قبل أكثر من أربعة عقود من الزمن، وبعد تخرُّجه من الثانوية هو وثلاثة من زملائه من نيويورك، أخذوا في البحث عن عملٍ مؤقت ليساعدهم على الالتحاق بالجامعة، ونجح هو وأحدُ زملائه في الحصول على عملٍ في متجر في نيويورك يدفع مرتبًا جيدًا ومكافأة مالية آخر العام، وأمَّا زميلاه الآخران فقد وجدَا عملًا خارج نيويورك في شركة صغيرة حديثةِ العهد. وفي نهاية العام فوجئنا بأنهما لم يحصلا على المكافأة المادية، وإنما أعطيَا أوراقًا لم يفهمَا أهميتها، وتأثر أحدهما تأثرًا كبيرًا وذهب إلى والد الدكتور (Arkey) يشكو له، فقد كان الفتى ينوي شراءَ قبعة جديدة لوالده في العيد من المكافأة.

أمَّا الشركة المعنيةُ فهي شركة الكمبيوتر المعروفة عالميًّا، والتي كانت آنذاك شركةً صغيرة في بداية طريقها للنجاح الكبير، وأمَّا الأوراق التي قدمت للفتى فقد كانت أسهمًا في الشركة، وتقدَّر هذه الأسهم اليوم بعشرات الملايين من الدولارات، وقد أصبح الفتى من أثرياء نيويورك!

نعم، لم يستطع الفتى أن يشتري لوالده في ذلك العيد قبعة جديدة، لكنه حقق حلمَ والده بعدها بثلاثين عامًا واشترى له بيتًا كبيرًا ومزرعةً قضى فيها والده آخرَ عشر سنوات من عمره.

والعبرةُ من سرد القصة هو أن نُبين أنَّ من حق العاملين في الشركة الصعود والتقدم مع نموِّ الشركات التي يعملون بها، وأن يجنوا من ثمار نجاحها، وبمثل هذا الفكر يمكن لشركاتنا أن تنمو وتزدهر.

إنَّ هناك شركات واستثمارات تجعل من أولوياتها رفع أرباح المستثمرين على المدى القصير، وإن كان لذلك عواقب سلبية على المدى البعيد، وهناك شركات لها أهدافٌ وبرامج على المدى

البعيد، وهناك شركات واستثمارات لها أهداف وبرامج بعيدة المدى لخدمة مجتمعاتها والعاملين فيها وعاقبة الأمور بخواتيمها.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ٢٤ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٢٥﴾ (129).

---

(129) سورة إبراهيم، الآيتان 24-25.

معنى النَّجاح

عندما يكون النجاحُ للوصول إلى غاية نبيلة متأصِّلًا فينا، فإننا لا نخاف من أن يشاركنا الناسُ هذا النجاح، بل العكس تمامًا، فالذين يؤمنون بفكرة ومبدأ يحبون أن يروا في مجتمعاتهم مَن يشاركهم في الأفكار والمبادئ، ويساعدهم في الوصول إلى أهدافهم.

فعلى سبيل المثال، الطبيبُ المتمكن من علمه الذي يستهدف من وراء ممارسته عمله إلى رفع الألم عن مرضاه وتقديم الخدمات الطبية على أكمل وجه ولأكبر عدد مُمكن من الناس؛ يسعد عندما يرى أطباءَ ناجحين يؤدون واجبهم، ولا ينقص نجاحُهم من نجاحه شيئًا، بل يكمله ويساعد على تحقيق الغاية.

والكاتبُ الناجح الذي يؤمن بمبدأ نبيل، ويسخِّر قلمه في سبيل نشره والدفاع عنه، يسعدُ عندما يكثر الكُتَّاب الناجحون الذين يسخرون أقلامهم للدفاع عن القيم والمبادئ التي يؤمن بها هو، ولا ينقص هذا من ملكته أو نجاحه شيئًا.

والقاضي العادل الذي يؤمن بمبدأ العدالة وإحقاق الحق وإبطال الباطل، يسعد عندما يرى القضاةَ من حوله على أساس متين من العلم والنزاهة ولا ينقص هذا من علمه أو نزاهته، بل يكملهما ويتمُّهما.

إنَّنا عندما يتأصَّل النجاح في نفوسنا ويرتبط بغاية نبيلة وهدف سام، فإننا نسعد عندما يشاركنا الآخرون الهدفَ والغاية، بل إننا ندعوهم إليها، حتَّى يكونوا لنا عونًا، ويكملوا ما بدأنا، بل وإننا نسعدُ أكثر عندما يتبنَّى الآخرون هذه الأفكار ويؤمنون بها، ويتحدَّثون عنها وكأنها جزءٌ منهم، فإنهم إنْ فعلوا فهذا نجاحٌ لفكرتنا التي نسعى إلى تحقيقها، ومبادئنا التي نعيش من أجلها.

أمَّا عندما نهاجم الناجحينَ لأننا نخشى من نجاحهم أن يطغى على نجاحنا، أو نهاجمهم لأشخاصهم لا لمَا يؤمنون به ويسعون إلى تحقيقه، فعلينا حينئذٍ أن نسأل أنفسنا: ما معنى النجاح عندنا؟

مثاليةٌ أم أساسيات؟

المثاليةُ شيء والواقعُ شيء آخر، والنجاحُ لا يكون إلَّا عندما يتخلَّى المرء عن جزءٍ من هذه المثاليات، ويتعايش مع واقعه.

هذه الكلماتُ سمعتها بأساليبَ مختلفة، ومن أفواهٍ مختلفة، وفي مراحل مختلفة من عمري. وكنت أسأل القائلَ في كلّ مرة عن تعريفه للمثاليات والنجاح، وبرغم أنني كنتُ أجد أجوبة مختلفة إلَّا أنني وجدتُ أنَّ هناك فئة لا بأس بها تندرج تحت تعريفهم للمثاليات أمورٌ أساسية فرضها اللهُ علينا كمنهاج حياة في التعامل بين البشر بعضهم بعضًا، أو بين الإنسان ونفسه أو بين الإنسان وربه.

ويقتصر تعريفُهم للنجاح على تعريفٍ دنيوي بحْت بمعزل عن الآخرة، وبطرق ماديةٍ بحتة لا تضع في موازينها المعاييرَ الإنسانية أو القيم المعنوية.

على كلّ هؤلاء أن يعيدوا حساباتهم من جديد، وأن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا، فقد يكون ما يحسبونه نجاحًا هو الفشل بعينه إذا وضعت الآخرة في الميزان، وأن ما يسمُّونه مثاليات هو محكُّ إيمانهم وابتلائهم، وأنَّ ما يظنونه واقعًا لا بدّ التعايشُ معه؛ هو واقعٌ مؤقت سينقشع يومًا من الأيام أمام الواقع الأبدي، وعندها يعلمون ولكنْ بعد فوات الأوان.

﴿لَقَد كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (130).

---

(130) سورة ق: 22.

حتَّى لا يفوتُنا الرَّكْب

إنَّ كلّ قضية من قضايا الحياة، أو شأنٍ من شئونها، له زوايا مختلفة، فلا تُفهم هذه القضايا فهمًا كاملًا، ويتعامل معها بعلمٍ ووعي وإدراك؛ إلَّا إذا تمَّ النظر إليها من معظم زواياها.

ولا تتقدم الأممُ والشعوب إلَّا بفهْم قضاياها فهمًا دقيقًا شاملًا كاملًا، ولا يتأتى ذلك إلَّا إذا شارك أبناؤها في إبداءِ الرأي من الزاوية التي يرونْ منها هذه القضايا، وتعدد الآراء هو تعددٌ لنظرات من زوايا مختلفة، ومحصِّلة هذه الآراء هو تجسيدٌ للقضايا وفهمٌ لأبعاد قد لا تُرى من زاوية واحدة.

إنَّ الشعوب التي تحترم حريةَ الفكر وإبداء الرأي وتطلق لأبناء أمتها حقَّ ممارستها تتقدم بخطًى سريعة تعمق فهمَها لأبعاد قضاياها وشمولية نظرتها، أما المجتمعاتُ التي تنعدمُ فيها هذه الخصائص فإنها تفتقد الفهم الشامل لقضاياها، فتكون نظرتها غالبًا من زاوية مُحددة لا تقبل غيرَها، فتصبح هذه النظرة هي المألوفَ والمعتاد والمقبول والواقع والعرف، وغيرها من المصطلحات التي تفيد معنى واحدًا وهو جزئية النظر إلى القضايا.

وهناك زاوية وبعدٌ آخر يُستعان به كذلك في اكتمال فهم القضايا، وهو نظرةُ البعيد أو نظرةٌ من الخارج، وهي لا تقلُّ أهمية عن النظرة من الداخل، فتحتاج الأمم إلى مَن ينظر إلى قضاياها من الخارج أو من بُعد، فنظرة البعيد تصبح بذلك بعدًا آخر قدْ يكون أكثرَ شمولية، كالذي يرى الأرضَ من طائرة، وكلّ بُعد هو زاوية في حدِّ ذاته. ومثال ذلك المسحُ الجوِّي للأرض لدراسة طبيعتها والانتفاع بخيراتها، ويستخلصُ من هذه الدراسة معلومات لا يمكن الحصولُ عليها من على الأرض نفسها.

والبعيدُ ينظر إلى الأمور كما يجبُ أن تكون لا كما هي عليه،

ويمكن له أن ينظر لأنَّه غيرُ مثقل بقيود الواقع أو مُحبط بتبعاته.

وفي كلّ مجتمعٍ تجد من هؤلاء الكتّاب والعلماء والاقتصاديين والاجتماعيين والسياسيين والفلاسفة والأطباء ورجال القانون وغيرهم. وبالرغم من أن نظرتهم قد تكون مثالية أو غير واقعية لَمَن هم في الداخل؛ إلَّا أنَّهم روح الحياة التي تدبُّ في المجتمعات وتبثُّ فيها الأمل، والواقعُ بالنسبة إليهم هو ما تريد الأمم أن تصنعه لنفسها وتجعله واقعًا.

ومَن يستطيع أن يدَّعي أن الاختراعات والابتكارات والاكتشافات العظيمة كانت في بادئ الأمر أفكارًا واقعية أو معقولة عندما آمنَ بها أصحابها. وهل كانت فكرة صعودِ القمر إلَّا حلمًا وخيالًا جعل الإنسانُ منه واقعًا بالإيمان والعزم والتصميم بعد إذن الله ومشيئته.

إنَّ الأمم التي تحرَّرت من قيود الواقع وربَّت أجيالها على حرية الفكر واحترامه وإبداء الرأي والبحث والتأمل، تحلم اليوم بقضايا وأمور تستسخفها كثير من الشعوب وتسخرُ منها، كما سخرتْ في السابق من فكرة صعود القمر، ومازالت هذه الأممُ تتقدَّم وتخطو بآمالها وأحلامها، وتُحول الحلم إلى واقع ملموس، والأمم التي تدَّعي الواقعية والعقلانية تستهلك ما يقدم لها بعدَ أن يصبح الحلم حقيقة والفكرةُ واقعًا، فتصبح بذلك في مؤخِّرة الركب تلهث وراءَ الأمم المتقدمة.

إنَّ أمتنا قد حباها اللهُ بخصيصة دون غيرها من الأمم، فقد جعل روح عبادتها في التفكر والتأمل والنظر، قال تعالى ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ (134) ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (133)..

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (132).

واللهُ يناديا من فوق سبْع سموات ونحن خلفاءُ الأرض أن نأخذَ بأسباب استخدام الأرض وتعميرها، وبدون الأخذِ بها لن تكون لنا اليد العليا، وهذه سنة الله في الأرض ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبدِيلا﴾ (131)

---

(134) سورة العنكبوت، من الآية 20.

(133) سورة آل عمران، من الآية 191.

(132) سورة الرعد، من الآية 3.

(131) سورة الأحزاب، من الآية 62.

ليْتنا نتعلّم من أطفالنا

هل رأيتَ مؤخَّرًا طفلًا يتعلم المشي؟

إنَّه يقف ليسقط.. ثمَّ يقف ليسقط.. ثمَّ يقف ليخطو خطوة فينكفئ على وجهه.. فيبكي بدموع ساخنة ولكنَّه لا يلبث أن يقف مرَّة أخرى قبل أن تجفَّ دموعه، ليسقط من جديد.

ويقضي يومه كلَّه في مثل هذا من وقوف وسقوط وانكفاء على الوجه، حتَّى إذا ما أصابَه التعب والإعياء جلسَ فاتكأ فنام، ليستيقظ في اليوم التالي أو بعد بضع ساعاتٍ ليحاول من جديد وقد نسي كلّ ما عاناه بالأمس من آلام وإصابات ونكسات.

ومازال هذا شأنه حتَّى يتقن الوقوفَ، ومن بعده المشي، ومن بعده الجري والقفز.

مَن علَّمك هذا يا صغيري! إنَّها فطرتك السوية التي لم تنتكس بعد، والتي أودعك الله إياها.

إنَّها فطرةُ المثابرة والتصميم والإصرار والمجاهدة والكفاح والنضال، إنها الفطرة التي تدعوك أنْ لا تضيع لحظةً من لحظات حياتك أو دقة من دقات قلبك لتذهب هباء..

فالوقتُ لك أو عليك.. والذي يذهبُ منه لا يعود. إنَّها فطرة الإيمان بأن العمل فريضة ورسالة.

ليتنَا نتعلَّم من أطفالنا إخلاصَهم في أعمالهم وإصرارَهم على تحقيقها وكفاحَهم في سبيلها!

وعندما تمرض النفسُ تنتكس الفطرة، ويصاب المرءُ بإحباط وتقاعس وتكاسل وخوف.. خوفًا من المحاولة.. وخوفًا من المغامرة. وعندما تنتكس الفطرة فإنها تصبح عدوَّةً لنا تحولُ بيننا

وبين تقدمنا وإنجازاتنا وتحقيق رسالاتنا التي خُلقنا من أجلها.

وكيف لنفسٍ أن تنتصر وقد فقدتْ أعزَّ وأقيم صديق ودليل؛ ألا وهو فطرتها التي خلقها اللهُ عليها. إنَّ الكفاح والنضال والمثابرة ليست قصرًا على عمر أو زمن فقد تكونُ هذه الصفات في بعض المسنّين أصدقَ وأعمق من الشباب.. فهي انعكاس لمدى صفاءِ النفس واستواء الفطرة.. وهي خصيصةٌ من خصائص المؤمن، التي لا يعرف سرَّها إلَّا مَن خلقها.. ولا حلاوتها إلَّا من عايشها.

ولا يعمل بها خيرٌ من أطفالنا.. فيا ليتنا نتعلَّم من طفولتنا!

نعم.. قدْ يُخطئ الآباءُ والمُربُّون

لقدْ سطرت صفحاتُ التاريخ سيرةَ رجال أفذاذٍ عمالقة أبى التاريخ إلَّا أن يخلد أعمالهم بخطوطٍ عريضة. دخلوا الدنيا ببدايات متواضعة وما خرجوا منها إلَّا بعدما حفروا على صخور الأرض وصفحاتِ التاريخ كلماتٍ ومواقفَ بقيت مئات السنين بعدما ذهبوا.

والناظرُ المتأمّل في تاريخ هؤلاء العمالقة يرى أنه على اختلاف وتنوع صورهم وأشكالهم ولغاتهم ونفسياتهم وخلفياتهم ووسائلهم وأهدافهم وإنجازاتهم؛ إلَّا أن هناك عاملًا واحدًا يشتركون جميعًا فيه.

وهذا العاملُ هو الإيمان بالقضية التي يعملون من أجلها.. والإنصات والإصغاء لما تُمليه عليهم أفئدتهم وقلوبهم.

إيمانُهم بقضيتهم إيمانٌ لا يزعزعه شيء على وجه الأرض..

حياتهم هي حياة قضيتهم.. وموت قضيتهم هو موتهم.

لا يبالون إنْ كذّبهم الجميع.. أو سخر منهم الجميع.. أو خطّأهم الجميع، وهم يشقُّون طرقًا وعرة، ويتحملون مشقات عظيمة، بينما ينعم الكلُّ من حولهم بملذات الدنيا ونَعيمها.

هُم مُبدعون.. ومُبتكرون.. ومُخترعون.. ومُجددون.. لأنهم ما تعودوا أن

يكونوا مُتبِعين أو مُقلِّدين.

كلُّ ما يصدر عنهم يصدر خالصًا من خويصات أفئدتهم ولُب قلوبهم فكيف تجد لهذا مثيلًا!

والعجيبُ في الأمر أن كثيرًا من هؤلاء المبدعين العمالقة قد

واجهوا في بداية حياتهم صدًّا من أقرب الناس إليهم، ولوْ بحسن نية وطيب قصد، فمنهم من شقَّ طريقًا غير الذي كان والداه يحلمان به له، فمنهم مَن كان يحلم والداه أن يكون طبيبًا فصار أعظمَ قضاة عصره، ومنهم مَن كان يحلم والداه أن يكون مهندسًا فصارَ أعظم كُتّاب وشعراء عصره، والتاريخ مليء بمثل هؤلاء.

وإنَّ من حُسن حظِّ مجتمعاتهم والبشرية عامَّة أنَّ هؤلاء العظماء استمعوا إلى قلوبهم ولبُّوا نداءَ الفطرة ولم يصبحوا أداةً لتحقيق أحلام آبائهم.

إنَّ الله خلقَ كلّ نفس وآتاها من الملكات والقدرات ما لا يعلم مداه ولا منتهاه إلَّا خالقُ هذه الأنفس الذي سوّاها، ثمَّ مَن يحمل هذه القدرات في قلبه الذي لا يفارقه إلى سواها.. فكيف للآباء أن يفترضوا أنَّهم أعلمُ من أبنائهم بملكاتهم وقدراتهم.

وهل يحلم لك غيرك في سباتك..!!

أو هل ينبضُ قلبك في دم غيرك أثناء يقظتك..!!

والإبداعُ يبدأ بحلم يطرق الفؤادَ ليوقظه من سباته.. فإذا استيقظ القلب زادت وقويتْ ضرباته ودقاته.. وسار الدم في عروقه فارتوت أطرافه وبثت فيه حياته.. فانصاعت له أعضاؤه وحواسُّه.

والإبداعُ يستلزم الإيمان بما تعمل.. وهذا الإيمان منبعه القلب ولا يدري المرءُ من أين جاء، إلَّا أنها رسالةُ خلق من أجلها وأوتي الملكات لتحقيقها.. وكلُّ ما عليه هو أن يستمع إلى قلبه وفؤاده.

وهذا هو طريقُ الإبداع.. ولا طريق غيره.. وهناك فرقٌ كبير بين النجاح والإبداع.

نعم، قد يخطئ الآباءُ والمربون.. وقد أخطأ كثيرون. ولولا مشيئةُ الله وتصميم المبدعين وإيمانُهم برسالاتهم، ونداءُ الفطرة في قلوبهم؛ لحُرمت مجتمعاتهم من ابتكارات كثيرة.. واختراعات جليلة.. وكلمات ومواقف خلدها التاريخ تجسيدًا للإبداع البشري والتصميم والتفاني.

أيها الآباءُ والمربون الأفاضل، لا تقتلوا الإبداع في أبنائكم ظنًّا منكم أنكم أعلمُ منهم بملكاتهم وقدراتهم ونداء أفئدتهم وقلوبهم.

ولا تجعلوا أبناءكم وسيلةً لتحقيق أحلامكم التي حالت الظروف بينكم وبين تحقيقها.. فلكلٍّ منكم ملكاته.. ولكلٍّ منكم رسالته.. وإن فعلتم فقد يكون الثمن باهظًا وغاليًا يدفعه أبناؤكم وتدفعه مجتمعاتكم كلّ يوم وأنتم لا تشعرون..

وصدق اللهُ العظيم ﴿وَلِكُلٍّ وِجهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاستَبِقُوا الخَيرَاتِ﴾ (135).

---

(135) سورة البقرة، من الآية 148.

ماذا نقدِّمُ لمجتمعاتنا؟

إنَّ في كلّ مجتمعٍ فئةً من أفراده ينصبُّ جلُّ عملها في الأمور المعنوية، والتي غالبًا لا تُدِرُّ على أفرادها مردودًا ماديًّا يذكر، وفضلُ وخير أعمال هذه الفئة يعود على مجتمعاتهم قبل أن يعود عليهم فتنتفع مجتمعاتهم قبل أن ينتفعوا هم.

وهُم يظهرون جمالَ ورونق وإبداع هذه المجتمعات، كاليد اليمنى (في الشخص الأيمن) تعود مهارتها في تقليم الأظافر على أختِها اليسرى فتنتفع اليسرى بمهارة اليمنى، وتظهر بصورةٍ جميلة في حين ينعكس ضعف اليد اليسرى على أختها اليمنى فتظهر بصورةٍ هي أقلُّ جمالًا وإن كانت هي الأجدر بالانتفاع بمهارتها.

وتختلف نسبةُ الأفراد الذين يعملون في الأمور المعنوية من مجتمع إلى آخر، وكلما زادت نسبة هذه الفئة ازدهرَ المجتمع وارتقى.

وعندما تطغى الماديات على مجتمع فإنَّ تعريف النجاح يصبح تعريفًا ماديًّا بحتًا في الأغلبية العظمى من المجتمع، فلا يصبح للأمور المعنوية قدر أو وزن، فينحطُّ قدرُ العلم والعلماء في شتى مجالاتهم ويخسر المجتمع بأسره.

وقد تؤدي الضغوطُ المادية والنفسية على كثير من الأفراد العاملين في المجالات المعنوية أن يُسْقطوا ما في أيديهم، وأن ينضمُّوا إلى الفريق المادي في سباقه المسعور، وبهذا يخسر المجتمع كلّ يوم فردًا من هذه الفئة نتيجة عدم تقدير مجتمعاتهم لما يقدمونه، بل وفي حالات كثيرة نتيجة الالتزامات المادية الطاغية التي يعجز الفرد أن يوفيها ليعيش حياة كريمة.

وعندما يُرْغم أفرادُ هذه الفئة وتدفعهم الظروف أن يُعيدوا النظر في أولوياتهم، وأن يحوِّلوا طريقها ويستبدلوا أعمالهم المعنوية

بأخرى مادية، فإنهم قد يتفوقون على نُظرائهم الماديين في مجالاتهم وذلك بما حباهم الله من ملكات وقدرات، ولكن الذي يدفع الثمن هو المجتمع.

إنَّ على هذه المجتمعات أن تتدارك نفسها، وأن تعيد التوازن في لبنة بنائها، وتعينَ أفراد هذه الفئة على الاستمرار في أعمالهم المعنوية، وتهيئ لهم المناخ الذي يشجع غيرَهم على الانضمام إليهم وإكمال مسيرتهم، وإلَّا مات فيها الإبداع، وأصبحت مجتمعاتٍ مستهلكة جوفاء.

إنه ليس من الصعبِ على المرء أن ينصبَّ جلُّ عمله في الأمور التي تعود عليه بأكبرِ مردود مادي، فهذا شأنُ سواد المجتمعات، ولكن الصعب هو أنْ يضع المرءُ مصلحةَ مجتمعه فوقَ مصلحته، وليسأل نفسه كلّ يوم ماذا يقدمُ لمجتمعه وأمته!

حتَّى لا نَدْفِن أجيالنا أحياء

إنَّ سنة الله في كلّ شيء هي التغيير، فما مِن شيء يدوم إلَّا وجهه سبحانه، وبهذه السنةِ تتغير المجتمعات كلّ يوم تطلع فيه الشمس.

ويكون التغيرُ والتقدم بقدْر ما تسمح تركيبة المجتمع باستيعاب أجيالها المتتابعة، وبقدْر ما تُضفي هذه الأجيال على مجتمعاتها من أفكار وعلوم ودماء جديدة.

وفي بعض المجتمعات ذاتِ التقدم السريع في مجالات الحياة المختلفة يكون فيها كلّ عام بمثابة جيلٍ جديد، وفي كلّ يوم يُضخ في جسد المجتمع دماءٌ جديدة لتبعث فيه الحيوية والحياة.

والمجتمعاتُ التي تعجز أن تستوعب هذه الدماء المتجددة في كلّ يوم تفسد دماؤها، وتموت فيها الحيوية، وتترهَّل بترهل جيلها الأول، بل وقد تموت وتُدفَن معها ملكاتُ وطموحات شباب أجيال متتابعة لا تصل إليهم فرصة العطاء والتغير إلَّا بعدما يَمُوت فيهم حماسُ الشباب نتيجة الإحباط وضياع سنوات الحيوية والنشاط.

وهذه المجتمعات يندرُ فيها الإبداع وتتأخر، وكيف تُبدع وتتقدم وهي مازالت تعمل بجيلٍ واحد (جيلها الأول) وقد أكل عليه الزمان وشرب!

ولتَقَدُّم السن تقديرُه واحترامه، ولكن مكانة الرجال تكمن في رجاحة عقولهم وحكمتهم لا في تقدم أعمارهم.

ولو كان لفرقِ العمر والسن قُدسيةٌ لما ولَّى رسول الله ﷺ أسامة بن زيد جيشًا وهو لم يتجاوز العشرين من العمر، وجعل بين أفراده وجنوده وتحتَ لوائه كبارَ شيوخ الأنصار والمهاجرين ممَّن يفوقه في

العمر ما يزيد عن أربعة عقود، ومنهم: أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهم أجمعين.

ولو كان لتقدُّم السن أولويةٌ مطلقة لما أرسل رسولُ الله ﷺ مصعب بن عمير وقد كان من أصغر الصحابة سنًّا ليكون أول سفير في الإسلام إلى أهمِّ بقعة بعدَ مكة وهي المدينة؛ عقر دار اليهود آنذاك.

وهذه مواقفُ يعلمنا رسولُ الله ﷺ من خلالها كيف تُستغل طاقاتُ المجتمع وكيف يُقيَّم الرجال بما أنعم الله عليهم من ملكات وطاقات.

إنَّ المجتمعات التي تعجزُ عن أن تتأقلم وتتكيَّف مع سنة التغيُر وتفشل في أن تستوعبَ شبابها بطموحاتهم وآمالهم وأفكارهم ونشاطهم؛ هي مجتمعاتٌ حكَمت على نفسها أن تبقى في مؤخرةِ الركب مُقَلِّدة مُتبعة مُستَهلِكة تسير وراء المجتمعات المُبتكِرة المُبدعة بدماء شبابها وعطاء أجيالها.

وهذه سنةُ الله في أرضه، ولن تجدَ لسنة الله تبديلًا.. ولن تجد لسنة الله تحويلًا.

أإنسانيتُهم.. أمْ ربانيتُنا؟

إنَّ الصحةَ والعافية من أجلِّ نعم الله على عباده..

ولله حكمةٌ في توزيع نعمه. وقدْ يبتلي الله عبدَه بنقص في إحدى هاتين النعمتين، وكلٌّ منَّا مُعرَّض بأن يصبحَ بين يوم وليلة مريضًا أو معاقًا، ندعو الله لنا ولكم بدوام الصحة والعافية.

وإذا أصبح الشخصُ معاقًا فإنه يحتاجُ إلى الدعم النفسي والجسدي المتواصل من أسرته ومجتمعه. وتعريفُ كلمة (معاق) هو تعريفٌ نسبي؛ فهو يشير في ظاهره إلى وجود ضعفٍ معيَّن في الشخص مثل عدم القدرة على المشي (مقعد) أو الإبصار (ضرير) أو السمع (أصم)... إلخ.

ولكنَّنا إذا تأمَّلنا في التعريف بعمقٍ لوجدنا أنه تعريفٌ سطحي لا يدل على مدى قدرةِ الشخص على نفع مجتمعه، والأمثلة كثيرة لقادةٍ وعظماء وعباقرة ومبتكرين ومخترعين وشعراء وأدباء في تاريخنا وتاريخ الأمم عامةً يدخلون تحت تعريف المُعاقين إلَّا أنهم خدموا مجتمعاتهم، وأسهموا في ازدهارها ورقيها ونجاحها بقدرٍ عجزَ نظراؤهم (الأصحاء) أنْ يسهموا ولو بجزء ضئيل منه.

ومِن هذه الأمثلة أنَّه قبيل الحرب العالمية الثانية عندما كانت الولايات المتحدة الأمريكية تمرُّ بأسوأ حالةٍ اقتصادية في تاريخها الحديث حيث تعدى عددُ العاطلين عنِ العمل خمسة عشر مليونًا؛ كان أحدُ المرشحين للرئاسة هو روزفلت، وقد كان مُقعدًا بعدما أصيبَ بشلل في العقد الثالث من عمره نتيجة انتشار وباء شلل الأطفال، وكتبت الصحفُ آنذاك كيف يريد رجلٌ لا يستطيع المشي أن يصبح رئيسًا للدولة؟! وتمرُّ الأيام ويفوز روزفلت بالانتخابات ثلاثَ دورات متعاقبة حتَّى توفي في دورته الثالثة بعدَ أحد عشر عامًا من الحكم كرئيس للولايات المتحدة الأمريكية،

وقد نجح في أن يُخرجَ أمريكا من نكستها الاقتصادية ويهيئ لها الخروجَ من الحرب العالمية الثانية أقوى ممَّا كانت عليه قبل الحرب، ليُكتب ويقال عنه بعدَ موته: (لقد كان الرجلُ الذي لا يستطيع أن يمشي هو الرجلَ الذي أعان دولته المشلولة أن تقفَ على قدميها وتمشي وتسبق غيرها من الدول). وفي الغرب يُنظر للمعاقين بأنَّهم عنصرٌ فعال وعامل في مجتمعاتهم، ويسهل لهم إيجاد الأعمال المناسبة بمرتباتٍ تعادل نظراءهم من غير المعاقين في كثير من الأحيان، وفيهم الأطباء والمحامون والمهندسون والمدرسون والمتخصصون في كلّ مجالات الحياة.

ومِن حقوق المعاقين كذلك تيسير وتسهيل حركتهم اليومية ليعيشوا حياة طبيعية. وتجد هذه التسهيلات واضحةً في كلّ ميادين الحياة والتي تبدأ من أول خطوة يخطونها خارجَ بيوتهم وحتى عودتهم. ففي كلّ مكان يذهبون إليه هناك وسيلة تُعينهم على التحرك بسهولة، وبدون عونٍ من الآخرين، سواء في المصالح الحكومية أو الأسواق أو المدارس والجامعات والمطارات.. إلخ، بل ولهم الأولوية في كثيرٍ من الأمور مثل تخصيص مواقف سياراتهم بجانب المدخل الرئيسي ومداخل خاصَّة بهم لا يزاحمهم فيها أحد. وكلُّ المباني تتوفر فيها شروط ضمان حقوق المعاقين. ولا تقف حقوقُ المعاقين عند هذا الحدّ، بل يشترط وضع اللافتات الرَّئيسية في الأماكن العامة بالحروف التي يستطيع الضريرُ أن يقرأها باستعمال يديه. ويخصص عددٌ معيَّن من البرامج التلفزيونية والأخبار بلغة الإشارة لفاقدي السَّمع، والأمثلة كثيرة لا يسعُنا حصرها..

أمَّا في مجتمعاتنا العربية، فإنني أترك المجالَ للقارئ الكريم لكي يغمض عينيه ويسبحَ بخياله وينظرَ حوله ويسأل نفسه. وحدّثْ ولا حرج أن الذي يفرض على المجتمع الغربي،

وخاصَّةً أمريكا، أن لا تتنازل في هذه الأمور، وأن تتمسك بها تمسُّكها بدستورها الذي تعيشُ وتموت من أجله هو مبدأ المساواة من النظرة الإنسانية. وإنَّني لا أسأل أين هي إنسانيتُنا في تعاملاتنا مع المعاقين، وإنما أسأل: أينَ هي ربَّانيتنا.. خاصَّةً ونحن قوم ربانيون نراقب الله في تعاملاتنا؟! ولو تخيل كلّ منَّا نفسه مكانَ هذا المعاق ثمَّ سألها كيف تحبُّ أن تعامَل لو انقلبت الآية، لأعاد النظر بدون شكٍّ في حقوق المعاقين، وكما قال ﷺ: (هَل تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ) (136)

وما ندري لعلَّ مَن نحسبه من الضعفاء والمعاقين مَن ينفع اللهُ الأمة به أكثر بمئات المرَّات ممَّن يُنظر إليهم بأنَّهم أصحاء أقوياء وهُم العالة حقًّا على مجتمعاتهم وعلى أمتهم.

---

(136) صحيح البخاري، برقم 2896.

دعوةٌ للأثْريـاء

في الرابع من فبراير لعام 1998م قام ألفرد مان (Alfred E. Mann) بالتبرع بمبلغ مائة مليون دولار لجامعة جنوب كاليفورنيا، ومائة مليون دولار أخرى لجامعة كاليفورنيا في مدينة لوس أنجلوس؛ من أجل إنشاء معهد دراسات للكيمياء الحيوية.

وتقديم تبرعٍ بهذا القدر حينها ليسَ بالشيء العادي، وإنْ كان والتر انينبرغ (Annenberg) اليهودي الأصلُ قد تبرع عام 1993م بمبلغ 120 مليون دولار لجامعة بنسلفانيا، و120 مليون دولار لجامعة جنوب كاليفورنيا. وتؤكِّد الجامعات والمؤسساتُ العامة (الحكومية) الأمريكية على أنها في حاجةٍ إلى مثل هذه التبرعات لتعويض نقص الدعم الحكومي لها.

و(مان) هو مؤسسُ ورئيس لشركتين في مجال التقنية الطبية: إحداهما شركة (Minimed) التي تُعد أكبرَ شركة لتصنيع مضخات الأنسولين لمرضى السكر.

وعندَ سؤال (مان) البالغ من العمر 72 عامًا عن سبب تقديم هذه التبرعات قال : (لقد حان الوقتُ لأقدم لمجتمعي شيئًا).

وقرَّر أن ينفق معظمَ ثروته في دعم الجامعات والمؤسسات التعليمية بدلًا من أن يتركها لأبنائه الستة، وعلَّل ذلك بقوله: (لا أريدهم أن يملكوا من المال ما يقعدهم عن العمل ويدعوهم للركون والراحة).

ويوضِّح (مان) أنَّ قدوته في هذه التبرعات هو والتر انينبرغ والذي أنشأ مؤسسته التعليمية الخيرية عام 1981م في جامعة (MIT) لتمويل دراسات الكيمياء الحيوية والذي واجه في ذلك الوقت معارضةً من الجامعة، خوفًا من أن تفقد الجامعة سيطرتَها

على تعيين الأساتذة ونوعية الدراسات والأبحاث، وهذا ما دعا أحدُ الأثرياء إلى أن يقول (إنهم يجعلون التبرع بمائة مليون أصعب من كسبه)، ولكن العلاقة بين رجال الأعمال والجامعات قد تطورت بشكلٍ كبير منذ منتصف الثمانينيّات، ووضعت القوانين والنظم واللجان التي تسهل وتشجع أكبر قدرٍ من الأثرياء أنْ يشاركوا في دعم التقدم الحضاري والتعليمي في أمريكا. وما تشهده أمريكا من تقدم يعود جزءٌ كبير منه إلى هذا الدعم.

إنَّ في مجتمعنا مَن يقدمون أكثر من هذا، وإن كانوا لا يكرمون بما تقتضيه حاجة المجتمع ليصبحوا قدوة، ويصبح عملهم سنة بين الأغنياء والأثرياء.

وإنَّني أدرك حين أقول هذا، أنَّ التكريم والجزاء هو مِن عند الله، ولكني أدرك كذلك أنَّ استفادة المجتمع بتكريم مثل هؤلاء هي أكبرُ من استفادتهم هم بذلك، حيث إنَّ التكريم يساعد في إحياء هذه السنة بين الأغنياء والأثرياء، وهذه طبيعة البشر، ولا نستطيع أن نجردَ الناس من بشريتهم، وقد كرَّم رسولُ الله ﷺ صحابته بكلمات خُلدت، وبثَّت فيهم روحَ التنافس في الإنفاق في سبيل الله وأبواب الخير.

إنَّني أوجه دعوةً مفتوحة لمَن تفضَّل اللهُ عليهم ليكونوا أغنياء قومهم، والذين استأمنهم على أموال مجتمعاتهم؛ أن ينظروا في أمرهم هل يتركون أموالهم لورثة لا يعلمون صلاحهم من طلاحهم، ويخرجون من الدنيا فقراء؟ أو يشترون ببعض مالهم لأنفسهم مكانًا في الجنة؟!

أوَهكذا نُكَرّم علماءنا؟

إذا أردتَ أن تعرف قدرَ الأمم فَسَلْ عن علمائها، فما من شيء على الأرض يرفع قدرَ الإنسان والمجتمعات والشعوب والأمم مثل العلم، وهذه سنةٌ من سنن الله في الأرض اقتضاها ربنا، فثلَّثَ بأهل العلم بعد أن بدأ سبحانه وتعالى بنفسه وثنّى بملائكته، فقال عزَّ وجل ﴿شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ (149) وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (148) وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ (147) وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء﴾ (146) ومن تكريم الله لأهل العلم أنه يجري على أيديهم ما لا يُجري على أيدي غيرهم باقتِدارِهِمْ لقوة العلم، قال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ (145).

وهل هناك مكانة على الأرض أعلى من تلك، وإرثٌ خيرٌ من هذا، وقد قال ﷺ: (يستغفر للعالِم ما في السماوات والأرض) (144) وقال ابن عباس رضي الله عنهما: (للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمائة درجة ما بين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام) (143).

وقال ﷺ: (لموتُ قبيلة أيسرُ من موت عالم) (142) والقبيلة في ذلك العصر قد تعادلها مدينةٌ في عصرنا، وقال: (فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي) (141) تفضيلًا للعلم ووضعه في مرتبة فوق العبادة.

وقال علي رضي الله عنه: (العالم أفضل من الصائم القائم

المجاهد، وإذا مات العالم ثلمَ في الإسلام ثلمة لا يسدها إلَّا خلف منه) (140).

ولو كانت هناك نقطةُ تفاضل فوق العلم لاتَّخذها الله ليفاضل آدم عليه السلام على ملائكة السماء ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ (139)، ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ (138).

وقال ﷺ: (إنَّ الله عزّ وجلّ لا ينتزع العلم انتزاعًا من الناس بعد أن يؤتيهم إياه، ولكن يذهب بذهاب العلماء، فكلما ذهب عالمٌ ذهب بما معه من العلم، حتَّى إذا لم يبقَ إلَّا رؤساء إنْ سئلوا أفتوا بغير علم فيضلون ويضلون) (137).

والأمةُ التي تتفاضلُ بغير العلم هي أمةٌ قد حكمت على نفسها أن تبقى في مؤخرة الركب.

والأمةُ التي لا تكرّم علماءها في حياتهم وبعدَ مماتهم هي أمةٌ قد حكمت على نفسها أن تُذَلَّ بجهلها.

---

(149) سورة آل عمران، من الآية 18.

(148) سورة المجادلة، من الآية 11.

(147) سورة الزمر، من الآية 9.

(146) سورة فاطر، من الآية 28.

(145) سورة النمل، من الآية 40.

(144) رواه أبو الدرداء، سنن ابن ماجة، صححه الألباني.

(143) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، ج 1، ص 5.

(142) اخرجه الطبراني وابن عبد البر من حديث ابي الدرداء.

(141) اخرجه الترمذي من حديث ابي امامة وقال حسن صحيح

(140) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، ج 1، ص 7.

(139) سورة البقرة، من الآية 33.

(138) سورة البقرة، من الآية 34.

(137) متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو.

الأغنياءُ أوّلًا

مضتْ سنةُ الله في عباده أن يبتليهم. واللهُ يبتلي بكثرة العطاء كما يبتلي بالنقص، وكذلك الحالُ بالنسبة للمجتمعات ككل، يبتليها اللهُ بسنوات من الرخاء وسنواتٍ من الشدة. ومِن المجتمعات مَن ينجح في الابتلاءين فيشكر حينَ العطاء ويصبر حين الشدة، فيصير أمرُ المجتمع كلُّه إلى خير.

حقيقةُ الأمر أنَّ سنوات الشدةِ والضيق قد تصبح فرصةً لبناء جسور المحبة وتوطيدِ أواصر الإخوة والتكافل بين أفراد المجتمع الإسلامي، ففيها تختبر معادنُ الرجال ويشتدُّ التنافس لنيْل مرتبة البر: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (150) والمجتمعُ الإسلامي الحق إذا اشتكى فردٌ من أفراده أو عضوٌ من أعضائه تداعى له سائرُ المجتمع بالسهر والحمى.

وفي فتراتِ الضيق يصبح أفرادُ المجتمع أكثر إدراكًا واستشعارًا لنعم الله على عباده، فيعمل الابتلاءُ بالتضييق والنقص على تبديد التبلُّد في الإحساس، الذي يطرأ على النفسِ نتيجة تكاثر النعم ليصبح لأبسط النعم طعمٌ جديد.

ومِن البديهي أنْ يبدأ المجتمعُ بالاقتصاد في كلّ أمره، وما يسمى (بشد الحزام)..

ولكي ينجح المجتمعُ في اجتياز مرحلة المحنة فلا بدَّ أن يكون الأغنياء قدوة لباقي أفرادِ المجتمع بالمشاركة المادية والمشاركة المعنوية والوجدانية. أما إذا اقتصرَ الأمرُ على متوسّطي ومحدودي الدخل والفقراء، فأصبح متوسطُ الدخل محدودَ الدخل، وأصبح محدودُ الدخل محتاجًا، وأصبح المحتاج فقيرًا، وازداد الفقير فقرًا على فقره دون أن يشاركهم الأغنياءُ في محنتهم؛ ففي هذا إيغارٌ لصدور المحتاجين وتوسيع الفجوة بين طبقات المجتمع الإسلامي.

وقد يؤدي ذلك إلى عواقب وخيمة ويفشل المجتمعُ قاطبة في ابتلاء الله واختباره، والتاريخ مليء بقصص مجتمعات فسقَ فيها مترفوها فحقَّ عليها أمرُ الله فأهلكها ودمَّرها تدميرًا.

ولنا في أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأرضاه خيرُ قدوة، فعندما مرتْ بالمدينة ضائقة في عهده حرَّم على نفسه أكل اللحم حتَّى يأكله جميعُ أهل المدينة.

وبمثل هذه القدوة يهون على الفقير فقرُه، وعلى المحتاج حاجتُه، عندما يرى مشاركةَ الميسورين والأغنياء له ماديًّا ووجدانيًّا بمحض اختيارهم وإرادتهم، وبمثل هذا ينجح المجتمعُ في الابتلاء، ويخرج أقوى ممَّا كان عليه.

وما فعله سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو أسمى صور المشاركة، وهي صورةٌ لا نتوقَّعها ولا نطلبها من الناس، ولكننا نتعشَّم ونتوقع أن يعتدل الأغنياءُ في صرفهم، وأن يبتعدوا عن الإسراف والتبذير والترف في جميع الأوقات، وفي أوقات الضيق خاصة؛ امتثالًا لأمر الله تعالى واتباعًا لسنة رسوله ﷺ، ومشاركة لإخوانهم في المجتمع الإسلامي الذين يؤثر عليهم الضيق الاقتصادي أكثر من غيرهم.

---

(150) سورة آل عمران، من الآية 92.

الذَّكاءُ العاطفي (1)

ظهرتْ في الآونة الأخيرة دراساتٌ وكتب تتحدثُ عن نوع من الذكاء أطلق عليه الذّكاء العاطفي (Emotional Intelligence) ويعتقد بأنه أهمُّ بكثير من الذكاء المتعارف عليه الذي يحدِّده اختبار الذكاء (I.Q)، بل ويعتقد أنَّ الذكاء العاطفي يُسهم بأكثر من80 % في تحديد احتمالية نجاح الشخص أو فشله في الحياة العملية، في حين أنَّ الذكاء التقليدي (I.Q) يُسهم بعشرين في المائة فقط.

وقد يكون كتابُ (الذكاء العاطفي) للدكتور دانيل غولمن (Daniel Goleman) من أهمِّ وأوائل المراجع في هذا الموضوع.

فما هو الذكاءُ العاطفي؟

يُمكن تعريفُ هذا النوع من الذكاء بقدراتٍ خمس مختلفة:

1. قدرةُ الشخص على معرفةِ وفهْم مشاعره الخاصة:

إنَّ قدرة الشخص على مراقبة مشاعره النفسية أثناءَ حدوثها وإدراكه أسبابها وفهمه لأبعادها في سكونها وتقلباتها؛ هو من أهمِّ أسباب بناء الذكاء العاطفي.

وعندما يعجز الإنسانُ عن فهم هذه المشاعر فإنَّه يصبح ضحية ورهينة لها يرضخُ تحتَ رحمتها فتسيِّره تقلبات الظروف المحيطة به.

أمَّا الأشخاص الأكثرُ تفهمًا لما يشعرون وتيقُّنًا بصحة فهمهم وإدراكهم لمشاعرهم، فهُم أكثرُ قدرة على إدارة دفَّة حياتهم وأكثر ثقة في قراراتهم الخاصة.

2. المقدرةُ على السيطرة والتَّحكم في المشاعر النفسية:

ولا تتحققُ هذه القدرة إلَّا بتحققِ القدرة الأولى، والأشخاص العاجزون عن تحقيق السيطرة على المشاعر هُم دومًا في حرب نفسية وتحتَ ضغوط عصبية.

أمَّا الأشخاص الأكثرُ قدرة على التحكم في مشاعرهم فإنهم أكثرُ قدرة على النهوض بعدَ السقوط ومعاودة المحاولة عند الفشل والتغلب على المحبطات والنكسات والشروع في العمل من جديد بروح متفائلة طموحة ونظرة مشرقة للحياة.

3. القدرةُ على حفْز النفس على العمل:

القدرةُ على حفز النفس والعواطف والمشاعر على العمل لتحقيق الأهداف والتحكم في النَّزوات والشهوات وتقديم العمل وتأخير الراحة هي من أهمِّ عوامل النجاح، والقدرة على الاندماج في العمل والذوبان فيه بكلِّ العواطف والمشاعر، هي مِن أهمِّ عوامل الإبداع.

4. القدرةُ على ملاحظةِ وفهم وإدراك العواطف والمشاعر الإنسانية لدى الآخرين:

القدرةُ على العطف، والتعاطف هي من أهمِّ عوامل النجاح في العلاقات الإنسانية، والأشخاصُ ذوو القدرة العالية في هذا المجال قادرون على التقاط وملاحظة التغييرات الاجتماعية البسيطة فيمَن حولهم، وفهْم احتياجاتهم النفسية، وهُم بذلك أفضلُ من غيرهم في أعمالٍ كثيرة تتطلب التعامل مع البشر (وهل هناك من أعمالٍ لا تتطلب التعامل مع البشر).

5. القدرةُ على التعامل معَ العلاقات الشخصية والتحكم فيها:

وهذه القدرةُ هي أحدُ العوامل الأساسية للنجاح في الحياة، وجزءٌ كبير منها يكمن في القدرة على التحكم في مشاعر الآخرين

(فهم مشاعر الآخرين والتعامل معها).

وهذه القدرة هي التي تحددُ مدى شعبية الشخص وتقبل الناس له وقدرته على الرئاسة والقيادة. والممتلكون لهذه القدرة هُم ناجحون في كلّ ما يعتمد على التعامل معَ البشر بيُسر وسهولة، فهُم نجومٌ في هذا المجال.

والخطيرُ في الأمر أنَّ كثيرًا من الآباء والأمهات لا يدركون ولا يعلمون أن القدراتِ الخمسَ السابق ذكرها تتكوَّن في السنوات الأولى من حياة الطفل، وما فقدَ منها يصعب استدراكُه، وعلى مدى نجاح الآباء في تربيتهم الأبناء يكون ذكاؤهم العاطفي.

الذَّكاءُ العاطفي (2)

إنَّ هناك نقطةً مهمَّة وخطيرة للغاية وهي أنَّ كثيرين من الآباء والأمهات لا يدركون أنَّ الذكاء العاطفي يتشكل ويتكوَّن في السنوات الأولى من حياة الطفل، وعلى مدى نجاح الآباء في بناءِ هذا النوع من الذكاء عند الطفل، يكون احتمالُ نجاحه في الحياة، فالدماغ يستمرُّ في النمو بعد ولادة الطفل ويبلغ ذروته في السنواتِ الأولى من حياة الطفل، ويقوم المناخ المحيط بالطفل بحفز الخلايا العصبية في الدماغ على العمل خلال السنوات الأولى من العمر. وبذلك يحدد قدرة الشخص المستقبلية لتلقي المعلومات وتحليلها والتعامل معها.

وعلى حسبِ نوعية البيئة المحيطة والتفاعلات التي يعيشها الطفل تنشط أجزاء معينةٌ من الدماغ، وتقوى فيها الإشاراتُ والاتصالات العصبية. فينمو ذلك الجزءُ من الدماغ. أمَّا في حالة عدمِ وجود المناخ الصحي المناسب فإنَّ أجزاء من الدماغ تضمرُ وتموت خلاياها، وغالبًا ما يحدث هذا للأطفال الذين يعيشون السنوات الأولى من عمرهم في عزلةٍ أو مناخ غيرِ صحي وغير ملائم لنموهم العقلي السليم بسبب جهل المحيط العائلي أو المجتمع ككل.

والأهمُّ من ذلك أنَّ الدماغ لا يحتفظ ويخزن المعلومات فقط، أو يحدد قدرة الطفل المستقبلية على التحليل العقلي فحسب، بل ويخزنُ كذلك جميعَ العواطف والأحاسيس التي تكوّن القدرةَ على التفاعل والتعامل معها والتحكم فيها في جزء من الدماغ يسمى أميجدلا (Amygdala)

وتشير الدراساتُ العلمية إلى أن مجموعة التفاعلات والمشاعر التي يعايشها الطفل في أيامه الأولى وسنواته الأولى تؤسِّس وتؤصل

لديه مجموعةَ دروس عاطفية تبقى مدى حياته كمرجعيةٍ قوية وثابتة وراسخة للتعامل مع محيطه والبشر من حوله، وعلى الرَّغم من أهميتها وقوة تأثيرها ومدى تأصلها، إلَّا أنه من الصعب على صاحبها أن يفهمَها أو يحللها إذ إنّها قد خزنت في الدماغ في مرحلة مبكرة مِن العمر بطريقةٍ بدائية، عندما كان لا يستطيع الكلامَ أو التحليل. ولذلك عندما تستثارُ هذه العواطف يكون أوَّل تصرفٍ يقوم به الشخص هو تعبير وانعكاس لهذه العواطف الدفينة التي تذهل الشخصَ نفسه بعد حدوثها والانتهاء من رد الفعل التلقائي السريع. وهذا ما يسمَّى في علم النفس (اختطاف العقل) (Brain Hijack).

وقد كان الدكتور جوزف ليدوكس Joseph Le Doux عالم الأعصاب من جامعة نيويورك من أوائل مَن اكتشفوا الدور المهم الذي تقوم به (الأميجدلا) في تكوين تصرفات العقل، وبيَّن أنَّ هذه الغدة تستطيع السيطرة على أفعالنا في الوقت الذي لا يزال العقلُ الواعي يفكر لاتخاذ القرار، وذلك لأن الإشارات العصبية تنتقل مِن هذه الغدة أولًا وبسرعة قبلَ أن تذهب للدماغ الواعي (Neocortex) مما يُعطيها فرصة الاستجابة السريعة قبل العقل الواعي (الذي يقوم بتحليل التصرفات بطريقة عقلانية مدروسة ملائمة للإشارة والحدث).

وبذلك تستطيع هذه الغدة التصرفَ بانفرادية عن العقل الواعي، فهناك ردود فعلٍ عاطفية تنطلق من الشخصِ دون أن يكون للعقل الواعي أي دور فيها.

وقد وجد أنَّ هذه الغدة تنمو سريعًا في مراحل تكوين دماغ الجنين حتَّى أنها تكاد تكونُ كاملة عند الولادة بخلاف باقي الدماغ، وعملها أشبه ما يكون بالكاميرا أو الفيديو التي تسجل كلّ ما تقع عليه العين وتخزنه ليشكل المرجعية النفسية لطفل اليوم

ورجل الغد أو امرأة الغد، ولذلك فإنَّ عالم النفس يقول أعطني الخمس الأولى من حياة الطفل أعطكَ رجلًا؛ أي أنَّ الذي يحدد شخصيتنا وقدراتنا هو ما نعايشه في سنوات حياتنا الأولى.

إنَّ المجتمعات التي لم تحظَ بنصيب كاف من العلم ينظر فيها إلى الطفل نظرة الجاهل الذي لا يدرك ولا يفقه. علمًا بأن الطفل يفهم آلافَ الكلمات قبل أن يصل إلى الخامسة من عمره. وإنْ كان لا يستطيع استعمال جزءٍ بسيط منها. وأكثر الناس تأثيرًا على الطفل هُم والداه، فهمَا مرآته ونافذته على الدنيا، فإن فتحَا له نافذةً مشرقة أشرقت الدنيا في قلبه، وإنْ أغلقا عليه نوافذها لم برَ من الدنيا إلَّا جدرًا وظلمة تستمرُّ طوال حياته، وتشكِّل لديه أسس التعامل المستقبلية وذكاءه العاطفي.

وعلينا أن نسأل أنفسنا كلّ يوم: كيف يقضي أبناؤنا السبع سنوات الأولى من أعمارهم؟ وماذا يُخزن ويسجَّل في أدمغتهم لتكون لديهم هذه المرجعية النفسية القوية والثابتة والراسخة التي تؤثر على نفسياتهم وطريقة تعاملهم مع البشر والكون من حولهم طوال حياتهم؟

إنَّني أكاد أجزم بالنسبة للأغلبية العظمى من أبنائنا أن ما يسجله الطفل نتيجة ما تقع عليه عيناه من خلال قنوات التلفاز ووسائل الإعلام المرئية بشتى أنواعها لَيفوق ما يُسجله الطفل ويخزنه من خلال أي تعاملات أو مواقف إنسانية أخرى في السنوات السبع الأولى من حياته.

وقد يوافقني القارئ الكريم بأن معظم البرامج التلفزيونية الموجهة للأطفال هي برامج غربية تعكس أحوالَ مجتمعات تختلف عنَّا كثيرًا في المبادئ والأهداف والغايات.

وهناك محاولاتٌ لإيجاد البديل، ولكننا في أول الطريق

والبديل المكافئ في الجودة والأداء والقدرة على جذب الأطفال مازال محدودًا، والحَكَم في ذلك هو الطفل.

إنَّنا نعيش أخطرَ حقبة في تاريخ أمتنا الإسلامية فأملنا هو الجيل القادم، وأن يبدأ بناءُ جيل الغد في السبع الأولى.

وكما علَّمنا رسولُ الله ﷺ بأنَّ كلّ طفل يولد على الفطرة فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه. وإنني لأسأل حقًّا: لَمَن أُعطيت السبع الأولى من حياة أطفالنا؟!

ومَن هُم المربُّون الحقيقيّون لجيل الغد؟

أيُّها الآباء: إنَّ أطفالكم أمانةٌ في أعناقكم، وهُم أرضٌ خصبة بين أيديكم، وما تزرعون اليوم تحصدونَ أنتم ومجتمعاتكم في الغد، وإنكم لمحاسَبون بما تزرعون.

كيف تُبنى الأمم؟

قرأت منذُ فترة قصةً واقعية أحببت أن تشاركوني إياها لمَا فيها من عبرةٍ نحن أحوجُ ما نكون إليها على مستوى الأفراد والمجتمعات.

في شهر ديسمبر لعام 1914م دمَّرَ حريقٌ كبير معملَ العالم والمخترع توماس إديسون. وبالرغم من أنَّ الخسارة تجاوزت مليوني دولار، إلَّا أن البناية بأكملها لم تكنْ مؤمَّنة بأكثر من 382 ألف دولار فقط، وذلك لأنها كانت مبنية من الحجارة والأسمنت القوي، فظنَّ أصحابها أنها لا تحترق بسهولة. ولكن في ليلة واحدة من شهر ديسمبر من ذلك العام احترق معظمُ أبحاث ودراسات وأعمال إديسون التي أمضى عمره في تحقيقها.

وفي أوْج الحريق، وعندما وصل إلى مرحلة لا يُمكن إيقافه، وصل ابن إديسون (اسمُه تشارلز) إلى موقع الحريق فأصابه الجزع وأخذه الرعبُ عندما رأى الحريق، فراح يبحث عن أبيه بينَ الأنقاض والدخان، ووجده أخيرًا جالسًا ينظر بهدوءٍ وسكينة إلى هذا المنظر المهول، ووجهُه يضيء نتيجة انعكاس الضوء الصَّادر من الحريق وقميصه الأبيض يتطاير مع الرياح.

يقول تشارلز وهو يصف حاله عندما رأى أباه على هذه الحالة: (لقد تفطر قلبي لرؤيته، فهو لم يعدْ شابًّا وقد جاوز السابعة والستين من عمره، وها هو يجلس ناظرًا إلى حصيلة عمره تحترق أمامَ عينيه، ولكنه عندما رآني سألني: أين والدتك يا تشارلز؟ وعندما أخبرته أنَّي لا أدري، قال لي: اذهب وابحثْ عنها وائت بها سريعًا فإنها لن ترى أيَّ شيء مثل هذا في حياتها).

وفي اليوم التالي، وقف إديسون على أنقاض الحريق وقال: (إنَّ هناك قيمة عظيمة في هذه المصيبة، فجميعُ أخطائي قد احترقت،

وبفضلِ الله وعونه أستطيعُ أن أبدأ اليوم بداية جديدة).

بعدَ ثلاثة أسابيع فقط من الحادث نجح إديسون البالغ من العمر سبعة وستين عامًا أنْ يصنع وينتج أولَ مسجِّل صوتي، وتلته اكتشافاتٌ واختراعات عديدة انتفعت بها البشرية قاطبة.

نعم.. إنَّ هناك فوائد عظيمة نستطيع أن نتعلمها من الحوادث المؤلمة والكوارث والنكبات والنكسات بجميع صورها على مستوى الأفراد والمجتمعات، إذا توفرت لدينا العقلية والنفسية اللازمة لذلك.

فالابتلاءاتُ من سنن الله في الأرض على عباده، وعندما تضيق الأمور وتتبدل الأحوال، وينظر البعضُ إلى ما يحدث حولهم من دمار وضياع للثروات والمدخرات فيشعرون بالحزن والإحباط، وآخرون يشعرون بالغيظ والغضب والاختناق، وآخرون لا يبدِّدون طاقاتهم في الحزن أو الإحباط أو الغضب أو الاختناق، وإنما يعملون في جميع الحالات، فهُم يعلمون أن الثروات لا تصنع الرجال، وإنَّما بالرجال تصنع الثروات، وتنهض المجتمعات وتسود الأمم (ولئن تضيء شمعة واحدة خيرٌ لك من أن تلعن الظلام).

استعنْ بالله ولا تعجز.

ماريا مونتيسوري.. وصناعةُ الطِّفل

قدْ لا يعرف الكثيرون في عالمنا العربي مَن هي ماريا مونتيسوري (Maria Montessori) .. إنَّها من الأعلام في مجال تعليم الطفل حول العالم، وإليكم قصةَ حياتها باختصار شديد:

ولدتْ هذه السيدة في أغسطس عام 1870م في إحدى قرى إيطاليا، وعرف عنها في طفولتها الحبُّ الشديد لخدمة الآخرين، ونفعهم وإعانة الضعفاء والفقراء، كما عُرف عنها قوةُ شخصيتها وإصرارُها على تحقيق ما تعتقد بصحته.

وعندما أنهتْ دراستها الثانوية قررتْ دخول الكلية الطبية، وكان هذا شيئًا لم يسمع أو يُسمَح به من قبل؛ فالدراسة الطبية كانت محظورةً آنذاك على النساء، وبالطبع رُفض طلبُ ماريا للالتحاق بالكلية الطبية، لكنها لم تستسلمْ وحاربت من أجل قضيتها حتَّى أنها ذهبتْ إلى أعلى سلطة دينية في أوروبا (البابا في روما) وحاورته وجادلتْه حتَّى أقنعته، ولا يدري أحدٌ حتَّى يومنا هذا ماذا قالت بالتحديد، لكنَّها أصبحت أولَ امرأة في إيطاليا تقبل في كلية الطب لتتخرج عام 1896م كأول طبيبة في إيطاليا.

عملتِ الدكتورة مونتيسوري في إحدى مستشفيات روما، وكانت إحدى مهامّ عملها علاجَ الأطفال المتخلفين عقليًّا، وهنا ظهرت ملكاتها وموهبتها في التعليم، حيث اعتمدتْ على وسائل توضيحية لتحفيز جميع حواس الطفل وإعانته على التعلم، كما زرعتْ فيه احترامَ الذات والثقة بالنفس وحب العلم، ولقد ذاع صيتها في أنحاء روما، خاصَّة عندما سمحت لطلبتها بدخول نفس الاختبار المقرَّر على الأطفال الأصحَّاء في المدارس الأخرى، فكانت النتائج مذهلة حيث حقق طلبتها (المتخلفون) نتائجَ أفضل من طلبة المدارس الأخرى الأصحاء، وعُدَّ ما قامت به الدكتورة

مونتيسوري معجزة، ومنذُ ذلك اليوم تغيَّرت النظرة للأطفال المتخلفين في إيطاليا.

وقد سنحتْ لها الفرصة أن تُطبق منهجها على طلبة أصحاء في أحد الأحياء الفقيرة، وكانت النتائج أيضًا مذهلة، وأصبحت مدرستها أنموذجًا يُحتذى به، ويتنافس أولياءُ الأمور على إدخال أولادهم فيها، وبدأت رحلتها حول العالم تكتب وتحاضر وتدرس وتفتح المدارس للأطفال على نفس المنهاج.

وفي عام 1920م أعجب الديكتاتور الإيطالي موسوليني بقدراتها وملكاتها في التعليم والمنهاج المتَّبع في مدارسها فأقرَّها سفيرةً للطفل (Ambassador of Children)، ولكن سرعان ما غضب عليها الطاغية موسوليني لرفضها قبول تعليماته وتحويل الأطفال إلى جنود يخدمون أهدافه الفاشية وتطلعاته الاستعمارية، فأغلقتْ مدارسُها في إيطاليا وألمانيا وأحرقت كتبُها في الشوارع، وغادرت إلى أسبانيا، ثمَّ إلى الهند، واستمرَّت كسفيرة للطفل حول العالم تفتح المدارس أينما ذهبت.

وبعدَ انتهاء الحرب العالمية الثانية، عادت إلى أوروبا، وعندما أصبحت في الواحد والثمانين من عمرها أقيم لها احتفالٌ كبير في لندن، وأرسلت 27 دولة سفراءها تقديرًا لهذه الطبيبة وإشادة بإنجازاتها. وبعدَ الاستماع إليها تحدثت الدكتورة مونتيسوري فوبَّخت الذين يشيدون بها وبإنجازاتها، وأخبرتهم بأنَّ عبارات الثناء التي انهالوا بها عليها ليست من حقِّها، وإنَّما من حقِّ الطفل فهو الذي يصنع المعجزات.

وقالت: (ما أنا إلَّا أصبع يشير لكم إلى الطفل، فلا تنظروا للأصبع الذي يشير وإنما إلى المُشار إليه (الطفل)، إننا إذا أردنا أن نعينَ الحياة فعلينا أن ندرك قوانينها، وأهمُّ قوانينها هو أن

ننظر إلى الطفل كمخلوق مميزٍ عملُه الرئيسي هو بناءُ الرجل الذي سيكون الرجل (أو المرأة) البالغ الذي يقف في كلّ يوم من أيام حياته ينظر للطفل الذي في داخله).

توفّيت الدكتورة مونتيسوري عن عمر يناهز 83 عامًا، واليوم هناك آلاف من المدارس تُطبِّق منهج مونتيسوري وتحملُ اسمها، وهناك مئات من المدارس التي تخرِّج مدرسين متخصصين للتعليم في هذه المدارس المميزة، وقد تخرج في هذه المدارس الملايين، ومنهم كثيرٌ من المبدعين والمخترعين والمبتكرين الذين أسهموا في بناء مجتمعاتهم في مختلف ميادين الحياة.

ومِن مبادئ هذه المدارس: احترام الطفل، واحترام الذات، وزرع الثقة بالنفس، وتشجيع التفكر والتأمل والبحث، والعمل على اكتشاف مواطن الإبداع والملكات في كلّ طفل لتشجيعها وتربيتها وتعهدها، واحترام تميز كلّ طفل واختلافه عن قرنائه.

وإنني عندما أقارنُ بين أسلوب التعليم في هذه المدارس والأسلوب المتبع في دولنا العربية يُصيبني إحباطٌ شديد، ويكفينا ما تطالعنا به صحفنا بين الحين والآخر من معلِّمة تدمي خدَّ طالبة، وأخرى تضرب طالبة ضربًا مبرحًا وتسحبها من أذنها أمام زميلاتها عندما فشلت في حلِّ إحدى المسائل الحسابية لتنتقل إلى المستشفى نتيجة ازدياد آلام الرأس وحجم الورم، وغيرها كثير. وحدِّث ولا حرج.

كيف نتوقعُ من أطفال اليوم رجال ونساء الغد إبداعًا، وقد حطمنا فيهم عوامل الإبداع؟!

إنَّني والله عندما أقرأ مثلَ هذه القصص أسائل نفسي: هل نحن مازلنا في العصر الحجري؟!

وبدأ التَّسارعُ في التَّمايز

هل الدنيا إلَّا رحلة قصيرة؟ وهل الإنسانُ فيها إلَّا عابر سبيل؟ وهل أحداثها وإن عظمتْ إلَّا أجزاءٌ من كتاب ملحمة الإنسانية؟ وهل الإنسان فيها وإنْ ظنَّ أنَّ شأنه قد تعاظم إلَّا حرفٌ من حروف كلماتها في جملة من جملها في صفحة من صفحات أجزائها؟ ولا بدَّ يومًا للملحمة أن تنتهي، وللكتاب أن يغلق ويرفع، وهل أعمالنا إلَّا تسطيرٌ لأقوالنا وتصديق لنوايانا؟ وهل أُمرنا بالهبوط إليها إلَّا للابتلاء والامتحان؟ ومازالت أجزاءُ الكتاب تتوالى الواحدُ تلو الآخر يقرؤها الإنسان في تاريخ من قبله، ومازال يقع فيما وقعَ فيه من قبله ليخطَّ بعمره حرفًا من حروف كتابها، ولا بدَّ للحرف من حروف تسانده وتكمله حتَّى تكون الكلمة، وإذا وجد الحرف بتوفيق الله ما يسانده من حروف، ووضع كلّ حرف في خيرِ مكان له ولدت كلمة جديدة لتسطر في جُملة من جمل كتاب الإنسانية، وولدت بذلك شجرة جديدة أصلها ثابتٌ وفرعها في السماء تؤتي أكلها كلّ حين بإذن ربها.

أمَّا فعلُ الأشرار فهو كحروفٍ اجتمعت ووضع كلّ حرف في شر مكان له لتتكون به كلمةٌ خبيثة لتولَد بذلك شجرة جديدة على وجه الأرض، ولكنها ليست كسابقتها، فهي شجرةٌ خبيثة لا قرارَ لها كما صوَّرها الخالق سبحانه في قوله ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّت مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ (151).

إنَّ أمتنا اليوم تبتلى كأمةٍ وكأفراد ليميز اللهُ الخبيث من الطيب، لتتمايز الحروف ويجتمع الطيبُ منها معَ الطيب لتكون الكلمة الطيبة والشجرة الطيبة، ويجتمع الخبيثُ منها مع الخبيث لتكون الكلمة الخبيثة والشجرة الخبيثة.

وهناك في سفينة مجتمعاتنا مَن لا ينفكُّ يُحدث الثقوب في بنيانها سعيًا وراء مصلحتِه الفردية، غيرَ مبالٍ بسفينة المجتمع وكلِّ مَن فيها، وإن كان في ذلك غرق السفينة مجتمعة!

وهناك مَن يدفع ويدافع ويأخذُ على يد المخربين وما يفتأ يعالج الثقوب محاولًا إنقاذ السفينة ومَن فيها، فنرى في أيامنا هذه مِن رؤوس الأموال من يبحث عن الاستثمار الأخلاقي.

إنَّ على الأثرياء في المرحلة القادمة، والتي قد تكون من أصعب المراحل التي ستمرُّ علينا أفرادًا وجماعات واجباتٍ وحقوقًا لمجتمعاتهم، ومن واجبهم الاهتمام والعمل على إحياء المشاريع الاستثمارية النافعة لأفراد المجتمع المسلم، ليس تفضُّلًا من الأثرياء؛ بل هو حقُّ مجتمعاتهم عليهم، والتي اكتسبوا أموالهم منها، وحق الله عليهم في عمارة أرضه بالخير (المال) الذي استخلفهم فيه، وإنهم إن وفقوا لفعل ذلك لنفعوا وانتفعوا قبل وبعد ذلك في الدنيا والآخرة.

إنَّ الحقبة القادمة من عمر أمتنا وعمر الأرض هي فصلٌ مهمٌّ من فصول كتاب ملحمةِ الإنسانية وتهيئة لفصوله النهائية، ولكلِّ نفس على وجه الأرض فرصةٌ واحدة يختار فيها أيَّ الحروف يريد أن يكون، ومع أيِّ الحروف يريد أن يرتبط ليخرج كلمة من كلمات هذا الكتاب، لتكون إمَّا شجرة طيبة تؤتي أكلها كلّ حين بإذن ربها، وتشهد لأصحابها يوم القيامة.. وإمَّا شجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار.

ودعاؤنا أن يجمعنا اللهُ مع خيرِ عباده فنكون من أهل الكلمات الطيبات، وأن يثبتنا اللهُ بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

(151) سورة إبراهيم: 26.

إدارةُ المُتغيرات

أغمضتُ عيني قليلًا، وعدتُ للوراء ألفَ عام، وتذكرت ماضيًا عريقًا مع العلم والعلماء في علوم كثيرة، وأنَّه كان لعلماء المسلمين في الطب نصيبُ الأسد، وإنجازاتُ أطباء المسلمين في تلك العصور لا ينكرها إلَّا جاهل أو حاقد.

فها هو ابنُ سينا شابٌّ لم يتجاوز السادسة عشرة من عمرة يُنهي كتاب (القانون في الطب) ليدرَّس هذا الكتاب في الغرب ما يزيد عن سبعة قرون من الزمن بعد وفاته، فتوجَّع قلبي وتألمتُ لحال تبدل وتغير ونحن أمةٌ بدأ وحي السماء يتنزل على نبيِّها خير الأنبياء ﷺ بكلمة (اقرأ)، وقد أصبحنا أقلَّ الشعوب قراءة، وأقلَّها تقديرًا للعلم والبحث والتأمل والتفكر، ولا أحتاج لإثبات لذلك؛ فالواقع برهان، وأهلُ العلم من بنى الإسلام في شتى العلوم النافعة يدركون ذلك ويتألمون لهذا الحال.

وبمقارنةٍ سريعة لعدد المؤتمرات والندوات العلمية في المجال الطبي (وفي باقي العلوم) التي تعقَد في عالمنا العربي والإسلامي بالتي تعقد في أمريكا يتضح الأمر.

بل إنَّ جامعة واحدة من جامعات أمريكا مثل هارفرد (وهناك آلاف الجامعات في أمريكا) تعقدُ سنويًّا ما يزيد عنْ مائة مؤتمر طبي، وتنشر أسماءُ المؤتمرات والدورات وتاريخها ومكانُ انعقادها في أولِ كلّ عام في نشرةٍ ترسل بالبريد لعشرات الآلاف من الأطباء في أمريكا وخارجها.

وإنَّني لأعجب كيف صرْنا إلى ما صرْنا إليه من حال، والعلم بالنسبة لنا أولوية بل ومِن أجلّ صورِ العبادة، خاصَّة في عصرنا هذا، وقد أصبح سلاح العصر، ومن أهمِّ عوامل التفاضل والسيادة بين الشعوب، بل وأعجب كيف يمكننا ونحن خير أمةٍ

أخرجت للناس وحملةُ آخرِ الرسالات السماوية أن نعمر الأرض بمنهاج ودستور السماء ونحن متأخرونَ في العلوم النافعة، ولا نستطيع أن نواكب التقدم العلمي.

إنَّ العالم الذي نعيش فيه يتغير بسرعة لم تشهدها الإنسانية من قبل، بل ويزداد التسارعُ يومًا بعد يوم؛ نظرًا لتغذية العلوم بعضها بعضًا، وسهولة تداول المعلومة ووجود الدوافع الاقتصادية والمادية للابتكار والاختراع والتغيير.

وكلُّ يوم يمرُّ علينا نتغير أوضاعُ الأرض، ويصعب على المتخلفين مواكبة ومجاراة وفهمُ ما يحدث من تغيُّرات ومتغيرات، دعْ عنك محاولة الإسهام ولو بشكلٍ جزئي في تحديد طبيعة وشكلية هذا التغيير وتسخيره لنفع البشرية وعمارة الأرض.

وإنَّني لا أنكر أنَّ هناك فئةً من رجال مجتمعاتنا تعمل ليلَ نهار لرفع المستوى العلمي للفرد والمجتمع، وتدرك مدى القصور وأهميةَ فهْم المتغيرات وأدوات التغيير، ولكنها فئةٌ قليلة تحتاج للعون والدعم والتشجيع.

الخوف (1)

كلّما سنحت لي فرصةُ الجلوس والتحدثِ مع أحدِ الزملاء الأطباء المتخصصين في علم النفس في العالم العربي سألتُ عن أكثر الأمراض النفسية انتشارًا في عالمنا العربي، ومدى انتشارها مقارنة بالشعوب الأخرى والإحصائيات العالمية.

وبعدَ فترة طويلة من البحث والسؤال والتأمل فيما قيل لي وما قرأت في هذا المجال وما تيسَّر لي من علاج أو مقابلة لمرضى من العالم العربي في بوسطن حيث أعمل؛ ترسَّخ اعتقادي في أنَّ الأمراض النفسية أصبحت واسعة الانتشار في عالمنا العربي، خاصَّة الأمراض التي يكون عاملُ الخوف أحدَ الأسباب المساعدة لحدوثها، وإنْ كانت الإحصائيات الرسمية المعلنة لا تعكس ذلك، ولعلَّ أسباب ذلك واضحة للقارئ الكريم.

ويوافقني كثيرٌ من أطباء علم النفس العرب من أنَّ ظاهرة الخوف أصبحت سمةً من سماتِ المجتمع العربي، ولذلك أسبابٌ عديدة أحدها وجودُ أخطاء في التربية الأولى نتيجة جهل المربين، حيث يخطئ كثيرٌ من الآباء والأمهات بتخويف الطفل من كلّ شيء ظنًّا منهم أنَّ في ذلك حمايةً للطفل من الوقوع في المخاطر، وقد تكون هذه أسهلَ طريقة للتعامل مع طفل ذكي نشيط يريد اكتشاف كلّ ما يدور حوله، ولكنها أسوأ طريقةٍ للتربية، فقد تؤدي إلى زرع خوفٍ غيرِ مبرر ومبالغ فيه في أعماق الطفل، ويبقى هذا الخوفُ متأصلًا في نفسيته وعقليته طوال حياته ويحوِّله من إنسانٍ جريء شَغوف بالبحث والمعرفة إلى إنسانٍ خامل عديم المبادرة يخافُ أن يبحث، أو أن يجرِّب أيَّ جديد، أو أن يبدع أو يخترع أو يكتشف.

وقدْ يكون الخوفُ نتيجة وقوع حادثٍ أو موقف صعب في

حياة الطفل ولم يعالج نفسيًّا بصورةٍ صحية، ولم يتعامل معه بحكمة وعلم ودراية من قِبَل المربي أو الوالدين.

وقد أشارَ إليّ زملائي الأطباء المتخصصون في علم النفس أنَّ بعض الأمراض النفسية تكون أكثرَ انتشارًا في الشعوب التي ترضخ تحت الظلم والتعسف والاضطهاد والاستبداد، ممَّا يخلق في نفس الفرد خوفًا مبررًا أو غيرَ مبرر، إلى أن يصلَ إلى الحدِّ الذي يخاف فيه الأخُ من أخيه والابنُ من أبيه، بل ويخاف كلٌّ مِن ظله، وفي هذا المناخ يصبح الفردُ أكثر عرضة للإصابة ببعض الأمراض النفسية، وقد وجد أنَّ انتشار هذه الأمراض ومدى حدَّتها يزداد طرديًّا مع انتشار الظلم والتعسف والاستبداد في الدول المختلفة.

وقد وجد كذلك أنَّه إذا كان الشخص الذي يقوم بالتربية والتنشئة يعاني من خوفٍ مبالغ فيه، فإنَّه يعكس ذلك الخوف على مَن حوله من الأطفال في صمته قبل قوله، وفي سكونه قبل حركته، فالطفل يلتقط مشاعرَ الوالدين والمربين ويتقمصها في صورها البدائية ليترجم الدنيا، وكل ما يدور حوله من خلالها لتصبح مرجعيته النفسية طوال حياته والنافذة التي يرى الدنيا من خلالها، وقد يتوارث الخوف من جيلٍ لآخر، فهناك أدلة ودراساتٌ تشير إلى احتمال حدوث ذلك التوارث عبر مئات السنين، ومازال البحثُ مستمرًّا في هذا المجال.

إنَّ الخوف عدوٌّ لتقدم الإنسان وتطوره وإبداعه، والشعوب التي تكثر فيها أسبابُ الإصابة بالخوف تصبح شعوبًا مشلولة عاجزة عن النجاح والتقدم والإبداع، ولذلك حرَّر الله عبادَه من الخوف شريطة أنْ يخافوه سبحانه، ففي مخافته وعبوديته مأمن وحرية مِن كلّ شيء، وانطلاق لعمارة الأرض، وتقدم وتطور وإبداع للفرد والمجتمع.

الخوف (2)

ولتوضيح دورِ الخوف في التحكم في تصرفاتِ البشر فلا بدَّ أن نفهم الكيفية التي يؤثر الخوفُ بها على الأجهزة الفسيولوجية والعصبية والعقلية في الإنسان.

وباختصارٍ وإيجاز شديديْن فإنه عندَ حدوث الخوف من شيء ما بغضِّ النظر عن نوعية هذا الخوف فإنَّ ردَّ الفعل الفسيولوجي الطبيعي هو أن يتدفق الدم من الأعضاء المختلفة في الجسم إلى الجهاز العضلي كالقدمين والساعدين، ليسهل على الإنسانِ الهروب والجري أو الدفاع عن النفس والقتال، وإن كان ردُّ الفعل هذا غير مطلوبٍ أو ملائم أو مناسب للحدث، وهذا النوع من ردِّ الفعل الفسيولوجي يسمى طبيًّا بردِّ فعل الجهاز السَّمْبَتَاوي (Sympathetic System) والذي يرافقه تغيراتٌ أخرى عديدة مثل: ارتفاع ضغط الدم ودقات القلب وغيرها من تغيرات فسيولوجية قد تكون ضرورية في بعض المواقف، وإن كانت ضارَّة فسيولوجيًّا مع تكرار الحدث على المدى البعيد، وتقوم المراكز المتحكمة في العواطف في الدماغ بحثِّ الجسم على إفراز هرمونات تساعده على أن يكون في حالة تأهُّب، وترغم الإنسانَ على توجيه قواه العقلية وتركيزه على مركز الخوف، وإغفال كلّ ما دون ذلك من معطيات ومعلومات.

واعتمادُ الدماغ في تحليله للموقف على معلومات محددة يؤدي إلى انحصار في الفكر، وهو صورةٌ من صور الغباء المؤقت أو المحدد زمانيًّا أو مكانيًّا، ولكن هذا الخوف المؤقت يتحولُ إلى خوف مُزمن إذا استمرَّت مصادر الخوف وتعددت أشكالُه لتؤدي إلى حالة غباءٍ مزمن وشللٍ فكري، وبذلك يغلب على الشعوب الخائفة الشللُ الفكري والعجزُ والوهن والضعف، ويندر فيها النجاحُ

والإبداع والتقدم.

ويدرك الإسلامُ ما لفطرة الخوف من أبعادٍ خطيرة فيوليها عنايةً خاصة، ويتعامل معها بما يكفلُ تسخيرها لإخراج أسْمى ما في النفس البشرية، وبما يضمن تذليلها لسيْر الحياة في أرقى وأبدع صورها، فيذكرها الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم في أكثرَ من مائة موضع ويوجهها وجهتها الصحيحة بقدرها المطلوب لتحقيق الأهداف التي من أجلها خلقها الله وأودعها النفس البشرية.

ومِن حكمته سبحانه أن خلقَ نوعيْن من الخوف من حيث النتائج والتبعات المترتبة عليه، فهناك خوفٌ سلبي يؤدي إلى النتائج الفسيولوجية والعقلية والنفسية المذكورة سابقًا، وهناك خوفٌ إيجابي يؤدي إلى غير ذلك من فوائد فسيولوجية وعقلية ونفسية، ويزيد من النشاط والحيوية، ويدعو للتقدم والنجاح، وشاءت الحكمة الإلهية أنْ يكون للخوف منه سبحانه مثلُ هذه النتائج الحميدة الإيجابية من تقدم وتطور وإبداع للفرد والمجتمع.

الخوف (3)

إنّنا نستطيع بنظرة تأملية بسيطة أن ندرك وجودَ اختلاف في مسبّبات ودرجات الخوف ودوافعه، وكذلك بنظرة تأملية أبسط نوقن أنَّ الله أودع الخوفَ منه سبحانه خصائصَ لم يودعها غيرَه من حيث النوعية والمقدار، فالخوف منه سبحانه له شروطٌ لا يقبل إلَّا بها، ونتائج لا تكتمل في غيرها.

فمِن شروطِ تمامه وقبوله أن يحقق غايةَ خلقه من الدعوة والحثِّ على العمل الصالح وعمارة الأرض ومدافعة الباطل، وبهذا يصبح الخوفُ منه سبحانه قوة إيجابيةً تحثُّ على العمل والإتقان والإبداع، وتحرِّر الفرد من القيود البشرية الأرضية الظالمة إلى القوانين الربانية السماوية العادلة. ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ٦٠ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ٦١﴾ (153)

ومِن خصائص هذا الخوف أنَّ الخائف من الله تعالى هاربٌ من ربه إلى ربه، أما الخائفُ من غير ربه فهارب من مصدر الخوف إلى غيره.

وهنا يكمن سرُّ الاختلاف والمباينة بين الخوف الإيجابي والسلبي، فالهاربُ من ربه إلى ربِّه هو في الحقيقة بينَ خوف ورجاء أو رهبة ورغبة كطائرٍ بجناحين، أقوى أحواله، وأجمل صوره عندَ اعتدال الخوف والرجاء.

فالرجاءُ له تأثيراتٌ مغايرة لتلك التي يؤدي إليها الخوف، فهو يؤدي إلى تغيرات فسيولوجية تسمَّى في علم الطبِّ باستثارة الجهاز الباراسمبتاوي (Parasympathic) منها: الانخفاض في ضغط الدم ودقات القلب والارتخاء العضلي والنفسي والعصبي، وهو عكس ما يحدث في حالات الخوف الذي

لا يقترن بالرجاء، وهو ما تحدثنا عنه قبل ذلك، بما يسمَّى باستثارة الجهاز السمبتاوي (Sympathic.) ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (152)

وبذلك فإنَّ اقتران الخوف بالرجاء يوازن بين هذين التأثيرين ويحمي الإنسان من النتائج السلبية التي قد تحدثُ إذا طغى أحدهما على الآخر.

وبذلك يوازن الإسلامُ بين جنبي المؤمن كما يوازن الطائر بجناحيه، وعلى قدر توفيقِ الله لعبده في تحقيق هذه الموازنة ينهل المؤمنُ من الفوائد الفسيولوجية والعقلية والنفسية في كلّ جزئيةٍ من جزئيات تكوينه البشري ليضرب بجناحي الخوف والرجاء آفاقَ السماء ويرتفع ويحلّق ويسمو فوق كلّ المخاوف الأرضية الزائفة الزائلة، وهكذا يفعل الخوفُ والرجاء بالمؤمن.

---

(153) سورة المؤمنون: 61 -60.

(152) سورة الزمر، من الآية 23.

الخوف (4) (تتمّة)

لقد استُعمل الخوفُ من الأمور اللاحسية أو اللامرئية عبر التاريخ كسلاحٍ فعّال في استعباد البشر.

وممّا يعرضه القرآنُ علينا من صور هذا الخوف، قصة سحرة فرعون وسيطرتهم على عقول البشر وإغوائهم، والحديثُ الشريف يُفصّل في قصة أصحاب الأخدود والملك الطاغي وساحره والغلام المؤمن، والتي يتجلى فيها ما للسحر والشعوذة من دورٍ فعّال في إضلال البشر واستعبادهم من دون الله.

وكما حرَّر الإسلام المؤمنَ من الخوف من الأمور اللاحسية أو اللامرئية فإنه كذلك حرَّره من (الخوف السلبي) من المرض والجوع والفاقة، بأن جعل كلّ هذا بيده سبحانه، ولم يجعله في يدِ أحد من خلقه، ولكنْ لحكمة الابتلاء والاختبار استعمل عبادَه كأدوات لتحقيق بعض مشيآته في خلقه، وعلى قدْر استشعار المؤمن لهذه الحقيقة يزداد خوفُه من ربه (الخوف الإيجابي) ويتلاشى خوفُه ممّا دون ذلك (الخوف السلبي).

وقد سخر الإسلامُ أداتي الخوف والرجاء والترهيب والترغيب في تقنين علاقات البشر معَ بعضهم بعضًا لإرساء ميزان العدالة وحماية الفرد والمجتمع من تبعات الخوف السلبي، فحذَّر سبحانه على لسان نبيه مِن أن يُروع أو يخوف عباد الله في أحاديثَ كثيرة، منها ما رواه أبو داوود، قوله ﷺ (لا يحلُّ لمسلم أن يروِّع مسلمًا) (160) وقوله ﷺ (لا تروِّعوا المسلم فإنَّ روعة المسلم ظلمٌ عظيم) (159) وحذَّر عليه الصلاة والسلام من أن يفعل ذلك حتَّى ولو من بابِ المزاح في قوله صلوات الله وسلامه عليه (لا يشرْ أحدكم إلى أخيه بالسلاح فإنَّه لا يدري لعلَّ الشيطان ينزع في يده فيقع في حفرة من النار) (158).

وفي المقابل استخدم الإسلامُ أداة الترغيب في حثِّ مَن بيده الترويع أن يتحلى بالعفو والصفح حمايةً من تبعات الترويع التي تؤدي إلى الخوف السلبي في قوله تعالى ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ..﴾ (157). وقد ذكر في معرض المدح.

وعنِ ابن عمر قال: قال رسولُ الله ﷺ (ما جرع عبد جرعة أعظم أجرًا من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله) (156).

وقوله (مَن كظم غيظًا ولو شاء أن يمضيه لأمضاه، ملأ اللهُ قلبه يوم القيامة رضًا) (155)، وغيره كثير. ولم يقصر الإسلامُ هذه الحماية على المسلم بل أدخل فيها غيرَ المسلم، المسالم في بلاد المسلمين ليضرب لنا فيها رسولُ الله ﷺ مثلًا واضحًا لا يقبلُ التشكيك أو التأويل في حديث زيد بن سعنة(154) وهو من أحبار اليهود أنه أقرضَ النبي ﷺ قرضًا كان قد احتاج إليه ليسدَّ به خللًا في شئون نفرٍ من المؤلفة قلوبهم، ثمَّ رأى أن يذهب قبلَ ميعاد الوفاء المحدد ليطالب بدينه، قال: (أتيته يعني رسول الله ﷺ فأخذت بمجامع قميصه وردائه، ونظرتُ إليه بوجه غليظ، قلت له: يا محمد، ألا تقضيني حقي؟ فوالله ما علمتُكم بني عبد المطلب إلَّا مُطلًا، ولقد كان لي بمُخالطتكم علمٌ. ونظر إليّ عمر وعيناه تدوران في وجهه كالفلك المستدير، ثمَّ رماني ببصره، فقال: يا عدوَّ الله، أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع، وتصنع به ما أرى؟ فوالذي نفسي بيده لوْلا ما أحذر فوته لضربَ سيفي رأسك. ورسولُ الله ﷺ ينظر إليه في سكونٍ وتؤدة. فقال: يا عمر، أنا وهو كُنَّا أحوج إلى غير هذا، أنْ تأمرني بحُسن الأداء وتأمرَه بحُسن اتباعه، اذهبْ به يا عمر فأعطه وزدْه عشرين صاعًا من

تمر مكان ما رعته).

قال زيد: فذهبَ بي عمر، فأعطاني حقّي وزادني عشرين صاعًا من تمر، فقلت ما هذه الزيادة يا عمر؟ قال: أمرني رسولُ الله ﷺ أن أزيدك مكان ما رعتك.

---

(160) أورده الألباني في صحيح الجامع، والجامع الصغير للسيوطي.

(159) أخرجه البزار، والطبراني في مجمع الزوائد.

(158) رواه أبو هريرة، صحيح مسلم، برقم 2617.

(157) سورة آل عمران، من الآية 134.

(156) كتاب الآداب للبيهقي، عن ابن عمر، ص 56.

(155) أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث ابن عمر.

(154) رواه الطبراني من حديث عبد الله بن سلام بسند رجاله ثقات.

تطبيقُ الأنماط وإحرازُ النَّجاح

في شهر مايو لعام 1998م، هُزم أعظمُ لاعب شطرنج في العالم العبقري كاسباروف مِن برنامج الكمبيوتر Deep Blue الذي صممته شركة IBM، وظنَّ مَن قرأ الخبر أنَّ الكمبيوتر قد هزم الإنسان، ولكن الحقيقة هي غير ذلك.

يبدأ المؤلف الجزءَ الأول من كتابه أنماط الربح (Profit Patterns) بطرح السؤال: كيف نتعلَّم من التجربة؟ ويجيب عن السؤال بقوله: (إننا نتعلم من التَّجربة عن طريق تعلم النماذج الجديدة، ويضرب مثلًا بالأطباء العظماء (Patterns) الذين يمزجون بين الفنِّ والأنماط والقدرة والملكة على التشخيص، ليس بناء على قدراتهم العقلية والتعليمية فحسب، بل وعلى الإدراك والإحساس البديهي التِّلقائي الشعوري المتولد في حقيقته من نجاحهم في استخلاص الدروس والعِبَر من التجارب التي شاهدوها، والحالات التي عالجوها، ومن سبقوهم. وهذا التمرس على التعرف والفهم والإدراك للنماذج والأنماط المستخلصة من المواقف والحالات هو سرُّ نجاح الطبيب كما هو سرُّ نجاح الإداري، وهذا ما يؤكِّده المؤلف في كتابه، حيث إنَّ أهمَّ خصلة في الإداري الحاذق الماهر هي القدرةُ على فهم النماذج والأنماط الاستراتيجية التي يعايشها أو يقرأ عنها في المجال الذي يعمل فيه بغضِّ النظر عن طبيعة ذلك العمل ونوعيته.

إنَّ الكمبيوتر لم يهزم أعظمَ لاعب شطرنج في العالم، وإنما الذي هزمه هو العملُ الجماعي الذي قامَ به موظفون من شركة (IBM) لتغذية برنامج الكمبيوتر بجميع نماذج وأنماط اللعبة، والتي هي خلاصةُ تاريخ اللعبة وتجارب السابقين بمن فيهم كاسباروف ومنافسوه، فأصبحَ في مقدرة البرنامج التعرف على النموذج والنمط

الذي ينتهجه المنافس، وتسخيره لتحقيق الفوز والنصر والنجاح، وبذلك فإن المنافسةَ الحقيقية قد بدأت منذُ سنوات قبل يوم اللقاء.

والدرسُ من وراء ذلك هو أنَّ العمل الجماعي المنظم القائم على الأسس الصحيحة للنجاح لا بدَّ وأن ينتصرَ على المدى البعيد على أيِّ قدرات فردية وإن كان الخصم عبقريَّ عصره في أي من التخصصات.

وهذا درسٌ قد فهمه الغرب حقَّ الفهم، نرى حجم التكتلات والاتحادات لشركات مساهمة تفوقُ ميزانياتها ميزانياتِ دول، وأحد أسباب وأهداف هذه التكتلات هو تغذيةُ الشركات بأنماط ناجحة، فلم يعدْ هناك مجالٌ للأعمال الفردية والإقليمية والتقوقع والاستفراد بالرأي والقرار، فالحاضر والمستقبل حليفَا مَن فهم الدرس وأدركَ متطلبات النجاح من العمل الجماعي المنظم للتعرف على الأنماط الناجحة في تاريخ المهنة وتسخيرها في تسيير دفةِ إدارة وقيادة الشركات، والهزيمة لمن أغفلَ ذلك، وظنَّ أنَّ عبقريته الفردية كفيلة لإحراز النجاح.

وبنظرةٍ سريعة لأنجح خمسمائة شركةٍ مساهمة أمريكية نجد أنها لم تترك مجالًا إلَّا ودخلتْ فيه ونجحت وسيطرت عليه، بل وإنَّ فهمَها لأنماط النجاح كان أحد دوافع دخولها في مجالات أخرى مختلفة جديدة، ومن أمثلة هذه المجالات: الفضاء، الطيران، الكيماويات، الكمبيوتر، الأغذية والأدوية، الخدمات الصحية والمستشفيات، التأمينات الصحية، مستحضرات طبية، تصنيع أدوية.. إلخ.

وذلك مِن خلال العديد من الشركات التي كسبت ثقة المستهلك والمستثمر في آن واحد.

فالمستهلكُ يثق في جودة منتجاتها وكفاءة خدماتها.

والمستثمرُ يثقُ في قوة اقتصادها وكفاءة إدارتها، وهي اليوم تُسيّر دفة الحياة بمنتجاتها وخدماتها وأبحاثها ودراساتها وابتكاراتها واختراعاتها، وشركات الخدمات الطبية الأمريكية في قائمةِ هذه الشركات الناجحة النافعة للبشرية والعالم وفي مقدمتهم العرب يحجّون إليها للعلاج، ويثقون بمنتجاتها وخدماتها بل ويستثمرون أموالهم فيها.

إنَّنا مقبلون على تحدٍّ عالمي عظيم، البقاء فيه للأقوى والقوة في الجماعة المنظمة، والشركاتُ المساهمة ذات البنية الإدارية التحتية الصحيحة هي إحدى صور هذه القوة.

الخبرةُ سلاحٌ ذو حدَّيْن

الخبرةُ سلاح ذو حدَّيْن: حدّ يقطع به صاحبُ الخبرة، وحدّ آخر ربما يقطعه.

في السادس عشر من أبريل لعام 1912م غرقت السفينة الشهيرة التايتانيك (Titanic) التي ظنَّ صانعوها آنذاك أنها لا تغرق، وكان ذلك بعد ارتطامها بالصخور الثلجية، وغرق معظم ركابها (فوق الألفي راكب).

وهناك دراساتٌ عديدة لأسباب غرق السفينة، وإن كان كثيرٌ من المحللين يوجهون اللومَ لقبطان السفينة سميث (Smith) ولا يقبلون بأيِّ مبررات أخرى، حيث لقبطان معظم السفينة اليدُ العليا والقرار الأخير، وأيُّ مخالف لأوامره يُعاقب قانونيًّا، فما أسبابُ خطأ القبطان في تقدير خطورة الصخور الثلجية والوقت اللازم لتصحيح المسار في حالة رؤية هذه الصخور؟ سؤالٌ مازال يحير كثيرًا من الباحثين، وإن كان بعضُ المحللين يعتقد أن خبرته الطويلة، والتي تعدَّت الأربعين عامًا كانت أحد أسباب هذا الخطأ الفادح.

فكيف حدثَ ذلك؟ وكيف يمكن للخبرة أن تصبح عونًا على صاحبها بعد أن كانت عونًا له. إنَّ الخبرة تنشأ نتيجة استخلاص الدروس والعبر من الأحداث والمواقف.

وفي حالة التعاملِ مع الظروف والأحداث المتكررة التي تربطها جذور لها افتراضاتٌ ومعطيات مشتركة فإنه يتمُّ استخلاص نمط أو أنموذج للتعامل مع الظروف والأحداث المشابهة في المستقبل.

ومعَ كثرة تكرار هذه الأحداث والمواقف المتشابهة يترسخ الأنموذج والنمط المستخلصُ ليشكل مرجعية عقلية ونفسية رئيسية

في صنع القرار هي أشبه ما تكونُ بمرجعية الكمبيوتر (Hard Drive). وتلعب هذه الخبرة دورًا فاعلًا في سرعة تحليل الحدث والظرف والتفاعل والتعامل معه عن طريق عرضه ومقارنته بالنماذج والأنماط المشكلة لمرجعية صنع القرار، فإن تشابه الحدثُ أو الظرف في ظاهرِه بالحوادث والظروف السابقة، جاء ردُّ الفعل مشابهًا، وهنا قد يكمنُ الخطر، وذلك حين يستجد حدثٌ أو ظرف شبيه في ظاهره بتجارب وأحداث سابقة، ولكنه يختلف عنهما في افتراضية أو معطيات حدوثه، أو حين يستجد حدثٌ أو ظرف مغاير تمامًا لكلِّ ما سبق من تجارب وأحداث سابقة فتتغلب على صاحب القرار مرجعيَّته النفسية والعقلية المتأصلة نتيجة خبرته الطويلة، فيتفاعل مع الحدثِ الجديد كما كان يتفاعل مع غيره سابقًا بافتراض قابلية الظرف أو الحدث الجديد في أن يستجيب لردودِ فعْله السابقة، وهنا تحدث الكارثة، وهذا ما يعتقد المُحللون حدوثه في حالة غرق السفينة (تايتانيك)، حيث إنَّ الخبرة الطويلة للقبطان القدير (سميث) كانت مع سفن مُختلفة تمامًا عن هذه السفينة، وبناء على هذه الخبرة فقد كان يعتقد أنَّ بوسْع هذه السفينة أن تصحِّح مسارها في حالة رؤيتها للصُّخور الجليدية، ولكنه أخطأ في تقديره، فهذه السفينة ليست كسابقاتها التي قادها، سواء في سرعتها أو حجمها أو صناعتها، فقطعه الحد الثاني لسلاح الخبرة، فالخبرةُ سلاح ذو حدَّيْن.

وإذا أجرينا عمليةَ إسقاط لهذه الكارثة على سفينة مجتمعنا نستطيع أن نخرج بدروس قيمة.

إنَّ الظروفَ التي حكمت منتصف السبعينيّات (الطفرة) في مجتمعاتنا خلَّفت خبرات لها جذورٌ تحكمها افتراضيات ومُعطيات خاصَّة ومميزة لتلك الحقبة من الزمن، وجاءت التسعينيّات وتغيَّرت الفرضيات والمعطيات لكثير مما سبق، ولكن المرجعية

التي شكَّلتها ورسَّختها سنوات الطفرة في أهل الخبرات كانت أقوى من أنْ تتغير، فلم تواكب تسارع التغيير، فتغيرتِ الظروف وتغيرت السفن وكلُّ ما يحكمها، وما يساعد على وصولها إلى هدفها من عوامل ومسببات ودوافع، ومازالت تُقاد دفتُها بالمرجعيات القديمة المتأصلة نتيجة خبرة سنوات الطفرة.

ولتقريب المعنى أضرب لذلك مثلًا واحدًا، والأمثلة كثيرة..

ففي أيام الطفرة، كانت المشاريع تقوم بأقلِّ دراسات، وبأيِّ تكلفة في أسرع وقت لوجود أرباح خيالية في أيِّ مشروع، وبذلك فإنَّ عامل الزمن كان بمثابة أهم عامل للنجاح.

أمَّا اليوم، فلا بدَّ أن يُسخّر عامل الزمن في تحديد إستراتيجيات مميزة وواضحة عنْ طريق التخطيط الدقيق والقيام بالدراسات المكثفة والتركيز على تطوير فعاليات تشغيل المشاريع والأعمال وإدارتها بعد إنشائها والبحث عن ذوي الخبرات واستقطابهم لإنجاح هذه المشاريع، ورفع مستوى وجودة الأداء والخدمات والتميز على المنافسين.

نعم، لقد لعبتْ خبرة القبطان سميث الطويلة دورًا سلبيًّا، وبدلًا من أن ترْسو سفينته في المرفأ المتوقَّع لها استقرَّت في قاع المحيط في ساعتين من الزمن.

والحكمةُ ضالةُ المؤمن أنّى وجدها فهوَ أولى الناس بها.

المناهجُ العمليَّة للتَّربية

أتيحَ لي أثناءَ إقامتي بالولاياتِ المتَّحدة رِفْقة ابني أحمد البالغ من العمر حينها سبعَ سنوات في رحلة مدرسية (مخيَّم صيفي) لمدَّة يومين خارج مدينة بوسطن حيث يفتح المجال في كلّ عام لعدد من الآباء لمرافقة أبنائهم، والمساعدة في التنظيم والتدريب والتعليم وإدارة النشاطات، فوجدتها فرصةً جيدة لدراسة ما يحدثُ وتصحيح بعض المفاهيم الخاطئة إن وجدت.

وبالرغم من أنَّ التلاميذ يتعلمون كثيرًا من الدروس في مثل هذه المخيمات، إلَّا أن هناك درسًا واحدًا وجدت أننا أحوجُ ما نكون لكي نذكر أنفسنا به، فقرَّرت التحدث عنه في مقالي هذا.

ففي اليوم الأول، وبعد أولِ وجبة غذائية يتناولها الأولاد، طُلب منهم تجميع كلّ الطَّعام المتبقي في أوعيتهم، ووضعه في وعاء واحدٍ كبير (جردل)، وقام المسئولون بوزن الوعاء وتسجيل الرقم على الحائط، وبيَّنوا للتلاميذ أن أحد أهداف هذه الرحلة أن يتعلموا تقديرَ الطعام واحترام النعمة، وأنْ يقللوا من حجم الطعام المتبقي الذي سيُلقى به.

وبدأ المسئولون في سؤال التلاميذ عن أهمية عملِ ذلك، وقد وجدت أن بعض الإجابات تستحقُّ الذكر، خاصة وأنها صدرتْ من تلاميذ في الصف الأول والثاني الابتدائي، فأحدهم ذكرَ أن في هذا إهدارًا للنباتات والزرع على الأرض، وآخر ذكر أنَّ هذا إهدارٌ لمساحات من الأرض للزراعة، وآخر ذكر أنه إهدار للثروات الحيوانية، وآخر تذكّرَ المجاعات والبشر المحرومين وهُم أولى بهذا الطعام من القمامة.. إلخ.

وفي الوجبات التالية، استطاع المسئولون خفضَ كمية الطعام الملقى شيئًا فشيئًا إلى أنْ وصل إلى أقلّ من ثلث كمية اليوم

الأول.

وعندها طافتْ بي ذكريات صور لمجتمعاتنا في كيفية تعاملنا مع نعمة الماء والغذاء، وتذكرتُ ما يحدث في احتفالاتنا وأعيادنا من مغالاة وإسراف من قبل المُضيف، وجشع واستهتار من قبَل الضيف (إلَّا مَن رحم ربي) وتذكرت كميات الطعام الخيالية التي تنتهي في صناديق القمامة، بل ويحدث ذلك في أهمِّ عيدين لنا ألا وهمَا: شهر رمضان المبارك والحج، ولكي نُكوِّن مقارنة عادلة فقد تركت هذيْن المثالين جانبًا، وتذكرت ما يحدث في احتفالات التخرج في المدارس العربية في أمريكا (على أساس تشابه المناخ والظروف) ففوجئت بأنَّ حالنا هنا ليس بأحسن من حال إخواننا في البلاد العربية، بل والحال قد يكون أسوأ، وهنا أحسستُ بغصَّة في قلبي، وألمٍ لحالنا لبديهيات وأساسيات وأخلاقيات ومبادئ نعجز عن أنْ نرسخها في أبنائنا، وفي أنفسنا قبل ذلك، وهي مِن روح الدين، بل قد أُمرنا بها من فوق سبع سماوات، وجاء خيرُ الأنام ليطبِّقها لنا على أرض الواقع، وليكون لنا أسوة حسنة.

إنَّنا في أمسِّ الحاجة لتغذية المناهج الدراسية بصور عملية عصرية واقعية لمبادئ وتعاليم ديننا، وأنْ ندعم المناهج الدراسية النظرية بمناهج عملية لكي يصبح لها من رصيدٍ على أرض الواقع، والوصول إلى هذه الغاية يحتاج إلى كوادر وعقليات وخبرات في شتى المجالات التعليمية والتربوية والاجتماعية والنفسية والدينية تعمل معًا لتحقيق هدف تنشئة جيل أفضل.

بالتَّعليم نبدأ البِناء

لا يختلف اثنان على دورِ العلم في التفاضل بين البشر على مستوى الأفراد والمجتمعات والشعوب والأمم، فكلُّ بناء يقتضي علمًا، وكلُّ علم ينتج حركة، وكلُّ حركة تعمر الأرض وتنمّيها، وكما أنَّ العلم ينتج عمارًا فإنَّ الجهل ينتج دمارًا ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ (165).

وبما أنَّ رسالة الإسلام هي خاتم الرسالات السماوية، وفيها دستور الحياة للبشرية جمْعاء إلى قيام الساعة؛ فقد وضع الإسلام للعلم مكانًا لم يضعه لغيره، فبدأ سبحانه وتعالى بنفسِه وثنَّى بالملائكة وثلَّث بأهل العلم ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ (164)

وكان أولُ كلام الله المنزّل على نبيِّه ﷺ ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ٤ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ٥﴾ (163)، **وفيها ذكرت كلمة (اقرأ) مرتين (والقلم) و(العلم بمشتقاته) ثلاث مرَّات، ولم تذكر أولى آيات التنزيل الإيمان والتقوى أو العبادة والعمل، فالعلم الحقيقي المتعمقُ لا السطحي يؤدي للإيمان والتقوى والعبادة والعمل وأكثر من ذلك.**

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء﴾ (162)، وقوله ﷺ (فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي) (161).

وتحصيلُ العلم يبدأ من أولى سنوات حياة الطفل، بل ويذهب كثيرٌ من علماء النفس والتربية والتعليم إلى أنَّ السنوات الدراسيةَ

الأولى هي من أهمِّ مراحل تكوين القاعدة والمرجعية الفكرية والعلمية التي يُبنى عليها الإنسان طوال حياته، ويدعم هذا الاعتقاد العلم الفسيولوجي والطبي، في أنَّ أكبر مرحلة تطور للاتصالات العصبية في الدماغ تكون في السنوات العشر الأولى من حياة الإنسان.

إنَّ أفتك مرضٍ أصاب أمة الإسلام هو تغييبُ أول كلمة نزل بها الوحي (اقرأ) من حياة الأمة، وما تلَا ذلك من تاريخ مؤلم كان نتيجةً طبيعية وحتمية وسنة كونية.

وسارتِ البشرية وراءَ من ملك من العلم قشورًا فأزاغ أعينَ الناس وخدعهم وأسرَ عقولهم وقلوبهم.

إنَّ هناك من المجتمعات والشعوب مَن يستثمر جلَّ ماله في تعليم صغاره، وهناك مَن يستهلكه في شراء راحته من مسكن ومأكل ومشرب وترفيه وسياحة.

ولا يضيرُنا أن نضرب في هذا المقام مثلًا باليهود في أمريكا، حيث إنهم قدموا بعد الحرب العالمية الثانية، واستثمر جيلهم الأولُ كلّ ما في أيديهم من أجل تعليم صغارهم، فسكنوا أحقرَ البيوت وحرموا أنفسهم من الكثير ليدرس أبناؤهم في أفضل وأرقى المدارس والجامعات الأمريكية، واليوم يجنون ثمار ما زرعوا ويتربَّعون فوقَ محافل العلم ويصنعون القرار، وقلما تجد منهم مَن لا يحتلُّ مكانًا مرموقًا في الطب والقانون والاقتصاد والسياسة والإعلام.

وإنني أودُّ أن أضع الأسئلة التالية بين أيديكم حيث إنها تحتاج لدراسة وبحث من قبَل أهل التخصص:

- هل نحن راضون عن المناهج الدراسية؟

• هل هناك تطوير لهذه المناهج يواكب التطور الذي يشهده العالم؟

• هل أهداف المناهج الدراسية واضحة لنا؟

• هل تساعد هذه المناهج على توسيع آفاق الطالب وحثّه على التفكر والتأمل والبحث والإبداع وترسيخ مبدأ النظر والسؤال في كلّ شيء وعدم تقبل المعلومة لمجرد أنها مكتوبة، أم أن المناهج تخرج لنا أجيالًا لا يكاد يختلف أوَّلهم عن آخرهم؟

• ما نظامُ إعداد واختيار المعلم والمدرس؟

• ما حجمُ الاستثمار في المعلم والمدرس؟ وأين يضع المجتمع المدرس والمعلم؟

وهل وضع في المكان الذي يليق بدوره في تعليم الجيل وتنمية أغلى ما يملك كلّ واحد منَّا في حياته وبعد مماته (فلذات أكبادنا في حياتنا ومن يكمل مسيرتنا ويدعو لنا بعد وفاتنا).

أسئلة لا أعرف إجابتها، فلستُ من أهل الاختصاص في هذا المجال، ولكن الموضوع يخصُّني كما يخص كلّ فرد في المجتمع، وعلى أهل الاختصاص أن يبحثوا ويدرسوا ويكشفوا لنا السلبيات والإيجابيات، ولنفتح باب الحوار والنقاش، ولنتقدَّم بخطى جادَّة وسريعة تتوافق مع التسارع والتغير العالمي، وما يواكبهما من تغيير في متطلبات المناهج الدراسية قبل أن يمرَّ من تحت أيدينا جيل لا ندري كيف مَرّ، وما نزرع اليوم سنحصده غدًا لا محالة.

---

(165) سورة الزمر، من الآية 9.

(164) سورة آل عمران، من الآية 18.

(163) سورة العلق: 5 -1.

(162) سورة فاطر، من الآية 28.

(161) أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة وقال حسن صحيح.

بالبَشرِ لا بالحَجر

يقول الرافعي في مقالٍ له بعنوان (قلت لنفسي وقالت لي):

(وقالت لي نفسي ليست دنياك يا صاحبي ما تجده من غيرك، بل ما توجده بنفسك، فإن لم تزدْ شيئًا على الدنيا كنت أنتَ زائدًا على الدنيا، وإن لم تدعها أحسن ممَّا وجدتها فقد وجدتها وما وجدتك، وفي نفسك أول حدود دنياك وآخر حدودها، وقد تكون دنيا بعض الناس حانوتًا صغيرًا، ودنيا الآخر كالقرية المملمة، ودنيا بعضهم كالمدينة الكبيرة، أمَّا دنيا العظيم فقارة بأكملها، وإذا انفردَ امتدَّ في الدنيا فكان هو الدنيا، وقالت لي النفس: إنَّ فأس الحطَّاب لا تكون من أداة الطبيب، نفذْ لكلِّ شيء أداته، وكنْ جاهلًا أحيانًا، ولكن مثل الجهل الذي يصنع لوجه الطفل بشاشته الدائمة، فهذا الجهل هو أكبرُ علم الشعور الدقيق المرهف، ولوْلاه لهلك الأنبياء والحكماء والشعراء غمًّا وكمدًا، ولكانوا في هذا الوجود، على هذه الأرض، بين هذه الحقائق كالذي قيد وحبسَ في رَهِجَ تثيره القدم والخف والحافر لا يتنفس إلَّا الغبار يثار من حوله حتَّى يقضي عليه) (170).

إنَّ بناء المجتمعات يبدأ ببناء الفرد، والفرد هو العنصرُ الحي في بناء كلّ مجتمع، وهو النافذة التي تطلُّ وتستقبل أغلى ما على هذه الأرض باتصاله بالقوة التي لا حدود لها ولا تفنى.

فالفكرةُ والإلهام وما شاكلهما ممّا يقذف به اللهُ في قلب من يشاء من عباده هي أساسُ كلّ بناء تفخر الحضارات بإنجازه.

وهناك عواملُ تساعد الفرد على إدراك أقصى ما يسعى إليه في إطار نظام يستفيد من جهدِ وعمل وإنجاز وإبداع الفرد في نمو المجتمع وبنائه، ومن هذه العوامل:

1. أن يمتلك المجتمع وعيًا كافيًا ورقيًّا فكريًّا وبعدَ نظرٍ لإدراك مقدرات الأفراد وتقييمها كما يجب أن تقيم، وجزء من هذا التقييم هو ما يسمى بالحقوق الفكرية (Intellectual Property)

2. أنْ يكون هناك نظامٌ متكامل يحفظ للفرد حقه في الفكرة والإبداع والإنتاج والإنجاز (وأن لا يكون هذا النظام مبنيًّا على مبدأ أن المال هو الحاكم، وإنَّما هو التزاوج بين (المال) و (الفكرة)، فالمال بدون (الفكرة والجهد) كطير بجناح واحد، وبوجود هذا النظام تحرر الفكرة والجهد والإبداع من استعباد المال، ليستبدل شعار (المال يصنع المال) بشعار (تزاوج الفكرة بالمال يبني الفرد والمجتمع ويصنع الحضارة).

3. أنْ يتمرَّس المجتمع ويطور وسائل التخاطب والتحاور والمناظرة والتفاوض بصدر رحبٍ وعقل مستنير للنجاح في الوصول إلى نقطة التزاوج بين (الفكرة) و(المال) وبين (الفرد) و(المجتمع) وإيجاد أفضل الحلول المعينة على بناء الفرد وبناء المجتمع وصناعة الحضارة.

4. القدرةُ على التمييز بين الغثِّ والسمين، والحذر مطلوب كما عبر عن ذلك الخليفة الراشد الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قوله: (ما أنا بالخبِّ ولا الخبُّ يخدعني)، ولكن ما يفسد على المجتمع فرص البناء هو تقديم الشك والتخوين والظن السيئ، وهذا ما حذَّرنا منه في قول الله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ (169) ، وفي قوله تعالى: ﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ (168)

وهناك مجتمعاتٌ أصيبت بأمراض نفسية كنتيجة طبيعية لما مرت به من ظروف اجتماعية واقتصادية وسياسية ليصبح

المجتمع كله قائمًا على مبدأ الشك والظن، والتخوين؛ وهو ما يسمّى في علم النفس (مجتمع مصاب بالشك المرضى) (Paranoid Society) ومثل هذه المجتمعات يصعب البناء فيها، فهي تتخبَّط يمنة ويسرة، فتخوّن الأمين، وتأتمن الخائن، وتكذب الصادق، وتصدق الكاذب، فتذهب خيراتُها في غير مكانها وتستنفد طاقاتها، وتبدد قوتها، ثمَّ تتساءل بعدَ كلّ هذا: لم سبقتها الأممُ الأخرى وأصبحت هي في آخر الركب بالرغم ممّا لديها من خبرات طبيعية وبشرية تفتقدها كثير من الأمم الأخرى!

إنَّ بناء الحضارات يبدأ ببناءِ الفرد، ووضع كلّ في مكانه الصحيح، والقرآن الكريمُ يلخص لنا أهمَّ المعايير التي يجب أن يتفاوت بها تقييم الأفراد في المجتمع الإسلامي الصحيح في كلماتٍ موجَزة شاملة في سياق قصتي نبيَّيْن من أنبياء الله هما: موسى ويوسف عليهما السلام، في قوله تعالى على لسان ابنة نبي عن نبي الله موسى: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ (167)، وقوله تعالى على لسان نبيه يوسف مخاطبًا ملكَ مصر: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (166).

وإذا عجزنا كأمةٍ مسلمة لله أن نتمثلَ هذه المعاني في حياتنا العصرية لنصبغ بها أعمالنا وتعاملاتنا وشراكاتنا ومؤسساتنا وحياتنا كلها؛ فإننا قد ضللنا طريقَ بناء الحضارة المنشودة التي بناها أسلافنا.

ومَن ظن أنَّ الحضارات تبنى بما في باطنِ الأرض من خيرات طبيعية ومعادن نفيسة؛ فليعدِ النظرَ للتاريخ الماضي، ولينظر لما حوله من أمم وحضارات كيف بُنيت، هل بما يخرج اللهُ لها من باطن أرضها؟ أو ممّا يخلق لها الله من عقول وقلوب أبنائها؟

إنَّ الحضارات لا يبنيها الحجر، وإنما تُبنى بالحجر ولكنْ بأيدي البشر؛ فهُمُ البناة الحقيقيون، ولا يعْدو الحجرُ وغيره أن يكون مادةً من مواد البناء.

---

(170) وحي القلم، ج 2، ص 68.

(169) سورة الحجرات، من الآية 12.

(168) سورة النور: 12.

(167) سورة القصص، من الآية 26.

(166) سورة يوسف: 55.

اتقوا الله في رعاياكم (1)

بعدَ عوْدتي من الولاياتِ المتَّحدة، وقبلَ تأسيسي لمشروعِ المركَز الطبِّي الدَّولي، وذاتَ مساء، غادرتُ عيادتي في مستشفى الملك فيصل التخصصي بجدة متأخرًا كعادتي، فوصلتُ إلى سيارتي في العاشرة، وقبل دخولي السيارة سمعت صوت بكاءِ أطفال في السيارة المجاورة، فنظرت فلمحتُ في المقعد الخلفي أطفالًا يتحركون، فدققت نظري فلم أرَ في السيارة إلَّا الأطفال، فدفعني إحساسي بالمسئولية كمسلمٍ وكأب وكطبيبٍ أن أتحقق من سلامة الأطفال فاقتربت من السيارة ونظرتُ عن قرب فرأيت ثلاثة أطفال ما بين الثانية والخامسة من العمر يصرخون ويبكون بحرقة، وقد حُبسوا داخل السيارة فلا هم يستطيعون الخروج ولا يستطيع أحدٌ الدخولَ إليهم، فصدمني ما رأيت، أيُّ أب وأي أم يتركان أبناءهما على هذه الحالة! وأيُّ غرض من أغراض الدنيا يدفعهم أن يفعلوا ما فعلوا؟ وأخذت أخاطب أكبرَهم سنًّا من وراء النافذة أطمئنه ما استطعت، وانتظرت بجوار السيارة، وبعدَ عشر دقائق بدأ قلقي يزداد، خاصَّة وأنني لا أدري كم من الوقت قد مضى والأطفالُ داخل السيارة، وما إمكانية التنفس وحالة الهواء داخل السيارة، وبدأت أفكرُ كطبيب في أسوأ النتائج، مثل احتمال تسرب غاز أول أكسيد الكربون من المكيف داخل السيارة واختناق الأطفال، فاستدعيت رجالَ الأمن من المستشفى التخصُّصي الذين أسرعوا بالحضور، واستطعنا بعد عشرين دقيقة النجاحَ في فتح الأبواب والنوافذ، وبدأ البحث عن الوالدين داخل المستشفى باستعمال النداء العام، ونشر رجال الأمن.. ومرَّ الوقت وطال الانتظار، وكلنا قلقٌ على حالة الأطفال الثلاثة المهجورين من والديهما، ولا نصدق ما نرى لأنه لو غاب ابنٌ من أبنائنا في هذه السن عنْ أعيننا لحظات نُصاب

بالقلق، فما بال هذين الوالدين يهجران أولادهما بهذه الطريقة القاسية.

وطالَ الانتظار، وبعد 35 دقيقة طلبتُ من رجال الأمن استدعاء الشرطة، وقوبل اقتراحي بادئ الأمر بالرفض، فأصررتُ وبدأت في طلب رقم الشرطة من جوالي الخاص، وهنا تجاوب معي مسئول الأمن وتمَّ استدعاء الشرطة، وفي هذه الآونة مرَّ بنا أحد زملائي الأطباء في طريقه لبيته فوقف، ولمَّا أدرك ما يحدث قال لي: يا وليد، أتريد أن تغير الكون؟! فأجبت: لا.. ولكنني أغيِّر ما يقع عليه عيني ما استطعتُ إلى ذلك سبيلًا، وإنني لن أغادر مكاني هذا قبل أن أغير ما أرى، فقال لي: زوجتك وأولادك ينتظرونك وستضيع ليلتك، فأجبته إنَّ زوجتي هي التي طلبت منِّي ألَّا أترك مكاني هذا قبلَ أن يبلغ الأطفال مأمنهم، فضحك واستقلَّ سيارته وغادر المكان قاصدًا بيته.

وطالَ الانتظار.. والأطفالُ على حالتهم من البكاء بالرغم ممّا قمنا به من محاولات لتسليتهم، وقمْنا بالتأكد من حرارة السيارة فوجدناها مرتفعة جدًّا، مما يؤكّد أن المحرك كان يعمل منذ فترة طويلة جدًّا.

وأخيرًا، وبعد ساعة كاملة من انتظاري، والله أعلم كم من الوقت مضى قبل ذلك، نعم.. بعدَ ساعة كاملة من الزمن، في الساعة الحادية عشرة مساء؛ ظهر من على بُعد رجلٌ وامرأة يمشيان الهوينا، أمّا الرجل فتظهر عليه السماتُ الخارجية للتدين مِن لحية وتقصير ثوب، وأمّا المرأة فمنقبة من شعرها إلى أخمص قدميها.

وقبلَ وصولهما إلينا كانت سيارةُ الشرطة قد وصلت إلى المكان، فأمر الرجل زوجتَه أن تدخل السيارة فتقدَّمت إليه وبادرته

بقولي: ألا نتّقي الله. فأخذ الرجل بادئ الأمر يستغربُ ما نفعل، وبدأت أشرحُ له مخاطر ما فعل، وما أكثرها من احتمال موتِ الأطفال اختناقًا في حالة تسرب غاز أول أكسيد الكربون أو الحرق أو السرقة والإيذاء، وكلُّ هذا حدث بالفعل في السابق، ومثال ذلك أطفال سعوديون يعالجون في مدينة بوسطن من حروق من الدرجة الثالثة نتيجة إهمال آبائهم لهم وتركهم في السيارة والذهاب لقضاء حوائجهم وليعودوا ليجدوا أولادهم قد احترقوا ولم يبقَ جزءٌ من أجسادهم إلَّا وشويَ بالنار، واليوم يمشي هؤلاء الأطفال على الأرض بوجوهٍ مشوَّهة وجلود تدعو للنفور وتقذف الرعب أو الشفقة في قلوب من يراهم.

وظلَّ الأب يجادلني حتَّى قلت له: إنَّ ما فعلته مصيبة، ولكن المصيبة الأكبر هي أنَّك مازلت تصرُّ أن ما فعلته ليس بالخطأ، وهذا بالنسبة لي يعني أنك ستكرر الخطأ مرةً أخرى، وإنَّك لو كنت في بلدٍ غربي لأخذ منك أبناؤك هذه الليلة ولأرغمت أنتَ وزوجتك على كتابة تعهد، بل ويتمُّ التحقيق معكما ووضعكما تحت اختباراتٍ نفسية وعقلية للتأكد من صلاحيتكما للقيام بمهمة تربية أولادكما، وعندما عرَّفته بنفسي تغيَّر وجه الأب، وأخبرني بأنه يعرفني منذ زمن طويل من خلال مقالاتي، وأنَّه يشعر بالخجل أن يقف هذا الموقف معي، فأجبته أنه من الأولى أن يخجلَ من الله ومِن نفسه عمّا فعل، وأحسَّ الوالد بالخجل وقد أحيط بعشرين عينًا تنظر إليه بازدراء، فمدَّ يده يصافحني ويعدُ بأنه لن يعود لمثل هذا، أمَّا رجل الشرطة فلم يكن عنده ما يقدمُه بل تحدث مع الأب بصوتٍ رقيق كأنما يعتذر إليه.

وانفضّ الناس وعدتُ إلى سيارتي بعد ساعة بالتحديد، وفي طريقي إلى بيتي تذكَّرت ما أخبرنا به رسولُ الله ﷺ من قصة المرأة التي دخلتِ النار في قطة حبستها، فلا هي أطعمتها ولا هي

تركتها تأكل من خشاش الأرض، وفي بَغيٍّ غفرَ اللهُ لها وأدخلها الجنة في كلب كان يلهث من العطش فملأت له حذاءها من البئر وسقته، فقلت في نفسي فما بالُ هذين الوالدين في تعاملهما مع أكرم وأغلى وأجلِّ وأطهر أرواح تحملها الأرض، أطفالنا فلذات أكبادنا التي تمشي على الأرض، فإن كان هناك من دخل الجنة والنار في كلب وقطة فما عذابُ هذين الأبوين، وهل ستغني عنهما اللحية وتقصير الثوب والنقاب؟ وأيُّ فهم سطحي للإسلام هذا؟ وأي جهل واستهتار ومكابرة؟!

أضفْ إلى ذلك ما ستخلفه هذه التجاربُ عند هؤلاء الأطفال من إحساس بالهجر والتخلّي والإهمال، وقد أوضحت دراساتُ علمِ النفس أن تكرار مثل هذه المواقف في مرحلة الطفولة يخلق عندَ الأطفال الإحساسَ بفقدان القيمة وفقدان الإيمان بالقدرة على التغيير، حيث إنَّ البكاء هو وسيلة التعبير الوحيدة عند الأطفال وبتكرار تجاهلهم بالرغم من استمرارهم في البكاء والنداء والصراخ، يتكون عند الأطفال الإيمانُ بأنهم عديمو القيمة عند أهلهم، وأنه لا يوجد مَن ينصت إليهم وإلى معاناتهم، فيخرج جيلٌ سلبي، عاجز عن التغيير والإبداع ومجتمعات سلبية فاقدة الثقة بنفسها في تغيير الظروف التي تفرضُ عليها، وإن كان فيها قهر وظلم وتعسف ومهانة وذل.

وإنْ كان هذا ما يعامل به الآباء مَن استرعاهم الله من الأبناء وفلذات الأكباد من أصلابهم، فلا ننتظر من مجتمعاتنا غير ذلك من معاملة المدرس لطلبته والمدير لموظفيه والحاكم لشعبه، وكلُّكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته، أو كما قال صلوات الله وسلامه عليه: (ما من امرئ استرعاه اللهُ رعية يموت يوم يموت وهو غاشٌّ لرعيته إلَّا حرّم الله عليه الجنة) (171).

فاتَّقوا الله في رعاياكم.

---

(171) رواه معقل بن يسار، صحيح مسلم، برقم 142.

اتقوا الله في رعاياكم (2)

تلقَّيت بعدَ ساعات من نشر مقالي السابق عشراتِ الفاكسات التي استمرت والرَّسائل الإلكترونية تتوالى على مدار ثلاثة أيام متتالية وكأنني وضعت يدي على جرحٍ عميق فأصبت موجعًا.

وقدِ استبشرت خيرًا لمّا قرأت من رسائل تدلُّ على أن من أفراد المجتمع مَن يدرك أمراضَ مجتمعه، ويعلم مواضعَ الألم وفي الاعتراف بالمرض أول أسباب الأخذ بالعلاج وإدراك الشفاء بإذن الله.

ولم تختلفِ الرسائل كثيرًا بعضها عن بعض، بالرغم من تنوع الخلفية العلمية والفكرية والاجتماعية لكتّابها، وقد تعدتِ المائة رسالة، وكلها تدعم ما كتبت، وقد غمَرني أصحابها بكلماتٍ ومشاعر فياضة أشعر أنني لا أستحقها، وإنما هو فضل الله يوفق إليه سبحانه مَن يحب مِن عباده فضلًا وكرمًا وودًّا، ويستعملنا كيفما شاء أينما شاء متى شاء، فله الحمد والشكر والمنة أولًا وأخيرًا.

وقدِ استوقفتني رسالة تحملُ في طيّاتها مثل ما حملته أخواتها من ودّ ومحبة ومشاعر فياضة، إلّا أنَّ صاحبها أضاف للخطاب عتابًا رقيقًا فأحببت أن يشاركني القرّاء فحوى العتاب..

عاتبني القارئ الكريم في ذكري لمواصفات الوالدين اللذيْن ارتكبا الخطأ في حقِّ أبنائهما وفي حقِّ المجتمع قبل هذا، وفي حقِّ الله الذي ائتمنهما على أغلى ما تحمله الأرض من أرواح طاهرة، فقلت في مقالي: (وبعد ساعة كاملة من الزمن في الساعة الحادية عشرة مساء، ظهر من على بعد رجل وامرأة يمشيان الهوينا، أما الرجل فتظهر عليه السمات الخارجية للتدين من لحية وتقصير ثوب، وأما المرأة فمنقبة من شعرها إلى أخمص قدميها).

إنَّ من أكبر الفتن أنْ ترتكب الأخطاء والتجاوزات الأخلاقية من قبَل مَن نذروا أنفسهم أن يكونوا ممثلين لصور الالتزام الديني، فمَن يعفي لحيته اتباعًا لسنة رسول الله ﷺ يصبح، سواء شاءَ أو أبى، ممثلًا لصورة المسلم الملتزم، وكذلك الحال في كلّ صور الالتزام الخارجية، وهذا الالتزام يقتضي من صاحبِه مراقبة مضاعفة لنفسه ولتصرفاته، فالمجتمع ينظر إليه ويفترض منه أن يكونَ فيه انعكاسٌ أخلاقي وتربوي وروحي للصورة الخارجية، وبذلك نستطيع أن نتجنَّب أن يصبح الدينُ أشبه ما يكون بالطقوس والشعائر والمظاهر الخارجية المفرغة من مضامينها وروحها التي بعث نبيُّ الأمة ﷺ ليحييها ويتمِّمها: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) (173) وألا تكون فتنة الصد عن سبيل الله لعدم موافقة الجوهر للظاهر واللبِّ للقشرة والأصل للفرع والمضمون للغلاف.

والإسلام حجةٌ على المسلمين، أما المسلمون فليسوا حجةً على الإسلام، والعمل الذي لا يوافق روحَ الإسلام وآدابه ومقاصده، فالإسلام بريء منه، كما جاء في الأثر: (إنما يُعرف الرجال بالحق ولا يُعرف الحق بالرجال) (172).

ولقد كان دافعي في ذكر ما ذكرتُ هو غيرتي على سنة رسول الله ﷺ، فلا بدَّ لمن يحملها ويرتديها أن يحمل معها آدابَ حملها ومصداقيتها في اللبِّ والمضمون والجوهر، وإلَّا فتكون الفتنة، وتؤتى السنة من قبله وهو لا يدري.

ولا بدَّ أن أسجِّل في النهاية أنَّ الأخ الكريم والد الأطفال قد تجاوب تجاوبًا كريمًا يشكَر عليه، وإنَّا نحسبه بإذن الله من أهل الخير والقدوة الحسنة إنْ شاء الله.. والله من وراء القصد.

(173) رواه أحمد والحاكم، والبيهقي واللفظ له.

(172) القول منسوب للإمام علي بن أبي طالب.

برامجُ التَّوعية

دخلتُ على زوجتي البيتَ فوجدتها حزينةً غضبى، حيث إنه استوقفها موقف مشابه للذي أوقفني قبلَ ذلك؛ أطفالٌ محبوسون في سيارة من السيارات الفارهة لأكثر مِن ساعة دون رقيب أو سائقٍ أو والدَيْن، وعندما سألت زوجتي أحدَ الأطفال داخل السيارة أجابت الطفلةُ باكية بأنَّ والدتها تركتها في السيارة ودخلت مقهى ستاربكس، ومرَّة أخرى بعد فترةٍ ليست بالقليلة عنْ موقفي الأول تقف زوجتي موقفًا مماثلًا للَّذي وقفت ولا تستطيع فعلَ شيء، حيث إنه لم يستحدث أيُّ شيء طوال هذه المدَّة، بالرَّغم من تسليط الضوء على المشكلة، وإيصالها إلى شريحة كبيرة من المجتمع، ومن المسئولين!

أين هي برامجُ التوعية التي تمَّت منذ أن كتبتُ مقالي الأول قبل ذلك؟ وقد رأيت ما وصل إليه من تجاوبٍ كبير قدْ حظي به المقال؟! وأين هي القوانينُ الجديدة التي استُحدثت لحماية الطفل والتأكد من عدم تكرار مثل هذا النوع من الإهمال في حقِّ أغلى ما تحمل الأرض؛ (أطفالنا)؟ بل وأسمّيها جريمة في حق الأطفال أحباب الله، حيث إنني ما أزال أذكر صورةَ أطفالٍ سعوديّين يُعالجون في مدينة بوسطن من حروق من الدرجة الثّالثة نتيجة إهمال آبائهم لهم، وتركهم في السيارة والذهاب لقضاء حوائجهم ليجدوا أولادَهم قد احترقوا، ولم يبقَ جزءٌ من أجسادهم إلَّا وشويَ بالنار. واليوم يمشي هؤلاء الأطفال على الأرض بوجوهٍ مشوَّهة وجلود تدعو للنفور وتقذف الرعب أو الشفقة في قلوب من يراهم. وقد شاهدت زوجتي برنامجًا تليفزيونيًّا فيه مقابلة لامرأة تركت أبناءها لمدة دقائق فقط بعيدًا عن بصرِها لأقلَّ من دقيقتين لتعود وتراهم يحترقون أمام عينيها، وطفلها الأكبر يحاول جاهدًا تخليصَ طفلها الأصغر، ولكنه فشل، وجيء بصورة

أطفالها الذين فقدوا معالمَ وجوههم وتشوَّهوا تشويهًا كاملًا، ولم يبق إلَّا العينان. تقول الأم إنها ستعيش بقيةَ حياتها تموت كلّ يوم مئاتِ المرات وهي تنظر إلى وجوه أبنائها الثلاثة وتتقطَّع ألمًا وحسرة وندمًا على الدقائق التي أهملت فيها أطفالها وتركتهم في السيارة بدون رقيب.

إلى متى سنظلُّ نكتب وننادي ونصرخ، ولا نجد ردودَ أفعال تتناسب مع ما نطرح ونشخِّص من أمراض اجتماعية؟ أيُّ سلبية هذه التي نعيش فيها؟..

متى سنرى برامجَ توعية للسلامة في إعلامنا وتحذير من عاقبة إهمال الأطفال؟..

متى سيكون هناك خطٌّ ساخن مفتوح لأيِّ مواطن يرى إهمالًا لطفل أو مخالفة لحق عام يساعدنا أن نُسهم في حماية أطفال مجتمعنا والممتلكات العامة لمجتمعنا والتي نحن فيها جميعًا ملّاك وشركاء كالجسد الواحد.

هل سنجدُ لندائنا وصراخنا هذه المرَّة إجابةً من المسئولين؟

أم أنَّ حالنا سيكون مثلَ حال الأطفال المهملين الذين لا يُستجاب لندائهم أو صراخهم؟..

(وكلُّكم راع وكلُّكم مسئول عن رعيته) (174).

---

(174) جزء من حديث، متفق عليه.

قلبُ التَّغيير

طالعت كتابًا بعنوان (قلب التغيير) (The Heart of Change) وهو أحدُ الكتب التي صدرت من جامعة هارفرد، ويتحدث عن الدروس المستفادة من قصصٍ واقعية لأشخاص استطاعوا أن يغيروا مؤسساتهم وشركاتهم ومجتمعاتهم. ولا أدري لِمَ سيطرَ علي أثناء مطالعتي الشعورُ بالمسئولية الطبية حيال المجتمع؛ فالطبيب شغله الشاغل هو الإنسان، وكل ما يكفل السلامة والصحة الجسدية والعقلية والنفسية للإنسان، ولا ينحصر دور الطبيب فيما يقوم به في المستشفى أو العيادة أو غرفة العمليات، فالطبيب ذو القلب الحي يعاني بمعاناة الإنسان ويسعد بسعادة الإنسان، بل وإن كثيرًا من الأمراض التي يعالجها الطبيب هي انعكاس لمعاناةِ الإنسان في حياته، سواء كانت معاناة جسدية أو عقلية أو نفسية، ودور الطبيب هو معالجة الإنسان بشموليته من جسد وعقل وروح، ولذلك كان يلقب الطبيبُ بالحكيم لما تكسبه مشاركة معاناة الإنسان من حكمة لتعينه هذه الحكمة أن يضعَ أصبعه على نبض مجتمعه وفهْم معاناته وكلّ ما يؤثر سلبًا وإيجابًا على سلامة وصحة الإنسان.

وكتابُ (قلب التغيير) كتابٌ قيِّم لكل عامل للإصلاح والتغيير، ويحدد الكاتب 8 خطواتٍ رئيسية لإحداث أيِّ تغيير:

1. رفعُ الإحساس بأهمية وضرورة التغيير (Increase Urgency) حيث يصبح حديث الكل، لا بدَّ لنا أن نفعل شيئًا لتغيير الوضع وللإصلاح.

2. بناءُ الفريق المؤهَّل بالأخلاقيات اللازمة لتحقيق التغيير وبناء الثقة بين أفراد فريق العمل (Building the Team).

3. التأكدُ من وضوح الهدف والغاية (Get the Value right)

ومساعدة فريق العمل على الأخذ بخطوات جريئة لإنشاء إستراتيجيات جريئة لتحقيق الأهداف والغايات الجريئة.

4. إيصالُ رسائل واضحة وصادقة عن اتجاه التغيير واستعمال الكلمات والأعمال والتقنية الحديثة لتسهيل قنوات الاتصال بين أفراد فريق العمل لتفادي التخبط وفقدان الثقة (Communication for Buy-in).

5. تذليلُ العقبات على الواقع والعقبات النفسية في أفراد فريق العمل حتَّى يتسنَّى لهم التصرف بطريقة مغايرة والمشاركة الفعالة في التغيير (Empower Action).

6. استحداثُ معايير نجاح محددة في الطريق لتزيد من عزم فريق العمل، وتحمي الفريق من آفات تأخر رؤية النجاح أو الغموض في تعريف النجاح (Create short-term win).

7. التصميمُ والإصرار وعدم الاستسلام للتعب أو التوقف إلَّا عندما يتحقق الهدف، وإنْ كانت التفاصيل مضنية، ولذلك يتحتم عدم استنزاف الطاقات في المشاكل الصغيرة (Don't let up).

8. التأكدُ من استمرار فريق العمل في اتجاه الهدف بالرغم من كلّ الضغوط التي تعارض التغيير (Make change strike).

إنَّ هذه الخطوات اللازمة لتحقيق أي تغيير ليست رأي الكاتب وإنما بُنيت على دراسات ميدانية ومدعومة في الكتاب بأمثلة عديدة لأشخاص نجحوا في تغيير مجتمعاتهم ومؤسساتهم وشركاتهم، وأمثلة أخرى عديدة لأشخاص أهملوا بعض هذه الخطوات، وفشلوا في إنجاز التغييرات اللازمة.

كتابٌ قيّم وعملي ومدعوم بصور حية ونماذج من الحياة يستحق قراءة كلّ من يسعى للإصلاح والتغيير للأفضل.

في الصحة العامة

ومَن أحياها فكأنَّما أحيا الناسَ جميعًا

حدَّثني بعضُ زملاء المهنة عن تفشي ظاهرة سلبية في مجتمعاتنا هي جهل الأغلبية العظمى من المجتمع بالإسعافات الأولية إذا اقتضت الضرورة. وبدأت في تقصّي هذه الظاهرة بالسؤال والتحري، فراعني عددُ القصص والحوادث التي وصلتْ إلى مسمعي... وما خفي كان أعظم.

وممّا سمعت أنه في حالةِ وقوع حوادث السيارات وإصابة أفراد بإصابات بالغة أو في حالة سقوط أحد المشاة مغمى عليه من جرّاء ذبحة صدرية، ففي كثير من الأحيان يتجمع الناسُ حول الحادث أو المريض، وقلَّما تجدُ من هو قادر على التصرف بطريقةٍ إيجابية صحيحة فتضيع دقائق ثمينة، وفي بعض الأحيان تضيع عشرات الدقائق.

وهذه الدقائقُ هي التي يمكن فيها إنقاذُ المريض بإذن الله بدون ترك عاهة مستديمة من جرّاء انقطاع الدم عن الدماغ أو القلب أو النزيف المستمر أو توقف القلب عن العمل.

ذكَّرني ذلك بحادثةٍ عايشتها بنفسي حيث أحضرت لنا سيدة في الستين من عمرها في حالة توقفٍ كامل للقلب والجهاز التنفسي، وقد أجريت لها الخطوات اللازمة من الضربات الكهربائية القلبية ووضع أنبوب التنفس الصناعي، وشاء الله لها أن يعودَ قلبها للعمل. وبعد ثلاثة أيام سحب أنبوب التنفس الصناعي وبعدها بستة أيام عادتْ لحالتها الطبيعية وأرسلت إلى بيتها لتمارس نشاطها اليومي.

وقد تبيَّن لنا أنَّ الفترة الزمنية ما بين توقف القلب عن العمل

وإغمائها وحضور الإسعاف جاوزت الاثنتي عشرة (دقيقة). وهي مدة كافية للوفاة، لكن الذي حدث هو أنَّ حفيديها البالغيْن من العمر أربع عشرة سنة واثنتي عشرة سنة قاما بطلب الإسعاف هاتفيًّا ومن ثمَّ بدءا بعملية التنفس الاصطناعي (إعطاء الهواء عن طريق الفم) ودلك القلب إلى أنْ حضر رجال الإسعاف وباشروا عملهم. وقد أكد رجالُ الإسعاف بناء على ما رأوه صحةَ الإسعافات الأولية التي قام بها الحفيدان.

وعندَ سؤال الحفيدين عنْ كيفية تعلمهما للإسعافات الأولية ذكرَا لنا أنهما تعلماها في المدرسة كجزءٍ من المنهاج الدراسي. ومازالت المريضة حتَّى يومنا هذا على قيْد الحياة وتتمتَّع بصحة جيدة وهي تناهز الخامسة والستين عامًا.

إنَّ الأعمار بيد الله، والقضاء والقدر عند الله، ولكنَّ الأخذ بالأسباب واجبٌ على المسلم. وهذه الأسباب كذلك من قضاء الله وقدره.. وهذا ما فقهَهُ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما قال: (نفرُّ من قدر الله إلى قدر الله) (176) وذلك عندما أبى أنْ يدخل الشام عندما وقع فيها الوباء ورجعَ بالناس، فقال له أبو عبيدة بن الجراح: أفرارًا من قدر الله، فقال عمر: (لو غيرك قالها يا أبا عبيدة! نعم نفرُّ من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت لو كانت لك إبلٌ فهبطت واديًا له عدوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة، أليس إنْ رعيت الخصبة رعيتها بقدرِ الله، وإن رعيت الجدبة رعيتَها بقدر الله).

والأخذُ بالأسباب في هذه القضية بالذات والتي فيها حفظ النفس وهي أحدُ المقاصد العليا للشريعة الإسلامية هو أمرٌ عظيم عند الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا

النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (175)، بل وقد نأثمُ عند فقْد نفس بسبب تقاعسنا عن الأخذ بالأسباب التي سخَّرها الله لنا وأمرنا بالأخذ بها.

وأهمُّ طرق الحفاظ على هذه النفس نشرُ الوعي الطبي وبالذات الإسعافات الأولية لأكبر قدرٍ من أفراد المجتمع، ولا يتمُّ ذلك إلَّا إذا أدركنا أهمية هذه القضية وبدأنا في العمل على توفير البرامج التعليمية على جميع المستويات الدراسية بمراحلها المتعددة والجامعية والقطاعات الخاصة والمرافق الحكومية وللآباء والأمهات، ووضع الحوافز المعنوية، بل والمادية، لإكمال هذه البرامج المركزة والتي لا تستغرق أكثرَ من نصف يوم يقوم فيه المشاركون بممارسة الإسعافات الأولية بإشراف مدرسين، ومن ثمَّ تعقدُ لهم اختبارات ثمَّ تقدم شهاداتٌ بإكمال هذه الدورة.. وكثيرٌ من الدول الغربية تقوم بمثل هذه البرامج.

إنَّ حفظَ النفس من المقاصد العليا للشريعة الإسلامية التي لا يجوز التساهل والتهاون فيها، فهي مسئولية عظمى تقع على عاتقنا.. وإغفال الأخذ بأسباب حفظها هو إهدارٌ لها.. وإجحاف في حقِّها... وتجاهلٌ لسُنة الله في خلقها.. وهو تواكلٌ مذموم لا توكُّل محمود.

---

(176) رواه عبد الله بن عباس، صحيح البخاري، برقم 5729.

(175) سورة المائدة، من الآية 32.

مِن حقّ المريضِ أن يعْرف

إنَّ لأيِّ عملية جراحية صغرت أم كبرت نسبةَ احتماليةِ حدوث مضاعفات جانبية، وهذه النسبة تختلف من عملية إلى أخرى بحسب تعقيدها وصعوبتها، وتُحَدّد هذه النسبة لكلِّ عملية جراحية، فيقال مثلًا إن النسبة المقبولة والمتعارف عليها دوليًّا لحدوث مضاعفات جانبية خطيرة من جراء عمليات القلب المفتوح تتراوح ما بين 1 – 3 %، وهذه النسبة هي نتيجة خبرات سنوات طويلة لمثل هذه العمليات على أيدي جرّاحين مَهرة وذوي كفاءة عالية من أقطار مختلفة، وتُحدِّد هذه النسبة عواملُ كثيرة منها: أعمار الأشخاص المجرى عليهم العملية وحالتهم الصحية قبل العملية، والإمكانيات التقنية والصحية المتاحة وكفاءة الجراح وجهاز التمريض والمتابعة في المستشفى.. إلخ.

وفي الدول الغربية مثل الولايات المتحدة الأمريكية يقوم الطبيبُ والجراح قبل العملية بذكْر وتوضيح نسبة احتمالية المضاعفات الجانبية الخطيرة للمريض، بل ويعدِّدها له فيذكر له احتمالية الإصابة بالعاهات الدائمة والشلل والالتهابات الخطيرة، بل والغيبوبة والموت، وإنْ كانت نسبة احتمالية الإصابة بكل هذه المضاعفات مجتمعة تقلُّ عن واحد في الألف.

أمّا في مجتمعاتنا العربية، فإنَّ كثيرًا من المرضى لا يحبون أن يستمعوا إلى مثل هذه الاحتمالات والإحصائيات، ويتشاءمون من ذكرها، وبالطبع إن كانت نسبة الإصابة بالمضاعفات الجانبية في عملية ما أقلّ من 1% فإن 99% من المرضى لن يعانوا من أيِّ مضاعفات جانبية، ولكن يبقى واحدٌ في المائة 1% قد يصاب بالمضاعفات الجانبية، وعندئذٍ يُصدم المريض وأهل المريض بما حدث، ويبدأ المريض وأهله بلوْم الطبيب في أنه لم يشرحْ لهم

قبل العملية مدى خطورتها، بل إنَّهم لو علموا بأنها على هذا القدْر من الخطورة لما أقدموا عليها، وتبدأ مهاجمة الطبيب والمستشفى، وقد يكون الطبيب المُهاجَمُ من أقدر الأطباء والجراحين، وأن نسبة المضاعفات الجانبية في العمليات التي قام بها أفضل من النسبة العالمية المتعارف عليها لمثل هذه العملية، وهذا بالطبع قد يؤدي إلى فقد الثقة في الطبيب وفي المستشفى بل وفي الجهاز الصحي في الدولة بشكل عام.

وأطرف ما سمعت من زميل في المهنة أنَّ أحدَ الأطباء القديرين في إحدى الدول العربية شرح لمريضه نسبة احتمالية حدوث المضاعفات الجانبية وعدّدها له بدقة وصدقٍ وإخلاص، لكن المريض خرج مذعورًا ومستاءً من الطبيب ومن المستشفى، وفي اليوم التالي تلقى المستشفى خطابًا رسميًّا من شخصية مرموقة ومِن كبار المسئولين في تلك الدولة يعرض فيه على المستشفى جميع المغريات المالية ويؤكد أهميةَ هذا الشخص لديهم، ويطلب من المستشفى إرسال خطابٍ رسمي تؤكد فيه نجاحَ العملية بدون مضاعفات، أي بمعنى آخر يطلب من المستشفى أن تجعل نسبةَ حدوث المضاعفات الجانبية صفرًا وتُجزم على عدم حدوثها، في حين أنَّ النسبة العالمية المتعارف عليها في أعظم مراكز الطب في العالم هي (1%) أو يزيد، وهذا ليس بمقدور البشر وإنما هو بيد الله وحده.

إنَّ كثيرًا من المشاكل التي تحدث في الأجهزة الصحية في مجتمعاتنا والتي يكون الطبيب والمريض طرفيْن فيها؛ هي نتيجةُ تقصير الطبيب في شرح تفاصيل العملية ومضاعفاتها الجانبية، إمّا خوفًا منه أن يُفهم ذلك خطأ فيُشكّك في قدرته وكفاءته، أو ظنًّا منه أنَّ ذلك أصلح لحالة المريض النفسية، وهذا خطأ جسيم أدرك الغربُ خطورته فأصبح قانونًا يدرَّس في كليات الطب

الأمريكية، وهو أن من حقِّ المريض أن يعرف كلّ شيء عن العملية ومضاعفاتها، ولا يجوز لأحد أن يفرط في ذلك الحق إطلاقًا.

وإذا تعوّد المريض هذا الأسلوبَ فإنه لن يهرب من الطبيب الذي يُخلص له في الشرح والتوضيح، ولن يذهبَ إلى طبيب آخر قد لا يكون على قدر العلم والخبرة والكفاءة، إلَّا أنه يُخفي عن مريضه بعض الحقائق والمضاعفات الممكن وقوعها فيقول له: (لا تخف. كلّ شيء سيكون على ما يرام والعملية بسيطة ولا تشغل بالك). وكما ذكرنا فإنَّ في 99% لن تحدث مضاعفات، ولكن في 1% عندما تحدث هذه المضاعفات تبدأ المشاكل.

وبالطبع قد تحدث مضاعفات نتيجة أخطاء من قبل الطبيب المعالج أو الجرّاح أو جهاز التمريض والمستشفى، ولكن الذي يحدد هذا الخطأ ويميزه عن المضاعفات الجانبية الممكن حدوثها لمثل هذه العمليات؛ هُم أهل العلم والخبرة وليس سواد المجتمع أو أهل المريض.

إنَّنا نحتاج لرفع الوعي الصحي في مجتمعاتنا.. وجزء كبير من هذا الوعي يقع على عاتق الطبيب.. على الطبيب أن يتعلم كيف يشرح للمريض المضاعفات الجانبية الممكن حدوثُها بأسلوب مقبول قدرَ المستطاع، فهذا حقٌّ من حقوق المريض.. وعلى المريض أن يتعلم كيف يستمعَ لمثل هذه التفاصيل، وإنّ ذِكر هذه المضاعفات قبلَ العملية ليس فيه تشكيك في قدرة الطبيب وكفاءته، وإنما هي حقيقة لا نستطيع أن نتجاهلها أو نغفلها مادامت نسبةُ حدوث هذه المضاعفات مقبولة عالميًّا.

كما نحتاجُ إلى إيجاد طريقة تسمح للمريض بمعرفة نسبة حدوث المضاعفات الجانبية لكلِّ طبيب ولكلِّ مستشفى، وعدد العمليات

التي قام بها الطبيب، بحيث يستطيع الطبيب أن يذكر لمريضه عددَ العمليات التي قام بها والنسبة العالمية للإصابة، والمضاعفات الجانبية لمثل هذه العملية ونسبتها في العمليات التي قام هو بها.

ويقوم جهازٌ صحي بتولّي متابعة سير هذا البرنامج، وتقوم المستشفيات والأطباء بالالتزام بتسجيل جميع المضاعفات الجانبية، ومن ثمَّ إفراز تقارير عن كلّ مستشفى وعن كلّ طبيب.. وبذلك نكون قد قدّمنا للمريض طريقة علمية دقيقة للمقارنة فيكون المريضُ على بيّنة من أمره، ويكون حكمه على الطبيب أكثر موضوعية، بعيدًا عن اعتبارات شخصية قد تؤدي إلى مبالغة وإجحاف.

لا حياءَ في تعلُّم الدِّين

يُعد الضعفُ الجنسي من أكثر الأمراض انتشارًا في عصرنا هذا الذي كثر فيه استعمالُ العقاقير الطبية والتدخين وشربُ الخمور وأمراض الضغط المرتفع والسُّكر والضغوط النفسية والعصبية وأنماط الحياة غير الصحية وعوامل الإثارة المُصطنعة، وغيرها من العوامل الكثيرة التي منها ما كان واضحًا جليًّا، ومنها ما خفي.

وقد كانت صعوبةُ العلاج هي رفضَ المرضى الذهابَ للطبيب من أجل العلاج، ظنًّا منهم أنَّ في هذا خدشًا لرجولتهم. وتستمرُّ المشكلة وتتفاقم بدون علاج، بل وقد تؤدي إلى هدم كيان الحياة الزوجية والانفصال والطلاق في حالات عديدة، مع العلم أنَّ كثيرًا من الأمراض المسبِّبة للضعف الجنسي يمكن علاجها، بل وقد يكون العلاج بسيطًا، فقد يكون المرضُ نتيجة استعمال دواءٍ يومي مثل بعض الأدوية المُعالجة للقرحة وحموضة المعدة، أو بعض أدوية علاج الضغط المرتفع، وبمجرد استبدال هذه الأدوية بأخرى يتمُّ الشفاء، أو قد تكون نتيجة التدخين، وعلى حسب قوَّة إرادةِ المريض وقدرته على الإقلاع يتمُّ شفاء المريض بإذن الله، ويمكن تشخيصُ ذلك بجهازٍ خاص (ولا يتَّسع المجال في هذه المقالة للتفصيل). أو يكون الضعفُ الجنسي نتيجةَ عوامل نفسية في اللاشعور، وبمجرد مساعدة المريض على تداركها وفهمِها حقَّ الفهم تنتقلُ من حيِّز اللاشعور إلى بؤرة الإدراك والشعور، فيستطيع المريضُ التعامل معها بطريقةٍ أفضل بمساعدة أخصائيّين في هذا المجال.

وبالطبع، فإنَّ هناك حالات أكثر تعقيدًا، وتستلزم معايير أخرى للعلاج.

ومعَ تقدُّم العلم أثمرتِ البرامج التعليمية على جميع المستويات في

إقدام الكثير على العلاج حيث يتمُّ بالفعل النجاحُ في علاج المئات يوميًّا.

والرجل العربي يجدُ صعوبة في الاعتراف بمثل هذا المرض، ويخفيه حتَّى عن طبيبِه الخاص نتيجةً لمفهوم خاطئ وهو ظنُّه أن في ذلك خدشًا لرجولته.

إنَّ العدل والإنصاف من مقومات الرجولة، ولا رجولة بدون عدل وإنصاف، ومَنْ أوْلى بالعدل والإنصاف من زوجة الرجل! التي قد يمنعها الحياءُ من الشَّكوى إلَّا لله، بالرَّغم من أنه حقٌّ من حقوقها الذي وضَّحه الشارع بل وحدَّده، في هذا تفصيلٌ كثير لا يتَّسع المجال للخوضِ فيه، ومنه ما أُثر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حوارٍ دار بينه وبينَ امرأة تشتكي زوجها فتحدث عمر في ذلك، وشرح ما لها من حقوق، كما تحدث رسولُ الله ﷺ من قبْل، ولا حياء في تعلّم الدين.

إنَّ الرجولة الحقّة تحتِّم على المسلم إذا أصيب ببعض أعراض الضعف الجنسي أنْ يزور الطبيب المتخصصَ بحثًا عن السبب والعلاج، وما يدري لعلَّ العلاج أبسط بكثيرٍ ممَّا كان يظن، خاصَّة إذا شُخِّص في مراحله الأولى، ولا يدري لعلَّ التباطؤ والتقاعس وإهمالَ زيارة الطبيب المتخصص قد تؤدي إلى تفاقم السبب واستفحال المرض، وقد تتأخر زيارةُ الطبيب سنواتٍ عديدة يصعب عندها إزالةُ الضرر الذي حدثَ من الناحية الجسدية والفسيولوجية أو النفسية، أضفْ إلى ذلك ما قد يسببه في نفسيَّة الزوجة والعلاقة الزوجية.

وكُلوا واشْربوا ولا تُسْرفوا

تتزايد الأدلةُ العلمية التي تؤكد أنَّ السمنة وزيادة الوزن لهما تأثيرٌ سلبي مباشر على الصحة: كارتفاع ضغط الدم وارتفاع نسبة الكولسترول واحتمال الإصابة بمرض السكر وأمراض القلب وتشحم الكبد وحصوات المرارة وروماتيزم المفصل الغضروفي بالركبتين، بل وزيادة نسبة الإصابة ببعض أنواع السرطان.

وإنَّ مخاطر الضغطِ المرتفع لا تخفى على الكثيرِ من الناس، فهي تؤدي على المدى البعيد إلى الإصابةِ بأمراض القلب وتصلب الشرايين والبحة الصدرية وفشل عضلة القلب وجلطة الدماغ والفشل الكلوي.. وأكثر من هذا.

وقدْ وجد كذلك أنَّ زيادة الوزن تؤدي إلى ارتفاع نسبة الكولسترول في الدم، ومخاطر ارتفاع الكولسترول لا تخفى على كثيرٍ من الناس فالدراسات تشير إلى أنَّها تكون سبباً في حدوث تصلب الشرايين والذبحة الصدرية وغيرهما من أمراض الأوعية الدموية.

وقد وجد كذلك أنَّ الزيادة في الوزن أدَّت إلى زيادة نسبة الإصابة بمرض السكر بمقدار ضعفيْن إلى عشرة أضعاف مقارنةً بالأشخاص ذوي الوزن المثالي، وهذه الزيادة طردية، وتتوقف على مدى زيادة الوزن.

ولا يخفى على كثيرٍ من الناس ما يسبِّبه مرض السكر من مضاعفات خطيرة مثل: أمراض القلب والأوعية الدموية المختلفة كالعينين والأطراف والفشل الكلوي والأعصاب، وغيرها؛ بل ولا تكاد تستثني عضواً واحداً في الجسم.

وقد تأكدت العلاقةُ بين السمنة والسرطان بعدَ العديد من

الدراسات فقد وجد أن نسبةَ الإصابة بسرطان القولون والأمعاء الغليظة والبروستاتا كانت أعلى في الرجال ذوي الوزن المرتفع، مقارنةً بنظرائهم من ذوي الوزن المثالي، وقد وجد كذلك أنَّ نسبة الإصابة بسرطان المرارة والرحم والثدي كانت أعلى في النساء ذوات الوزن المرتفع، مقارنةً بنظرائهن من ذوات الوزن المثالي.

وخلاصةُ كلّ هذه الدراسات أنَّ زيادة الوزن والسمنة من الأمراض الخطيرة التي تزيدُ من نسبة الوفيات والإصابة بالأمراض القاتلة.

إنَّنا نعيش في عصرٍ تحكمه محدوديةُ الموارد والطاقات البشرية المادية، مما يستلزم تحديدَ الأولويات وحُسنَ تسخير وتوجيه الطاقات المحددة في قنواتها الصحيحة للحصول على أفضل مردود.

إنَّ معاييرَ التقدم الصحي بمفهومه الشامل المتكامل لا تكمن فقط في قدرتنا على امتلاكِ أحدث الأجهزة والمعدات الطبية والقيام بأعقد العمليات في مستشفياتنا مثل زراعة الأعضاء والقلب الصناعي؛ وإنما تكمن في إيجاد البرامج الصحية بعيدة المدى للوقاية من الأمراض قبلَ حدوثها، وتفادي المضاعفات قبل استفحالها.

إنَّنا نحتاج إلى برامج مكثفةٍ للوقاية الصحية وتوعية أفراد المجتمع عن: الغذاء الصحي وأضرار السمنة وزيادة الوزن وأهمية الرياضة اليومية والزيارة المنتظمة لعيادة الطبيب للكشف العام الدوري لفحص ضغط الدم والسكر والكولسترول، وغيرها من الأمراض التي غالبًا لا تظهر أعراضُها إلَّا في مراحلها المتأخرة. ونحتاج كذلك إلى إيجادِ برامج وأندية رياضية لكل أفراد المجتمع، صغارهم وكبارهم، رجالهم ونسائهم، بما يتَّفق مع آداب الإسلام.

ولا بدَّ من تسخير وسائل الإعلام المختلفة لهذا الهدف، وتخصيص ميزانية تتناسب معَ حجم وخطورة المشكلة المتوقعة في المستقبل القريب.

إنَّ شريعة الإسلام لم تترك مجالًا فيه خير للبشرية إلَّا وساعدت في تحقيقه، وإنَّ مجتمعاتنا تحظَى بخصائص وتعاليم سماوية لا يحظَى بها غيرها من المجتمعات العلمانية، ولا بدَّ من تسخير هذه التعاليم والآداب في التوعية والوقاية الصحية.

قال الرسولُ الكريم ﷺ: (ما ملأ ابنُ آدم وعاءً شرًّا من بطنه، بحسب ابن آدم لقيماتٍ يُقمن صلبه، فإن كان لا بدَّ فاعلًا فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلثٌ لنفسه) (178)، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ٣ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ٤﴾ (177).

---

(178) رواه الإمام أحمد والترمذي والنَّسائي وابن ماجه، وقال الترمذي: حديث حسن.

(177) سورة النجم: 4 - 3.

الدّواءُ.. شفاءٌ وداء

مِن حكمة الله أنه خلقَ المرض والصحة.. والداءَ والدواء.. فبغير المرض لا يفهم معنَى الصحة، وبغير الدّاء لن يبحثَ عن الدواء، ولن تنكشف لنا آياتُ الله في أنفسنا..

وقد خلقَ الله كلّ شيء بقدَرٍ ومعايير دقيقة (نسب دقيقة) ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (182) ووضع لنا ميزانًا نحتكم إليه، وسننًا تحكم هذه المعايير، ثمَّ طلب منَّا دراسة هذه السنن. وبهذا البحث العلمي في آيات الله الذي أمرنا به ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً﴾ (181) تتجلى لنا عظمة خالقنا وروعةُ وإبداع خلقه.

وهذه السننُ تحكم كلّ شيء بما فيها خلق الإنسان ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ (180) والتلاعبُ في هذه النِّسب الدقيقة بدون علم قد يؤدي إلى اختلالِ الميزان وفساد الأرض وما فيها من خلق الله.

وقد أنزل الله الداءَ والدَّواء كما قال رسولُ الله ﷺ: (إن الله أنزل الداءَ والدواء، وجعلَ لكلِّ داء دواء.. فتداووا ولا تداووا بالمحرم) (179).

وعلمُ الأبدان (الطب) هو من أعقدِ العلوم وأكثرها تحديًا للعقل البشري، ولذلك فإنه يتطلبُ من الذين ينتسبون لهذا العلم أن يقضوا عشراتِ السنين في التدريب وعلاج آلافِ الحالات والقراءة المستمرَّة وحضور المؤتمرات والدورات والتحضير للاختبارات العديدة قبل أن يحصلوا على شهادات مزاولة المهنة.

والدواءُ هو أحدُ أسلحة الطبيب التي يحرص على أن يتعامل

معها بدراية ودقة، فهو سلاحٌ ذو حديْن: نافع وضار، فكما أنه يأتي بالشفاء بإذن الله، وزوال الأعراض المرضية؛ إلَّا أنه يمكنه كذلك أنْ يتسبب في حدوث مرض آخر إذا أسيء استخدامُه، بالإضافة إلى الآثار الجانبية (الجوانب الضارة للدواء).

مِن الأمثلة الأخرى الشائعة، تناول الأدوية بدون حاجة أو تناول جرعات دوائية أعلى أو أقلَّ من المقرر، أو عدم الأخذ بعين الاعتبار كبر سنِّ المريض أو صغره أو إصابته بأمراضٍ أخرى جانبية قد تستلزم تفضيلَ دواء على آخر، أو تغيير الجرعة ومدة العلاج.

وهناك أمثلةٌ أخرى كثيرة لأخطاء يمكن أن يقعَ فيها من لم يأخذ هذا العلم بطريقته الصحيحة ولم يحصل على شهادة مزاولته.

ومنها الاستعمالُ المتزايد للمضادات الحيوية مما يجعل البكتيريا تكيِّف نفسها تدريجيًّا لمواجهةِ ومقاومة أيِّ مضاد حيوي، وعندما يساء استعمالُ مضادٍّ حيوي واحد فإنه قدْ تنشأ من جرَّاء ذلك بكتيريا ذات مناعة ضدَّ هذا المضاد الحيوي، وبذلك فإن قدرتَه على العلاج تضعف، وهذه البكتيريا الجديدة التي اكتسبت مناعة يمكنها أن تنتقلَ من شخص إلى آخر، بل ومن جيل إلى آخر.

ولذلك فإنَّ مَضار إساءة استخدام المضاد الحيوي تتعدى الفرد إلى المجتمع قاطبة، ومِن أجل ذلك يمنع صرف أي مضادٍ حيوي في الولايات المتحدة الأمريكية بدون وصفة الطبيب وتوقيعه ورقم رخصة مزاولته.

وأسبابُ الإساءة في استعمال المُضاد الحيوي في العالم العربي متعددة، منها ما يلي:

• سهولةُ الحصول على المضادات الحيوية في الصيدليات بدون وصفة الطبيب، وبالرغم من أنَّ بعض الدول العربية وضعت

قوانين تمنع مثل هذا العمل، إلَّا أن معظم الصيدليات لا تلتزم بذلك، بل ومن الصيادلة مَن ينتحل دور الطبيب في التشخيص وصرف الدواء، وفي هذا تجاوز لصلاحيته وحدود رخصة مزاولته.

• جهلُ كثير من المرضى بالفرق بين البكتيريا والفيروس ومتى يكون استعمالُ المضاد الحيوي ضرورة، ومتى يكون إساءة.

• عدمُ التزام المريض بأخذ المُضاد الحيوي كما يصفه الطبيب.

وقدْ لا يحتاج المريض إلى مضادٍّ حيوي، ولكنَّ كثيرًا من المرضى يدفعون الطبيب لصرف الدواء، وإذا لم يحصلوا على الوصفة التي يرْجونها فإنهم يبحثون عن طبيبٍ آخر أكثر تساهلًا في صرف الدواء، وبذلك قد يصبح الطبيب كذلك جزءًا من المشكلة.

وممّا يستحق الذكرَ في هذا المجال أنه يجب على الطبيب أخذ عينات التزريع المناسبة للمريض قبلَ بدء العلاج، وفي حالة عدم استجابة المريض للعلاج يستطيع الطبيبُ مراجعة نتائج التزريع ومعرفة البكتيريا المسببة للمرض والمضادات الحيوية الفعالة ضدها.

لقد خلق اللهُ كلّ شيء بقدر، ووضعَ لنا ميزانًا نحتكم إليه، والتلاعب في هذه النسب الدقيقة التي وضعتْ في الأرض وفي أنفسنا قد يؤدي إلى اختلال الميزان وفساد الأرض، ومن هذه الموازين التي وضعَها اللهُ لنا في أنفسنا النسب الدقيقة التي خُلقت بها البكتيريا في أجسامنا، فمنها ما هو ضارّ، ومنها ما هو غيرُ ضار، بل إنَّ هناك أنواعًا كثيرة من البكتيريا في أجسامنا تعمل أعمالًا نافعة مهمة مثل المساعدة في هضم الطعام في الأمعاء والجهاز الهضمي، وإذا قلت نسبة البكتيريا غيرِ الضارَّة فإن نسبة البكتيريا

الضارة قد تتزايد وتنمو وتؤدي إلى الأمراض.

ولذلك فإنَّه يتعين علينا أن تكون دراستُنا لسنن الله في أنفسنا دقيقة وعميقة ومتبحرة حتَّى تكون الأسبابُ التي نأخذها مُنسجمة مع النسب الدقيقة التي وضعها الله لنا، ولكي لا يختلَّ الميزان ويظهر الفساد في الأرض بما كسبت أيدينا، فالفهم القاصر للسننِ قد ينتج عنه الأخذُ بأسباب خاطئة قد تؤدي إلى غير غايتها المرجوة فتؤذي ولا تنفع، وتهدم ولا تبني.

وهنا تتجلَّى ضرورة قصوى في أنّه على كلّ عائلة أن تختار طبيبًا تثق فيه يكون مرجعًا لها في اتِّخاذ قرار تناول الدواء كما هو الحال في الغرب، فيكون هذا هو طبيبَ العائلة الذي يستطيع بعدَ فترة من الزمن أن يفهم احتياجات أفراد العائلة الجسدية والنفسية، ومدى تفاعل الدواء مع كلّ واحد منهم، فيكون بذلك أقرب للصواب في اتخاذ قرار العلاج وكيفيته.

---

(182) سورة القمر: 49.

(181) سورة آل عمران، من الآية 191.

(180) سورة الذاريات: 21.

(179) رواه أبو الدرداء، سنن أبي داود.

احذروا أدويةَ التَّخسيس

إنَّنا نعيش في عصرٍ يكثر فيه التركيز والاهتمام على الهيئة العامة والشكل الخارجي للأشخاص، وفي بعض المجتمعات المادية أصبح الشغل الشاغل هو تكوينَ جسمٍ رشيق، وفي هذه المجتمعات تكثر حالاتُ الإحباط النفسي عندما لا يتوافق المظهرُ الخارجي وتوقعات الشخص لنفسه، وكثيرًا ما يحدث هذا في الأشخاص من ذوي البدانة، وقد يؤدي في البعض إلى الانعزال التام عن المجتمع، بل والانتحار في بعض الحالات.

وقد يلجأ البعضُ إلى اتخاذ وسائل غير تقليدية للتخلص من الوزن الزائد مثل استعمال أدوية التخسيس بدون إذن الطبيب أو استشارته.

وللسِّمنة بالطبع أضرارٌ جسيمة حيث تتزايد الأدلةُ العلمية التي تؤكد أن لزيادة الوزن تأثيرًا سلبيًّا مباشرًا على الصحة: كارتفاع ضغط الدم وارتفاع نسبة الكولسترول واحتمال الإصابة بمرض السكر وأمراض القلب وتسمم الكبد وحصوات المرارة وروماتيزم المفصل الغضروفي بالركبتين بل وزيادة نسبة الإصابة ببعض أنواع السرطان.

ولذلك فإننا ننصح جميعَ الأفراد ذوي البدانة بالبدء، والجدية في اتخاذ الإجراءات اللازمة لتخفيفِ وزنهم بالطرق الطبيعية الصحية، وهي فعَّالة في كثير من الأشخاص إذا أخذت بجديَّة ووعي وإدراك.

ومِن هذه الوسائل: الرياضة المنتظمة، وتحديد كمية ونوعية الطعام المتناولة يوميًّا، وننصح كذلك بالاستعانة بأخصائيّي الغذاء، وهناك برامجُ للتخسيس تركز على الغذاء والرياضة والعوامل النفسية والتدريب على تقوية الإرادة، وغيرها من الأساليب

الطبيعية لمساعدة الشخص على تخفيف وزنه. ولقد عاصرت حالاتٍ كان الطبيبُ المعالج في أمريكا يضطرُّ في بعض الحالات المستعصية إلى استعمال أحد الأدوية المصرَّح بها من قبَل إدارة الغذاء والأدوية الأمريكية لمساعدة المريض على التخلص من الوزن الزائد، وذلك بعد أن تفشل الوسائلُ الطبيعية مع وجود أمراضٍ أخرى نتيجة ارتفاع الوزن مثل: الإصابة بمرض السكر وارتفاع ضغط الدم وآلام المفاصل والركبتين والتي يتوقع أن تتحسن بتخفيف الوزن.

وعلى القارئ الكريم أن يدرك أنَّ معظم إن لم تكن جميع أدوية التخسيس الموجودة في الأسواق لم تجْرَ عليها دراساتٌ كافية للتأكد من خلوها من المضاعفات بعيدة المدى، وأنَّه ليس من الصحي على أي حال، أن يفقد الشخص عشراتِ الكيلوجرامات في فترة زمنية وجيزة (أشهر) حيث إنَّ الجسم يظن في هذه الحالة أنَّ الشخص يمرُّ بمرحلة تجويع فيقوم الجسم بأخذ احتياطِيه في المستقبل بتكوين مخزونٍ دهني، ولذلك فعندما ينجح البعض في فقد هذا الوزن بسرعة ثمَّ يتوقفون عن عملية التخسيس؛ فإنَّ الوزن غالبًا ما يعود أعلى ممّا كان عليه.

إنَّ طريقة التخسيس الصحيحة تتطلب التدرجَ والاستمرارية في فقد ما لا يزيد عن بضعةِ كيلوجرامات في الشهر الواحد، ولفترة طويلة المدى، لكي يتأقلم الجسمُ مع التغيرات التي تطرأ نتيجة فقْد الوزن.

ولا يتمُّ ذلك إلَّا بالعزيمة والإصرار واتّباع أنماط الحياة والغذاء الصحية.

وهو اختبارٌ لصدق الإرادة وضبط النفس وقوة العزيمة.

برمجةُ الجنين

كان العلماء والأطباء ينظرون لكثيرٍ من الأمراض مثل: السكر والسمنة وأمراض القلب وسرطان الثدي وغيرها؛ على أنَّها نتيجة إمَّا لممارسة حياة غير صحية أو لضعفٍ في الجينات المكونة للمريض، ولكن هذا المفهوم بدأ يتغير منذُ فترةٍ، وبدأ العلماءُ والأطباء بناءً على نتائج الأبحاث الحديثة يفطنون إلى أن معظم الأمراض هي انعكاسٌ لما يسمَّى ببرمجة الجنين (Fetal Programming) داخل رحم الأم.

ويشير هذا العلمُ الجديد إلى أن كلّ يوم يقضيه الجنين في بطن الأم تتشكل فيه قابليةُ الطفل للإصابة بالأمراض التي قدْ لا تظهر إلَّا بعد سنِّ الأربعين.

مِن هذه الأمراض التي يعتقد العلماء حاليًا بأنها قد تكون نتيجة هذه البرمجة للجنين ما يلي: أمراض الضغط المرتفع وقابلية الإصابة بالضغوط العصبية والقابلية للإصابة بأمراض السمنة ومرض السكر والأمراض السرطانية والحساسية وأمراض القلب وارتفاع نسبة الكولسترول في الدم، وغيرها كثير.

أمّا قابلية الجنين للإصابة بأمراض السمنة في سنِّ البلوغ أو منتصف العمر فيعتقد أنَّها نتيجة سوءِ التغذية عند الأم الحامل خلال الأشهر الأولى من الحمل مما قد يعوق برمجةَ جهاز التحكم في الشهية عند الجنين، والتي قد لا تظهر توابعها وانعكاساتها إلَّا بعد عشرات السنين في منتصف العمر.

وأمّا قابلية الجنين للإصابة بمرض السكر فيعتقد أنها نتيجةُ تعرض الجنين لمعدلات سكر مرتفعة داخلَ الرحم، ممّا يجهد جهاز البنكرياس عند الجنين، ويجعله أكثرَ عرضة للإصابة بمرض السكر في سن متقدمة، وأما القابلية للإصابة بسرطان الثدي فيعتقد أنَّها

نتيجة تعرض الجنين في رحم الأم لمعدلات مرتفعة من هرمون النساء (الاستروجين)، ممّا يؤدي إلى تهيئة أنسجة وخلايا الأنثى للاستجابة لهرمون الاستروجين في سنٍّ متقدمة بطريقة تساعد على حدوث سرطان الثدي قبل سنِّ الخمسين عامًا.

وأمّا قابليةُ الإصابة بأمراض القلب والأوعية الدموية والضغط المرتفع فقد وجد أن الأطفالَ الذين يولدون بأقلَّ من الوزن الطبيعي هم معرضون أكثر من غيرهم للإصابة بأمراض القلب في منتصف العمر، ويعتقد الباحثون أنَّ حرمان الجنين من التغذية الصحية هو السببُ وراء ذلك، فيضطرُّ جسم الجنين في هذه الحالة لتوجيه الدم والأغذية للدماغ الذي هو أهمُّ عضو في الجسم على حساب باقي الأعضاء، ممّا قد يؤدي إلى عدمِ نمو كثيرٍ من الأعضاء بطريقة سليمة ومثالية، وبذلك تعجز كثيرٌ من الأعضاء عن القيام بوظائفها على أكمل وجه.

وعلى سبيل المثال، يصبح الكبد أصغرَ حجمًا وأقلَّ فعالية في التحكم في نسبة الكولسترول في الدم، وما يتبع ذلك من أمراض في الأوعية الدموية والقلب.

بل قدْ وجد أنَّ سوء التغذية عند الأم الحامل يؤدي إلى عجز المشيمة عن التخلص مِن هرمونات ضارة بالجنين إذا زادت عن معدلاتها الطبيعية، مثل هرمون الكورتيزون، حيث يزداد وصولُ هذا الهرمون إلى دماغ الجنين فيؤدي إلى عدم قدرتِه على التحكم في الضغوط العصبية في منتصف العمر.

إنَّ اكتشافات هذا العلم الجديد تضعُ على عاتق المرأة الحامل مسئولية أكبر، وتضاعف من أهمية الفحص الدوري ومراجعة الطبيب والالتزام بنصائحه وإرشاداته، واتباع أسلوب غذائي صحي متوازن وتفادي الأدوية الضارة والتدخين والمنبِّهات والخمور

بالطبع قبل وأثناء الحمل، واتباع نظام رياضي سليم ملائم للمرأة الحامل، ومحاولة تفادي الظروف التي تؤدي إلى التوتر العصبي.

إنَّنا في أمسّ الحاجةِ لرفع الوعي الصحي في مجتمعاتنا وتوفير برامج تعليمية متكاملة لجميع الأمَّهات الحوامل من دورات ونشرات وبرامج مسموعة ومرئية، فبدون وجود الوعي الصحي السليم يمكن للأمِّ الحامل أن تضرَّ بجنينها وهي لا تدري، وبذلك يدفع الفردُ والمجتمع كافة أعباءِ الأمراض المترتبة والتي يمكن تفاديها بالأخذ بأسباب الوقاية.

إنَّها حقًّا مسئولية الأطباء والمكلفين برفع الوعي الصحي في المجتمعات من قطاعات خاصَّة وحكومية، ومن أهل العلم في مجال الصحة قبل أن تكون مسئولية الأمهات، وإنَّها حقًّا مسئولية عظيمة.

فسيولوجيةُ السُّمو الرُّوحي

منذُ زمن طويل وعلماء الأعصاب والدماغ (Neuro Scientists) يحاولون دراسةَ التَّأثيرات الفسيولوجية التي تطرأ على الدماغ في حالات العبادة، وما ينتجُ عنها من خشوعٍ وارتقاء روحي، ونتجَ عن ذلك علم يسمى بعلم فسيولوجية الأعصاب في الدين والروحانيات (Neurobiology of Religion and Sprituality)، وقد خطا هذا العلم خطوات إيجابية بفضل الجهاز الذي يسمى (Single Photon Emission Computed Tomography - SPECT) يعمل (SPECT) على تتبع سيْر الدم في الدماغ بعدَ حقن مادة مُشعة في الدم، وبذلك يمكن للباحثين دراسة النَّشاط العصبي في الدماغ، حيث إنَّ سيْر الدم يتوافق مع النشاط العصبي. وأصبح هدفُ العلماء والباحثين تحديدَ المناطق التي تضيء (تنشط وتحث)، والمناطق التي تنطفئ (تصبح خاملة) عندما يعيش الإنسانُ لحظات من السمو الرُّوحي ويستشعر وجود الخالق.

وجدَ الباحثون أثناءَ دراستهم لظاهرة السُّمو الروحي والخشوع أنَّ المنطقة الأمامية (الناصية) من الدماغ قدْ أضاءت (كما هو متوقع) فهذه هي منطقة التركيز، ولكن الشيء غير المتوقع هو ما حدثَ للمناطق الأخرى في الدماغ من هدوءٍ وانعدام تام للنَّشاط العصبي، بل وإنَّ هناك منطقة في الدماغ (Superior Pariatal Lobe) قد انطفأت تمامًا، وهذه المنطقة هي المسئولة عن قدرة الإنسانِ على إدراك ومعرفة الوقت والزمن وتحديد اتّجاه الجسد في الفضاء، وهي المسئولة عن الشّعور بأبعاد الجسد (أين يبدأ وأين ينتهي) وعلاقته بما حوله من ماديات وأشياء.

وبالتحديد، فإنَّ الجزء الأيسر من هذه المنطقة في الدماغ هو

المسئولُ عن تحديد أبعاد الجسد البشري، أمّا الجزءُ الأيمن فهو المسئول عن خلق الإحساس بالأشياء التي تحيطُ بالإنسان، وأيُّ خلل أو إصابة في هذا الجزء من الدماغ يفقد الإنسان قدرتَه على التحرك وتحديد المسافات بينه وبين ما حوله.

وهذا ما يحدث للإنسان أثناءَ لحظات الخشوع والسُّمو الروحي من فقدان للشعور بالزمن والمكان، وهذه اللحظاتُ هي التي يصفها البعضُ بأنها اللحظات التي يستشعر الإنسانُ فيها ربه ويحسُّ بوجوده (Find God).

ويعتقد الباحثون أنَّ هذه اللحظات تنشأ من حدوث ما يشبه التيار الكهربائي في منطقةٍ من الدماغ تسمَّى الفصّ الصدغي (Temporal Lobe) وقد ينشأ هذا التيار نتيجةَ ضغطٍ عصبي أو نفسي أو حدوث كارثة شخصية أو إنهاك جسدي، وهذا يفسِّر ما يشعر به بعضُ الناس من قربهم لربهم أثناء الضغوط الجسدية أو النفسية أو العصبية، أو حدوث الكوارث الشخصية ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ (186). ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ (185)

ويعتقد الباحثون أنَّ التركيز العقلي والعاطفي أثناء العبادة سواء كان في صلاة أو تسبيح أو دعاء أو تأمُّل وتفكر يقوم بدفع الدماغ إلى نشاط عصبي (كهربائي) متزايد، تمامًا كما يفعل الخوف والكوارث، وعندما يحدث ذلك يقوم جزءٌ من الدماغ وهو المسئول عن إعادة التوازن في الدماغ يسمى هيبوكامبس بكبح جماح النَّشاطات العصبية (تمامًا كما تفعل فراملُ السيارة)، فالهيبوكامبس هو المسئول عنْ حركة مرور الأنشطة العصبية لأجزاء الدماغ المختلفة، وقد اتضح

أنه يقوم في هذه الحالات بمنْع وصول الإشارات العصبية لمناطق في الدماغ مثل المنطقة المذكورة سابقًا، والمسئولة عن القدرة على تحديد المكان والزمان، ولذلك يشعر الإنسانُ في حالات الخشوع والسُّمو الروحي أن الحدود والحواجز المادية التي تحيطُ به من حوله قد سقطت وأصبحت روحه طليقة تجوب الفضاء الواسع بحرية وتستشعر عظمةَ خالقها وتذوبُ في وحدانية الكون. (بل وقد وجد الباحثون أن المنطقةَ المُضاءة والمستثارة أثناء لحظات الخشوع (Temporal Lobe Speech Perception) هي في المنطقة المسئولة عن إدراك الكلام، وهذا يفسر دورَ قراءة أو سماع كلام الله أثناء الصلاة وتأثيره على إدراك السمو الروحي والخشوع، بل إنَّنا عندما نتأمل ما يحدثُ أثناء الصلاة التي كتبت علينا كمسلمين، وللبشرية جمعاء، وننظر إلى طريقةِ عمل الدماغ، كما نعرفه اليوم بعلمنا المتواضع، فإننا نجدُ توافقًا لا نجده في غيرها من العبادات حيث تعمل قراءة أو سماع كلماتِ الله أثناء الصلاة على استثارة وتنشيط المنطقة المفترض فيها أن تكونَ نشطة لإحداث وإدراك الخشوع والسمو الروحي، في حين تحرم مناطق أخرى في الدماغ من أيِّ نشاط عصبي كما شرحنا سابقًا، مثل المنطقة المسئولة عنْ تحديد المكان والزمان، فتكسر الحواجز المادية ويتلاشى عامل الزمن وترتقي النفس لخالقها وتسبح في ملكوته، بل إنَّ الدراسات الحديثة التي يقوم بها الغرب لتكشف لنا وجهًا آخر في حكمة اختيار الله للمعجزة الخالدة على أن تكون كلامًا يسمع ويقرأ القرآن الكريم ﴿أَوَلَم يَكْفِهِم أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (184). ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ

اللهﷺ (183). وقد أدرك صحابةُ رسول الله ﷺ معنى الصلاة فارتقت بهم مدارجُ السالكين، وكانوا يخرجون من هذه الدنيا فورَ دخولهم في الصلاة فلا يحدُّهم مكان أو زمان خمس مرات في اليوم.

قال الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز يومًا لابن أبي مليكة: (صفْ لنا عبد الله بن الزبير) فقال: (والله ما رأيت نفسًا ركبت بين جنبيْن مثل نفسه، ولقد كان يدخل في الصلاة فيخرج من كلّ شيء إليها، وكان يركعُ أو يسجد، فتقف العصافير فوق ظهره وكاهله لا تحسبه من طولِ ركوعه أو سجوده إلَّا جدارًا أو ثوبًا مطروحًا، ولقد مرَّت قذيفة منجنيق بين لحيتِه وصدره وهو يصلي، فوالله ما أحسّ بها ولا اهتزّ لها ولا قطع من أجلها قراءته ولا تعجل ركوعه).

---

(186) سورة الإسراء، من الآية 67.

(185) سورة يونس، من الآية 12.

(184) سورة العنكبوت: 51.

(183) سورة الزمر، من الآية 23.

تأثيرُ الإيمان على الصَّحةِ والجسد

هل يُعين الإيمانُ، وتعينُ الصلاة على الشفاء؟

سؤالٌ حيّر العلماء والباحثين قرونًا عديدة.

ولكنَّ حجمَ المعلومات العلمية التي تدعم علاقةَ الإيمان بالصحة في ازدياد مطرد يومًا بعد يوم. وهذه التجارب والأبحاثُ كلها تجيب عن السؤال السابق بنعم.. إن الإيمانَ يُعين على الشفاء، وله تأثيرٌ قوي على الحالة الجسدية والصحية والفسيولوجية.

كنتُ قد قرأت في مجلة التايمز الأمريكية مقالةً ليست الأولى من نوعها، ولكنها استعرضتْ بشكلٍ علمي دقيق بعضَ نتائج الأبحاث والدراسات التي أجريت في هذا المجال.

وقد قامَ كلّ من الباحثين الدكتور لفين Levine والدكتور لارسون Larson بكثيرٍ من هذه الدراسات وتحليل نتائج الدراسات السابقة في هذا المجال.

وهمَا يؤكدان أنَّ معظم هذه الدراسات تشيرُ إلى أن الإيمان والدين لهما تأثيرٌ عظيم على العلاج والشفاء.

وحيثُ إنه لا يسعنا أن نتطرقَ إلى كلّ الدراسات التي ذكرت في المقالة، فإنني سوف أقدمُ نبذة عن بعضِ هذه الدراسات ونتائجها باختصار شديد وإيجاز.

قام الدكتور ثوماس أوكسمان Thomas E. Oxman بدراسة 232 مريضًا قد أجريتْ لهم عمليةُ القلب المفتوح، وقد وجد أنَّ المرضى الذين استعانوا بالدين وأحسوا بالقوةِ والراحة من جرَّاء نظرتهم الدينية؛ كانت نسبةُ نجاح العملية لديهم ثلاثةَ أضعاف نُظرائهم من المرضى الذين لا يؤمنون بدين، ولا بحياة بعد الموت.

وقد اشتركَ في الدراسة 232 مريضًا.. توفِّي منهم 21 مريضًا في فترة الأشهر الستة التي تلتْ عملية القلب المفتوح.

ويبيّن الدكتور أوكسمان الذي قام بالدراسة أنَّ سبب الوفاة في معظم المرضى كان نتيجةً للغط في القلب؛ وهو خللٌ في انتظام دقات القلب. يقول الدكتور أوكسمان: من الممكن أن يكون للإيمان تأثيرٌ مباشر على فسيولوجية الجسد.. وعندما يكون العقلُ، وتكون الروح في حالةٍ متزنة وهادئة؛ فإنَّ احتمالية لغط القلب وعدم انتظامه تصبح أقلَّ حدوثًا.

وفي دراسةٍ أجريتْ على مدى 30 عامًا وجدَ أن الأشخاص الذين يؤمنون بوجود الله ويؤدُّون بعضَ الشعائر الدينية من صلوات ودعاء؛ يتمتَّعون بضغط دمٍ أقل من نُظرائهم غير المؤمنين، ومعدل الفرق في الضغط يفوق 5 م م. ليس هذا فحسب بل إنَّ نسبة إصابتهم بأمراضِ القلب أقل من نظرائهم بنسبة تفوق الخمسين بالمائة 50%.

وفي دراسةٍ أخرى قام بها المعهدُ القومي الأمريكي للدراسات المتخصصة في أمراض الهرم والعجز National Institute of Aging على 4000 شخص مُسنٍّ في شمال ولاية كارولينا، وجدَ أن الأشخاصَ المسنين الذين يؤمنون بالله ويؤدون بعضَ الشعائر الدينية والصلوات يتمتعون بانخفاضِ نسبة الإصابة بالأمراض النفسية والاكتئاب إذا ما قورنوا بنظرائهم غيرِ المؤمنين، بل وقد وجد أنهم أفضل صحة، وأقل إصابة بالأمراض الجسدية وأقوى مناعة وقدرة على مقاومة الأمراض بشكل عام.

وفي دراسة أخرى لثلاثينَ امرأةٍ مُسنة في فترة النقاهة التي تلتْ إصابتهنَّ بكسر في عظمة الحوض كانت أفضلُ نتائج العلاج وأسرع فترة نقاهة في النساء اللواتي يُؤمنّ بأنَّ الله هو مصدرُ القوة

والشفاء، ويقمنَ ببعض الصلوات والدعاء.

واستمرَّت المقالة في ذكر نتائج دراساتٍ أخرى من هذا القبيل، وكلُّها تشير إلى أن الإيمانَ والدين عاملان مساعدان في العلاج والشفاء.

ويؤكد الدكتورBenson ، وهو باحثٌ ومرجع في هذا المجال، ومؤلفٌ لعدة كتب تُرجمت إلى عدةِ لغات، أنَّ تكوين الإنسان الجسدي والفسيولوجي قد خلق بطريقة تتطلبُ الإيمان والدين للحصول على أفضل نتائج صحية، وأنَّ الارتخاء الجسدي والنفسي الذي يحدث أثناءَ الصلاة هو نتيجة التفاعلات الكيميائية الحيوية والعصبية والإفرازات الهرمونية، والتي بدوْرها تؤدي إلى انخفاض ضغط الدم وارتخاء عضلةِ القلب والشرايين، بل ولها تأثيرٌ مباشر على الجهاز المناعي في الجسم والقدرة على مقاومة الأمراض.

يقول الدكتور بنسون: إنَّ الإيمان عاملٌ فعال في علاج 60% إلى 90% من الأمراض المعتادة والمزمنة.

ويسأل الدكتور والباحث لفين Levin هل هي رعاية الله للمؤمنين التي تؤدي إلى سرعة الشفاء؟

ففي دراسةٍ قام بها الدكتور بايردByrd وهو طبيبُ قلب في مستشفى وجامعة سان فرانسسكو تمَّ اختيارُ 393 مريضًا في العناية المركزة للقلب، وبطريقة عشوائية وسريَّة، وبدون علم المرضى، تمَّ تقسيمهم إلى مجموعتين: في المجموعة الأولى قامت مجموعة من الأشخاص المؤمنين وأهلُ الدين بزيارة هؤلاء المرضى والدعاء لهم ومعهم بالشفاء. أمَّا المجموعة الثانية فلم يهيأَّ لهم مثل هذه الزيارات، وبعدَ الانتهاء من الدراسة وجد أنَّ المجموعة الثانية قد احتاجت إلى المضادات الحيوية خمسةَ أضعاف المجموعة الأولى، بل إنَّ المضاعفات الجانبية لديهم كانت تعادلُ ثلاثة

أضعاف المجموعة الأولى.

يقول الدكتور جارفسJarvis وهو بروفسور من جامعة لومالندا في كاليفورنيا قد يكون من الصعب علينا إدراكُ كيفية تأثير الإيمان على الصحة والجسد، ولكننا لا نشكِّك في صحة وقوة هذه العلاقة.

وفي دراسةٍ إحصائية قامتْ بها محطة CNN بالتعاون مع مجلة التايمز الأمريكية TIME تمَّ سؤال 1004 أمريكيين عن هذا الموضوع وكانت الإجابة أنَّ 82 % يعتقدون بتأثير الدين والإيمان على العلاج والشفاء، وأنَّ 64% يظنون أنَّه من الواجب على الطبيب أن يدعو لمريضِه بالشفاء، بل ويصلي معه إن طلب المريضُ منه ذلك.

ويدعو الدكتور لارسون Larson الأطباء أن يقوموا بسؤال المرضى عن أهمية الدعاءِ والصلاة في العلاج والشفاء، فإنْ كان المريض يؤمن بأهميتهما فعلى الطبيب أن يسأل المريضَ عن رغبته في التحدث في هذا الموضوع أو مدى احتياجه للتحدثِ مع رجل دين؛ لأنَّ ذلك يُعد جزءًا من العلاج. ولكن الخوف الذي يتملَّك الأطباء كما يشرحه الدكتور جارفس أنه قد يخطئ بعض المرضى فهمَ هذه الظاهرة، ويعتمدون على قدرة الإيمان والدين على العلاج ويهملون الأخذ بأسباب العلاج، والتي لا عِوضَ عنها في كثير من الأمراض فتحدثُ كوارث من جرَّاء ذلك.

لقد حاكمَ الدينُ المسيحي المتمثل في الكنيسة الكاثوليكية العلماءَ منذ مئات السنين، فحدثَ الطلاق بين الدين والعلم، فنشطت الحركةُ العلمانية البعيدة عن الله، وتقدمَ الغرب علميًّا وابتعد عن الدين، ولكن العلم نفسه يقود الغرب مرةً أخرى إلى الله، وإلى الدين والإيمان رغم أنوفهم، فالأبحاثُ التي يقومون بها بالأسلوب

العلمي الدقيق ثبت الآنَ أنَّ الإيمان له دورٌ كبير في العلاج، بالإضافة إلى الدواء.

وفي مجتمعاتنا هناك فريقٌ لا يؤمن إلَّا بالدواء، وينكر تأثيرَ العقل والروح والدين والإيمان في العلاج، وفريقٌ آخر لا يؤمن بالدواء، ويعتمد على قوة الإيمان والدين ويظنُّ أن هذا من باب التوكل.. وكلاهما مخطئ.

والفريقُ الصحيح هو الذي يأخذ بالأسباب من الدواء والعلاج، ولكنه يؤمن بأن الشفاءَ من عند الله، ويستعين بالإيمان والصلاة والدعاء على سرعة الشفاء والعلاج.

كما يحتاج إلى أطباء ذوي كفاءةٍ علمية وطبية، أخذوا العلم من منابعه الصحيحة.. أدركوا أهميةَ العوامل النفسية والعقلية والدينية على العلاج والشفاء، فيتعاملون مع مرضاهم بطريقةٍ شمولية متكاملة؛ كجسد وعقل وروح.

ويحتاج إلى مراكز للدراسات والأبحاث يقوم عليها أطباء على مستوى علمي رفيع، وباستعمال الأسلوبِ العلمي الدقيق المُتعارف عليه دوليًّا في المحافل العلمية لدراسةِ تأثير الدين والصلاة والدعاء والعبادة وقراءة القرآن والتسبيح على فسيولوجية الجسد البشري، وعلى الأمراض المختلفة من: ضغط الدم وأمراض القلب والسكر وقدرة الجسد على مقاومة الأمراض، فنحن أولى من الغرب بمثل هذه الدراسات، ونحن بين أيدينا الكتابُ الذي قال الله تعالى فيه ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾ (188)، ونقدِّم للعالم طبًّا جديدًا نجمع فيه بين قمّة ما وصلوا إليه في علم التطبيب والتشخيص والعلاج، ونكمِّلُ ما نقص منه وأخفيَ عليه، روحًا لم تكن فيه، مستوحًى من

الطب النبوي والاهتمام بالعوامل النفسية والدينية في العلاج فنصلُ إلى طبٍّ شامل متزن لا يغفل العقل والروح عندما يعالج الجسد فتنتفع الإنسانية.. ويكون بابًا من أبواب الدعوة إلى الله.

﴿سَنُرِيهِم آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِم حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُم أَنَّهُ الحَقُّ﴾ (187).

---

(188) سورة الإسراء: 82.

(187) سورة فصلت، من الآية 53.

المفهومُ الشُّمولي للعلاج

بالتجربة أدركتُ مدى الحاجة لبرنامجٍ يؤهّل الطبيب ليقوم مجددًا بدور (الحكيم) الشمولي للشفاء.

الإنسان جسدٌ وعقل وقلبٌ وروح، وتحقيقُ الشفاء للمريض يتعيَّن ويستلزم، بل يستوجب، أن تُؤْخَذ كلّ هذه العناصر بعيْن الاعتبار، وقد جاء الطبُّ الحديث ليؤكد أنه لا غنى عن تطبيق هذا المفهوم الشمولي من أجل تحقيق الشفاء للإنسان. وبهذا المفهوم الشمولي لعلاج الإنسان بنى أجدادُنا وعمالقة وعلماءُ علم الطب أساسَ التطبيب قبل مئات السنين، ومارسوه، وكتبَ عنه ابنُ سينا في كتابه (القانون في الطب)، الذي ظلَّ مرجعًا رئيسيًّا يدرَّس في كليات طبِّ أوروبا على مدى 500 عام. ولكن الذي حدثَ خلال القرن الماضي هو الفصلُ بين هذه العناصر، فالطبيبُ يطبِّب ويعالج الجسد فقط، بل وأثناء دراستي للطب في جامعة جورج واشنطن في الولايات المتحدة الأمريكية في منتصف الثمانينيات كانَ من المحظور أنْ يحاول الطبيب تلبيةَ الاحتياج النفسي أو العاطفي أو الروحي عند المريض، ويُعد ذلك مخالفًا لسلوكيات المهنة (Unprofessional). وسببُ هذا الفعل المصطنع والمخالف لأبجديات التطبيب والاستشفاء هو الطَّلاق والفصل الذي تمَّ في الغرب بين الدين والعلم بمحاكمة غاليليو (Galileo) وغيره من العلماء في ذلك العصر، وسيطرتِ الكنيسة لفترة وجيزة على العقل، وهمَّشت دورَ العلم ليجيء بعدها عصرُ الهيمنة العلمية في أوروبا ليُفصل العلم عن الدين، ويصبح العلم بما فيه الطبُّ يتعامل مع المادة، ففي الطبِّ أصبح التركيز على علاج الجسد وإهمال دور العقل والروح في العلاج والشفاء.

ولكن في العقد الماضي، ومعَ أواخر الثمانينيات وبدايةِ

التسعينيات الميلادية، بدأت الأبحاثُ والدراسات تشير إلى دورِ العقل والروح في تحقيق الشفاء والعلاج عند المريض، ومِن هذه المؤسسات الرائدة مؤسسةٌ في بوسطن والتي كان لي فرصةُ أخذ دورةٍ مكثفة فيها تسمَّى معهد العقل والجسد (Mind Body Institute) وهي تابعة لكلية طب جامعة هارفارد، وتقوم بدراسة دور العقل والروح في علاج الأمراض والأسقام على أسس علمية دقيقة واستنباط بعضِ الممارسات التي يمكن أن تساعدَ على الشفاء، وتُعتمد من كلية طب جامعة هارفارد إذا تحققت فيها واسْتُكمِلتِ الشروطُ الدقيقة المتعارَف عليها في البحث العلمي. وفي هذا المعهد، يبحث عن كلّ الممارسات التي تسهم في الشفاء، فعلى سبيل المثال يؤكد الدكتور بنسون (Benson) وهو مؤسسُ هذا المعهد، يؤكّد ما للتسبيح عند المسلمين من تأثير على ما يسميه (Relaxation Response) والذي يؤدّي إلى حالة ارتخاءٍ صحي من خفض لدقات القلب وضغط الدم وارتخاء العضلات وخفض أنشطة الدماغ، بما في ذلك فوائد جمَّة على أعضاء الجسم كله، ويؤدي إلى خفض نسبة الإصابات بالذبحة الصدرية والدماغية ولغط القلب والضغط، وغيره من الأمراض المزمنة الفتاكة.

وبدأتِ الكليات الطبية الرائدةُ في الغرب تتحدث مرةً أخرى عن وجوب التعامل مع المريض كجسد وعقل وروح.. أمّا الجسد، فيقتضي الاهتمامُ به تطبيقُ أفضل المعايير الطبية العالمية في العلاج بتدريب الكوادر الطبية من طبيب وممرِّض، وغيره. وأمّا الأجهزة فيقتضي اقتناءُ أفضل الأجهزة المتطورة التي تساعد على التشخيص الدقيق.

وأمّا سياساتُ العمل والقوانين المتَّبعة فتقتضي اتباع أفضلِ القوانين التي تضمن السلامة للمريض والجودة الشاملة، وتحول

دونَ الخطأ البشري المتوقع نظرًا لطبيعة الإنسان الذي خُلق وجُبل على الخطأ.

وتصميمُ المستشفى بأحدثِ وسائل التقنية من غُرف للعمليات وللطوارئ وللعناية المركزة إلى غير ذلك، وعدم التهاون أو التَّساهل في الأخذ بالأسباب المتاحة التي تساعدُ على تحقيق العلاج، والإيمان بأنَّ التقصير في أخذ أيٍّ من هذه الأسباب وإغفال سببٍ معَ العلم بدوره في تحقيق العلاج؛ خيانةٌ للأمانة التي أوكل بها المعالج.

أمّا العقل.. فيقتضي احترام عقل المريض، وجعله جزءًا لا يتجزأ من العلاج، فيُشرح للمريض بالتفصيل ماهية المرض، وطرقَ التشخيص، وخيارات العلاج، وإيجابيات وسلبيات كلّ من هذه الخيارات؛ ليصبح المريض هو صاحبَ القرار متى ما اجتمعت له المعلوماتُ واكتملت لديه الصورة، ويُحترم هذا القرار، فالمريض يملك جسده ولديْه عقل يفكر به، وفي أول الأمر وآخرِه هو الذي سيعيشُ مع هذا القرار وتبعاته ونتائجه، وتثقيف المريض عن المرض هو جزءٌ لا يتجزأ من دور المعالج الطبيب، بل ويتعدّاه إلى تثقيف عائلة المريض عن المرض وكيفية دعم ومساندة المريض أثناءَ المرض أو النقاهة أو تفادي تكرار المرض، أو حدوث مضاعفات وتبعات العلاج على حسب المرض والعلاج، وفي حالة الأطفال الصغار فيُستعاض بذلك في جعل الأبوين هما صاحبَا القرار باتباع نفس الأسلوب.

والاستثمارُ في رفع الوعي الصحي عندَ المريض وعائلة المريض يقتضي توفيرَ الأدوات والوسائل التعليمية والتثقيفية في كتيبات سهلة القراءة والفهم مبسَّطة، وفي نفس الوقت شمولية ومنسجمة مع البيئة والخلفية الثقافية والاجتماعية والأخلاقية والدينية في المجتمع، وتقديم الدورات التعليمية والتثقيفية والتدريبية للمريض

وعائلته.

ويقتضي كذلك تدريب وتأهيل الكوادر الطبية وتطوير قدراتها على إيصال المعلومة وتعليم وتثقيف المريض وعائلته. وأن يصبح جزءًا من تعليم هذه الكوادر الطبية، وأنْ تصبح قدرة الطبيب والممرض على تعليم وتثقيف المريض وعائلته جزءًا رئيسيًّا من التقييم الدوري للطبيب، والذي يترتَّب عليه تقدير المعالج ومكافأته.

أمّا الروح.. فينخرط تحتَها مدى قدرة الطبيب المعالج، بغضِّ النظر عن تخصصه، تلبية عند الاحتياج النفسي والعاطفي والروحي عند المريض، حيث إنَّ الأبحاث والدراسات تتزايد كلّ يوم لتؤكد ما لنفسية المريض من دور رئيسيّ في تحقيق الشفاء، وقد كنا في السابق نشيرُ إلى العامل النفسي بكلمة، واليوم يطلق عليه الكثيرون بالعامل الإيماني، وهذا العاملُ يُعد عاملًا مهمًّا وفعّالًا ورئيسيًّا في تحقيق أكبر قدرٍ من تأثير العلاج على المريض ليتحقق الشفاء بإذن الله.

فإيمانُ المريض بإمكانات الطبيب على العلاج هو جزءٌ وعامل رئيسي لتحقيق العلاج، وإيمانُ المريض بفعالية الدواء هو جزءٌ وعامل رئيسي لتحقيق أكبر قدرٍ من التأثير الإيجابي من الدواء والعلاج. وإيمانُ المريض قبل كلّ هذا بقدرةِ الله على شفائه، ويقينه بأنَّ الله سيجري الشفاءَ على يدي هذا الطبيب في هذا المكان وبهذا الدواء، هو في حدِّ ذاته يعدُّ جزءًا مهمًّا وعاملًا رئيسيًّا لتحقيق الشفاء.

***

وقد أدركت قبلَ سنوات مدى تقصير الطبيب اليوم في تأهيل نفسه لتلبية الحاجة النفسية والعاطفية والروحية عند المريض، وكان ذلك أثناءَ زيارة أحد العلماء الدعاة لأحد مرضاي في

بوسطن، دخل العالِم على المريض ورآه ساكنًا تعلوه كآبة، وتظهر على وجهه سماتُ الانقباض، فأخذ العالِم يتحدّث إليه قرابة النصف ساعة أو يزيد.. عن ماذا؟! هل تحدَّث معه عن الصبر؟ أم عن احتساب الأجر؟ لا.. وإنّما تحدث معه عن فضل المرض، ومكانة المريض عند الله وهوَ على فراشه الأبيض.. عندها أدركتُ مدى الاحتياج لبرنامج يؤهِّل الطبيب ليقوم بالدور الذي كان يقوم به سابقًا عندما كان يلقَّب بالحكيم لما يجتمع فيه من علم وحكمة.

كم من أطباء اليوم مَن يحفظ من كتاب الله والأحاديثِ الشريفة ما يسلِّي به المريضَ ويُصبره ويَرفع من معنوياته ويثبته ويبثُّ فيه روحَ الأمل والكفاح والإيمان برحمة الخالق حتَّى يزيل عن المريض أيَّ شكٍّ في أنَّ الله الرحيم سيرحمه، ويسعفه بالشفاء، وأنّه سبحانه بيده كلّ شيء إذا أرادَ للشيء أن يكون قال له كن؛ فيكون؟!

سأدعُ الإجابة عنْ ذلك لزملائي الأطباء.

***

إنَّ تلبية الاحتياج النفسي والعاطفي والروحي يقتضي كذلك أن تصمَّم المشافي والمستشفيات باتباع مبدأ الشفاء بالتصميم، حيث إنَّ هناك عناصرَ معينة تسهم وتساعدُ على الشفاء، مثل: الإضاءة الطبيعية في كلّ غرفة من غرف المرضى، والإكثار من المناطق المزروعة بالأشجار والزهور والحدائق، والفناء الداخلي الذي يتيح للمرضى وذويهم التنفيس عن أنفسهم داخلَ المستشفى دون الحاجة إلى الخروج منها للتنفيس والترويح، وانتقاء الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة في الأماكن المناسبة لها، بعدَ دراسة الاحتياجات النفسية والروحية للأشخاص الذين سيوجدون في

هذه الأماكن في المستشفى، والحرص على إعطاء المسجد حقَّه، كأن يكون في قلب المستشفى تصلَّى فيه الصلوات الخمس جماعة، ويجد أهلُ المريض، والمريض الزائر في المسجد المأوى والملجأ إذا ضاقتْ به نفسه فيدخل المسجد ويخرج من كلّ ما عداه فيصبح المسجدُ في المستشفى ولكنَّ السماءَ فيه.. كلّ ذلك له تأثيرُه العظيم على تحقيق الشفاء عندَ المريض، وإعانة عائلة المريض على دعم مريضهم.

إنَّ المفهوم الشمولي للعلاج من معاملة المريض كجسدٍ وعقل وروح يتعدَّى في أيامنا هذه التطبيق في علم الطب إلى التطبيق في كلّ مجالات الحياة، وأدق ما كُتِبَ في هذا السياق كتابٌ بعنوان العادات الثمانية لـ ستيفين كوفي، والذي يتحدَّث فيه عن العصر الجديد، وما أسماه بعصر الحكمة، وفيه يفصِّل كيف تكون تلبيةُ الاحتياج الجسدي والعقلي والروحي للعاملين في المؤسسات أو أفراد العائلة من أجل تحقيق أفضل مردودٍ على مستوى الفرد والأسرة والمؤسسة والشركة والمجتمع، وجُلّ ما قيل إنّما يخرج من مشكاة النبوة، وينسجم انسجامًا كاملًا بقيمنا الإسلامية.

ويؤكّد فيه أنَّ معاملة الإنسان بشموليته من جسدٍ وعقل وروح سيكون له مردودٌ عظيم في زيادة إنتاجية الفرد في المجتمع عشراتِ الأضعاف عن الإنتاجية الحالية في عصر المعلومات والمعرفة، وكما تطوَّر الإنسان من خلال تاريخ الإنسانية من عصرِ الصيد إلى عصر الزراعة إلى عصر الصناعة إلى عصر المعلومات والمعرفة، وكما ازدادتْ فعالية الفرد والإنتاجية من عصرٍ إلى آخر ما يعادل خمسة أضعاف، فإنَّ الإنتاجية كذلك ستزداد في الانتقال من العصر الحالي إلى عصر الحكمة، ولكنَّ الإنتاجية لن تزداد خمسة أضعاف وإنما عشرات الأضعاف، حيث إن احترامَ عقل وجسد وروح العاملين وتلبيةَ احتياجاتهم سيساعدُ

على إطلاق قواهم المكنونة وبذل الرخيص والغالي، فيصبح مثلًا هدفُ الفرد في المؤسسة هو تحقيقَ حلمه الفكري والاجتماعي والأخلاقي من خلال تحقيق أهداف المؤسسة وغاياتها النبيلة، وكذلك الحالُ في كلّ مجالات الحياة.. وهذا المفهومُ في صلبه وروحه مفهوم إسلامي خالص.

وكما كان في كلّ نقلة انتقلها الإنسانُ خلال تاريخه الإنساني من أوائل وقيادات تقدم النموذج، مثل الانتقال من عصر الصناعة إلى عصر المعلومة والتكنولوجيا؛ فإنّه سيكون هناك أوائلُ وقيادات تقدم النموذج الشمولي لمعاملة الإنسان جسدًا وعقلًا وروحًا في كلّ مِن تخصصات الحياة.

***

سيصعبُ في بادئ الأمر أن يتقبل سوادُ المجتمع هذا المفهوم، وهذا طبيعي ومتوقَّع، وسببُه قلة المعلومة وعدم وضوح الرؤية المستقبلية تمامًا عندَ سواد المجتمع، كما كان الحال في الانتقال من عصر الصناعة إلى عصر المعلومة والتكنولوجيا، وإنني شخصيًّا مازلت أذكر محاضرةً في جامعة في بوسطن لأحد رواد عصرنا هذا (عصر المعلومة والمعرفة) يلقي محاضرةً في منتصف الثمانينيات عن شيء أسماه آنذاك الإنترنت بخصائصه التي نعلمها اليومَ بداهة، وكانت آنذاك أشبه ما يكون بالخيال والحلم، وإنني مازلت أذكر كأنه البارحة ما أثارته المحاضرة من إعجابِ القليل وسخريةِ الكثير ممَّن كانوا سجناء عصرهم، ولم يستطيعوا أن يخرجوا من الحيِّز الضيق لحاضرهم إلى فضاء التطبيق الرحب للمستقبل.

إنّني أؤمن بأنَّ عصر تطبيق التعامل مع الإنسان بشمولية لجسدٍ وعقلٍ وروح قد بدأ، وأحقّ تخصص ومجال من مجالاتِ الحياة يستحقُّ أن يقدم النموذجَ للعالم هو مجالُ التطبيب والعلاج، فمُعظم

التخصّصَات تتعامل مع صنع الإنسان وابتكاراته واختراعاته وفكره وعطائه إلّا علم الطب، فإنه يتعامل مع صنع الله (الإنسان)، أقدس وأعظم ما في الأرض بما يحمله بين أضلعه من روح الله، وبما أوكل له في الأرض بإذن ربّه من الاستخلاف وعمارة الأرض.

فإذا مرض الإنسانُ وَجَبَ على مَن شَرّفه اللهُ بعلاجه من البشر أن يتعاملَ مع هذا الإنسان جسدًا وعقلًا وروحًا، وفي هذا تكريمٌ للإنسان وأخذٌ بأسباب الشفاء، واتباعٌ لسنَّة الله في خلق الإنسان. وبالاجتهاد في أخذ الأسباب الصحيحة وتنقيةِ النيّة وتجريدها ومعاملة المسبّب؛ مدعاةٌ لاستحقاق فضل الله بأَنْ يُجري الشفاءَ على يد المعالج، فيكون الشفاءُ بإذن الله.

آدابُ الطّعام.. وروحُ الصيام

إنَّ من فضل الله على أمتنا الإسلامية أنْ فرض عليها صيامَ شهر رمضان العظيم، واللهُ خالقنا أعلم بما خلق، جعل في الصيام منافعَ جليلة، منها ما هو واضحٌ جليّ، ومنها ما هو مُبهم خفي، منها ما أوضحَه الشارع، ومنها ما يكشفه لنا العلمُ يومًا بعد يوم، ومنها ما احتفظَ به اللهُ في علمه، لا يعلمه إلّا مَن شاء من خلقه.

ومنافعُ الصوم تتفاعل مع عناصر تكويننا الثلاثة، فهو يصقل العقلَ ويصفّي الروح ويصح الجسد، وعلى قدر التزام المؤمن بروح الصيام، وعلى قدر فهمِه لتعاليمه والتزامه بواجباته وتحرّيه لآدابهُ يكون انتفاعه بهذا الشهر، فيأخذ منه على قدْر عزمه بإذن ربه ذخيرةً تعينه فيما بقيَ من حياته، وتكون له زادًا في آخرته ومعاده.

ويتميز الصيامُ بخاصية من دون سائرِ العبادات والأركان، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ يروي الحديثَ القدسي عن ربّه عزّ وجلّ أنّه قال؛ (كلُّ عمل ابن آدم له إلّا الصيام، فإنّه لي، وأنا أجزي به) (193).

ومادام الذي يتولى جزاءَ الصائمين بنفسه هو الكريمُ خالقُ الأسباب وموزعُ الأرزاق؛ فماذا ننتظر من عطاء كريم؟! هل يكون لهذا الجزاء من حدود؟ هل يكون في الآخرة وحدَها دون الدنيا؟ هل يكتب اللهُ على عباده شعيرة يستثنيها من دون سائر الأركان بهذه المكانة ثمَّ لا يضع فيها أسرارًا ومنافعَ تتجلى فيها قدرةُ رحيم عليم بما يصلحهم، منافع تغمر عقولهم وأرواحَهم، فضلًا عن أجسادهم، أفاذا في الصيام لأجسادنا؟ إنَّ انتفاع الجسد بالصيام أيها الأحباب لا تسعُه الكتب، فالطبُّ يكشف لنا يومًا بعد يوم ما يُعد من آيات الإعجاز.

فقدْ أثبتت الأبحاثُ العلمية أنَّ للصيام فوائدَ جمَّة على الجهاز الهضمي ومرضى السكري من النوع الثاني، والضغط المرتفع وغيرها، نعم.. وللصيام كذلك فوائدُ للجهاز المناعي ومقاومة الأمراض بأنواعها، ولكنْ أحسب أن هذه الفوائد لا تحصل إلّا بالالتزام بآداب الصيام وأسراره الباطنة.

وسأكتبُ اليوم عن واحدٍ منها، وهو عدمُ الإسراف في تناول الطعام الحلال وقتَ الإفطار إلى حدِّ الامتلاء والتخمة، فالوصيةُ الإلهية العامة ﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (192)، وكذلك وصية الرسول الكريم (ما ملأ ابنُ آدم وعاءً شرًّا من بطنه، بحسب ابنِ آدم لقيمات يقمْن صلبه فإن كان لا بدَّ فاعلًا فثلث لطعامه.. وثلث لشرابه.. وثلث لنفسه) (191).

وذكرُ الثلثِ هنا فيه إعجازٌ علمي للصائم وغير الصائم، فهناك الكثيرُ من الدراسات تؤكد أنَّ الإقلال من كمية الطعام يؤدّي إلى خفض نسبة الإصابة بكثيرٍ من الأمراض مثل: القلب والسكر والسرطان، كما يؤدي إلى تقوية الجهاز المناعي، وتأخّر ظهور الشيخوخة وإطالة العمر.

فالذي يسرف في تناول الطعام وقتَ الإفطار إذن؛ تضيع عليه فوائدُ الصيام الفسيولوجية والجسدية والصحية التي أعدَّها اللهُ للصائم كأجر له في الدنيا قبل الآخرة.

وقد لا يؤثر الصيامُ كثيرًا كما هو معروف في إنقاص وزن الأشخاص المعتدلين وزنًا، وذلك لأنه يساعد فقط على التخلصِ من الوزن الزائد بالموازنة بين عمليتي البناء والهدم، إلّا أنَّ الدراسات العلمية تؤكد أن الصيام الذي يتبعه إفطارٌ متوازن يساعد على خفض الوزن في الأشخاص المُصابين بالسمنة، وعندها

يصبح الصوم عاملًا مهمًّا من عوامل علاج السمنة التي هي سببٌ رئيس كما نعلم في الإصابة بأمراض كثيرة أعاذكم الله، مثل: ارتفاع ضغط الدم، وأمراض القلب، ومرض السكري (النوع الثاني)، وتشحم الكبد، وحصوات المرارة، وروماتيزم المفاصل الغضروفي في الركبة، بل وتساعد على زيادة الإصابة ببعض أنواع السرطان مثل: سرطان القولون (الأمعاء الغليظة) وغيرها، اللهم اشفِ مرضانا، وجنّبنا أسبابَ المرض، وارزقنا العافية.

ولا يتوقف إنقاصُ الوزن على تقليل كمياتِ الطعام في شهر رمضان فحسب، وإنما يعتمد على كميات السعرات الحرارية المحترقة نتيجة الحركة، لذا فبعضُ سرِّ الصوم يكمنُ في بعض الاجتهاد والعمل لا الراحة والخمول، وفي التحرُّر من أوهام إقلال العمل والركون إلى الكسل بحجة الصيام، فلا عجبَ أن كانت معارك المسلمين الفاصلة مثل بدر وحطين وعين جالوت كلها في شهر رمضان.

والإسرافُ في الطعام وقتَ الإفطار لا يضيع على الصائم فقط فوائدَ الصيام الجسدية؛ بل يجهض فوائدَه العقلية والروحية كذلك..

أمّا العقل فبانهزامه أمامَ شهوة البطن، حين ناولها ما فاتها في نهاره، وربما زادَ لها نهمها وأشعل لها ما ضاعف قوتَها بقدر ما مدَّ لها وقت فطرها، فلا يكون له من صيامه إلّا تعبه وجوعه وعطشه، تمامًا بالمثل كما يفقد الصائمُ الغافل أجرَه: (ربَّ صائم ليس له من صيامه إلّا الجوع) (190).

وإذا كان الصومُ تربية لإرادة العقل؟ فأنّى بهذه الفائدة الجليلة لمَن أسلم لبطنه القيادَ عند إفطاره وأعطى لجامَ عقله لهواه.. إنَّ الانغماس في التلذُّذ بأنواع الأطعمة المختلفة، ورواجَ الأسواق

بأنواع المأكولات، وتضخيمَ وجبة الإفطار في هذا الشهر الفضيل بحيث تصبح مساويةً لوجبتين في غيره؛ لهوَ تكريسٌ لأمراض النفس وتقوية لشهوتها، بل هو سبيلٌ إلى إدمانها الشَّرِه والنَّهِم في شهرٍ الأصلُ فيه إلجامُها ومساعدتها في التخلي عن نزواتها.

أمّا الروح فكيف لها أن ترتقي وتستفيدَ من هذا الشهر العظيم في القيام والصلاة والدعاء، إذا أثقلها وكبَّلها جسدها الممتلئ بالطعام؟! إنَّ كثافة الروح وقسوةَ القلب لا شكَّ قرينة الترف والسرف والشبع.

ولكنَّ التوازنَ هو منتهى غاية الشَّرع الحنيف، فإن كانت الروحُ لا تصفو مع التُّخمة المقعدة.. فإنَّ العقل لا يتقد مع الجوع المُنهك، فصلّى اللهُ على النبي الكريم إذْ وصّانا بتعجيل الفطور وبركة السحور، ونهانا عن الوصْل، وأمرنا بالاعتدال، وحذَّرنا من التكلف والتنطُّع؛ فقال لبعضهم: (أمّا أنا فأصوم وأفطر وأنام وأرقد، وأتزوَّج النساء، فمَن رغب عن سنّتي فليس منّي) (189).

---

(193) رواه البخاري، رقم (1904). ومسلم، رقم (1151). والنسائي، (163 /4و164)؛ من حديث أبي هريرة.

(192) سورة الأعراف، من الآية 31.

(191) رواه الإمام أحمد والترمذي والنَّسائي وابن ماجه، وقال الترمذي: حديث حسن.

(190) حسن صحيح، رواه النسائي، وابن ماجه، واللفظ لهما.

(189) جزء من حديث رواه البخاري عن أنس بن مالك.

الرِّعايةُ الصِّحية المنزلية.. ضرورةٌ حتمية

• قضى سبعين عامًا من عمره يعملُ من أجل أسرته ومجتمعِه، يُعطي ولا يتوقف، وبينَ ليلة وضحاها تغير الحال إلى غيرِ حال، فقد أصيبَ بجلطة في الدماغ وشللٍ نصفي، وعولجَ في المستشفى حتَّى استقرَّت حالته، وعاد إلى بيته وهو الآنَ يحتاج إلى إعادة تأهيله حتَّى يستطيع المضيَّ في الحياة.

• قضتْ ستين عامًا من عمرها تُعطي وتغدق، أنجبت وربَّت سبعة من الأبناء، وما فتئت تعطي الأبناء والأحفاد، وفجأة شخصت بسرطانٍ خبيث انتشرَ إلى الدماغ، وعلى مدى أشهر تناولتْ من جرعات الدواء غير المجدية لعلاج الحالة، وأجمعَ الأطباء أنه ليس هناك من خيارات أخرى، وأنَّ إمكانية الشفاء غير متوفرة، ولا بدَّ من تأهيل المريضة في البيت حتَّى تستطيع أنْ تقضي ما تبقى لها من عمرها براحةٍ وبدعمٍ طبي وعائلي واجتماعي يساعدُ في تخفيف آلامها الجسدية والنفسية.

آلافُ الحالات من المرضى تحتاج توفيرَ الخدمة الصحية والاجتماعية بالمنزل، وبالتنسيق المستمرِّ مع المعالج لتكون جزءًا مكمّلًا للرعاية الصحية التي قدمت بالمستشفى، وذلك داخلَ نظام متكامل للرعاية الصحية ومتابعة مستمرة وشاملة للمرضى في أماكن إقامتهم بخصوصية، ويقتضي ذلك تجهيز الاحتياجات اللازمة لكلِّ فردٍ، سواء كانت جسمانية أو نفسية أو اجتماعية، وتقديم الدعم لأفراد الأسرة ومقدمي الرعاية للمريض.

إنَّ ازدياد الحاجة إلى الرعاية المنزلية هو نتيجةٌ طبيعية وضرورةٌ حتمية؛ نظرًا لارتفاع متوسط العمر المتوقع في المجتمعات المتقدمة، وانخفاض معدَّل الوفيات الناتجة عن الأمراض وحوادث الطرق، وفي مجتمعاتنا فإن هناك عاملًا آخرَ هو

الازديادُ المطرد والسريع في شريحة المسنّين نتيجة خمسة عقود من طفرةِ النمو السكاني، أضفْ إلى ذلك تركيبةَ المجتمع الأخلاقية والاجتماعية والفكرية والتثقيفية والدينية.

ومِن أهداف الرعاية المنزلية التقييمُ والمعالجة والمتابعة ومراقبةُ المؤشرات الحيوية والعناية الجسدية والدعم المساند من علاج طبيعي وعلاجٍ مهني وإرشادٍ وتثقيف صحي، وتقديم الدعم من المعدات والأجهزة اللازمة للمرضى، أضفْ إلى ذلك تقديمَ الدعم لأفراد الأسرة ومقدمي الرعاية للمرضى.

ويتكوّن فريقُ الرعاية المنزلية من: طبيب الرعاية المنزلية، ومنسق وجهاز تمريض، ومساعد العناية الشخصية، وأخصائيين في العلاج المهني والعلاج الطبيعي والعلاج النفسي والتغذية، وأخصائيين اجتماعيين، وأخصائي علاج النطق، وعالم دين.

ونجاحُ برنامج الرعاية المنزلية يعتمد بشكلٍ رئيسي على تأهيل هذه الكوادر، وبرامج الرعاية الصحية كثيرةٌ جدًّا مثل: رعاية الأمومة والطفولة، وبرامج كبار السنِّ للمصابين بالزهايمر، والعناية بالأمراض النفسية، والتأهيل النفسي، وإصابات الدماغ بعد الحوادث، وغيرها الكثير.

في السياسة والاقتصاد

الإدارةُ والقيادة

هناك فرقٌ كبير بين تعريفِ الإدارة والقيادة، والدور الذي يقوم به الإداري والقيادي، وإدراكُ الفرق بين التعريفين من أهمِّ عوامل نجاح المؤسسات على اختلافها، سواء في القطاع الحكومي أو الخاص.

وتحديدُ مهامِّ الإداري والقيادي والمؤهلات التي يجب أن يحملها من يستحق أنْ يشغلَ أحد المنصبين دونَ الآخر هو من العلوم التي تدرس في الجامعات وتمارس واقعيًّا وميدانيًّا في المؤسسات والشركات الناجحة حول العالم.

ونظراً لمحدودية الحيزِ المتاح في هذه الزاوية فسوف أكتفي بإلقاء الضوء على مهمَّة واحدة مميزة لكلٍّ مِن الإداري والقيادي؛ وهي السعي لتحقيق الفعالية الإدارية (Operational Effectiveness) والتي تعني تحقيق أنشطة المؤسَّسة باختلاف أنواعها، بطريقة أفضل من المنافسين، وهذا يقتضي التركيز والمتابعة لأنشطة المؤسسة اليومية وزيادة فعالية الإنتاج، وهذا دورٌ وعامل أساسي لنجاح المؤسَّسات ولكنه غيرُ كاف، ولا بدَّ أن يقترنَ بدور آخر مكمل وهو دور تحديد إستراتيجيات العمل (Strategic Positioning) والذي يعني بتبسيط شديدٍ تحديدَ المهامِّ التي لا بدَّ أن تقوم بها المؤسسة والتي تختلف عن منافسيها، أو القيام بمهامّ مشابهة ولكن بطريقة مختلفة، وهذا هو دور القيادي في أي مؤسسة.

وهذا الدورُ ليس بالهيِّن، ويحتاج لكثير من الإبداع وبعد النظر، ولذلك فإنك تجد مؤسساتٍ تنطلق وتتقدَّم على منافسيها

لأنَّ قيادتها استطاعت أن ترى لنفسها موقعًا إستراتيجيًّا جديدًا غفل غيرُها عنه، وهناك أمثلة عديدة لمؤسسات أصبحت نماذج تدرَّس.

وإستراتيجية العمل تقتضي قرارات صعبة مثل الاختيار بين البدائل، أو التخلي عن شيء لاستحداث آخر (Trade-offs).

وقد أصبح من بديهيّات العمل في المؤسسات أن لا يقوم شخصٌ واحد بدور الإداري والقيادي في آنٍ واحد، فادِّعاء القدرة على القيام بهما سويًّا هو في الحقيقة جهلٌ بأهمِّ عوامل نجاح وتقدم المؤسسات.

بل إنَّ الجدية والمثابرة والإصرارَ لا تكفي لإنجاح المؤسسات أو وضعها على القمَّة ما لم تقترن إدارتها الجادَّة بقيادةٍ واعية ذات إستراتيجية واضحة ومميزة.

وشاورْهم في الأمْر

لا أعتقد بأنَّ هناك مَن لا يدرك أهمية التشاور وفتح قنوات الحوار وتبادل الآراء والخبرات في صنْع القرارات الحكيمة، وهذا مبدأ تشريعي قبلَ أن يصبح ضرورة عصرية ومنهاجًا للشعوب المتحضِّرة في إدارة شئونها وصنع قراراتها.

وقد أمر اللهُ رسوله أنْ يشاور صحابته في قوله تعالى ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ (195)، ولو كان هناك استثناء من مزاولة هذا المبدأ لكان المُستثنى في ذلك رسولَ الله ﷺ، فهو المعصومُ عن الخطأ، الموحَى إليه الذي لا ينطقُ عن الهوى، ولكنَّه لم يُستثن وأُمر أن يشاورهم في الأمر، بالرغم من أنَّ الآية قد نزلت بعدَ تولّي كثيرٍ من صحابة رسول الله في معركةِ أحد نتيجة مُخالفتهم لأوامره ﷺ، وقد عاتبهم الله في قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ (194).

ويوافقني كثيرونَ في أنَّ من أهمِّ قنوات الحوار التي لا بدَّ أن تفتح على مصراعيها هي التي بينَ القطاع الحكومي والقطاع الخاص لدراسة كيفية التعاون لرفع مستوى الخدمات، وزيادة فعالية الأداء، وخلق مناخٍ اقتصادي يساعد على استقطاب الأموال الوطنية المغتربة، واستغلال النمو البشري السريع في المنطقة، ونظرًا للتَّسارع الذي يشهدُه العالم فإنَّه لا يكفي أن تفتح قنوات الحوار، وإنَّما لا بدَّ أن تكونَ هناك آلياتٌ واضحة وفعالة لصنع القرارات السريعة يشترك فيها نخبة من أبناءِ المجتمع في جميع التَّخصصات، لديها صلاحيات واسعة وتمليها مسئوليات واضحة.

ولا بدَّ من إيجادِ لغة حوارٍ ومفاهيم مشتركة في المواضيع

الحيوية، ونحن لا ننكر بأنَّ هناك محاولاتٍ جادةً على مستويات مختلفة لفتح قنوات الحوار، وزيادة الشَّفافية بين القطاعين الحكومي والخاص، وقد سعدت بالمشاركة في برنامج ندوة عقدتْ في جامعة هارفارد الأمريكية قبل عدَّة سنوات نظمتها الغرفة التجارية الصناعية بجدَّة، وقد شارك فيها ممثلون للقطاعين الحكومي والخاص، وكان الهدفُ من البرنامج هو إيجادَ لغة حوار ومفاهيم مشتركة في المواضيع المطروحة على الساحة مثل موضوع الخصخصة ومنهجية قيام القطاع الخاص ببعض الخدمات العامة، وكيفية تفادي الأخطاء التي وقع فيها غيرنا من الشعوب، وحماية الفرد والمجتمع من الإساءة المحتملة والواردة إذا لم نتوافر في الخصخصة الضوابط والمعايير اللازمة لاستمرارية فعاليتها ونجاحها مثل توفر عنصر المنافسة النزيهة ومنع الاحتكار.

وقدْ نوقشت كذلك مواضيعُ حيوية أخرى مثل التحديات التي سنواجهها، والفرص التي لا بدَّ أن نستفيدَ منها في القطاعين العام والخاص نتيجة التقدم التكنولوجي، خاصَّة في مجال المعلومات وغيرها من مواضيع (Information Technology)، لا يسع صانعو القرار إلَّا أن يدركوها حقَّ الإدراك.

إنَّنا مقبلون على تحدٍّ عالمي كبير، ولن نستطيع مواكبته إلَّا إذا نجحنا في استحداث وتدعيمِ آليات فعّالة لصنع القرارات تنصبُّ فيها خلاصة خبرات وعلوم وحكمة أبناء المجتمع المخلصين.

---

(195) سورة آل عمران، من الآية 159.

(194) سورة آل عمران، من الآية 155.

العقولُ المُهاجرة

لا يختلف اثنان على أنَّ من أهداف أيِّ مجتمعٍ صالح أن يرى أبناءه يعملون ويجدونَ أنفسهم فيما يعملون، فيبنَى المجتمع ببناء الفرد، ويبنى الفرد ببناء المجتمع.

بل ولا تستقيم أمورُ أيِّ مجتمع إلَّا عندما يحفظ للفردِ كرامته، ومن موجبات تحقيق هذه الكرامة أن يؤمّن المجتمعُ لأبنائه مهنة كريمة شريفة.

نعم، لا يختلف اثنان على ما ذكر، وإنَّما الاختلاف غالبًا ما يكون حول سبل تحقيق هذه الغاية الكريمة والهدف النبيل، وكم من الأهداف والغايات أضاعتها أسبابٌ وسبلٌ خاطئة، بغضِّ النظر عن حُسن نوايا القائمين على الأخذ بأسباب تحقيقها.

وحديثي اليوم معكم لن يكونَ عن تحقيق هدف تأمين عمل لأفراد المجتمع، وإنما عنْ موضوع آخر لا يقلُّ عن الأول أهميةً وخطورة، بل هو مرآة الأول في أعين شريحةٍ مختلفة من المجتمع، وهذه الشريحة هي جزءٌ خطير من المعادلة التي يعرف بها المجتمع، ولن تجدَ للمعادلة حلًّا صحيحًا متوازنًا بدون اعتبار هذه الشريحة.

إنَّ هذه الشريحة هي شريحةُ المبدعين والنوابغ والأذكياء من أهل الفكر والعلم والتي سأسمّيها بشريحة (أهل الفكرة).

وكما أنَّ البطالة هي انعكاسٌ لفشل المجتمع في احتواء الفرد وإهدار طاقته وإبطال دوْره في بناء مجتمعه، فإنَّ للبطالة وجهًا آخر هو مرآةٌ للأول في أعين أهل الفكرة، وهذا الوجه وإنْ كان يختلف عن الأوَّل في مسماه إلَّا أنه يشترك معه في مدلولاته، فهو مثله انعكاسٌ لفشل المجتمع وإهدار لطاقاته وتعطيل وإبطال لدور شريحة من شرائحه (شريحة أهل الفكرة)، أمّا أحدُ مسمّياته فهو

(هجرة العقول)،

وقد تجد بعضَ المجتمعات نفسها تحاول معالجة قضية البطالة دون قضية هجرة العقول، وسببُ ذلك أنَّ للبطالة وجهًا قبيحًا ملموسًا ومرئيًّا يتجسد في شباب عاطل متسكِّع في الشوارع، له انعكاساته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المباشرة، أما بطالةُ أهل الفكرة فلها وجهٌ أقلّ قبحًا على المدى القصير وإنْ كان أكثر تدميرًا على المدى البعيد، فإذا كان الأفرادُ هم لبناتُ بناء المجتمع فإن أهل الفكرة هُم أعمدةُ هذا البناء، والفكرة تقاوم الموت، وترفض أن تنتهي بصاحبها في الشوارع متسكّعًا، أو في بيته خاملًا، فإنْ ضيق عليها فإنها تهاجرُ بصاحبها لأرض يقدر فيها أهلُ الفكرة، إلى أرضٍ يستطيع فيها الشابّ من أهل الفكرة أن يرى فكرته تتحوَّل إلى واقعٍ ينمو ويكبر بإذن الله بجهده ومثابرته، فينتقل صاحب الفكرة من شابٍّ فقير مغمور إلى غنيّ مرفوع الذكر بفضل ما أودعَه الله من فكر، وأعانه عليه من الأخذ بأسباب تحقيقه.

وهناك مجتمعاتٌ لا يتحوّل فيها الفقير إلى غني بغضِّ النظر عن فكرته أو مثابرته إلَّا أن يكون من أهل الطرقِ الملتوية، وفي هذه المجتمعات لا يصنع المال إلَّا بالمال، أمّا الفكرة وصاحبها فإنهما يستعبدان من صاحب المال، وتجد القوانين الاقتصادية والاجتماعية والسياسية كلها تخدم هذا القانون وتدور في فلكه.

وهذه المجتمعاتُ لا تعرف معنى الموضوعية والنزاهة والعدالة في دراستها لما يقدِّمه أهلُ الفكرة في أيِّ صورة من صور الفكر (اختراعًا كانت أو ابتكارًا أو مشروعًا أو كتابًا)، وإنما لسانُ حالها في كلّ أمرها: كم من المال أو الجاه أو القوة أو السلطان لديك؟ وبدلًا من أن تقوم المؤسسات الاقتصادية والمالية بدور هادف في التوفيق بين الفكرةِ الجيدة التي عليها يبنى نجاح المجتمعات، وبين المال الذي هو عصبُ الحياة، فإنَّها توفق بين المال والمال فيزداد

أصحاب الثراء ثراءً بغضِّ النظرِ عن الفكرة، وعندها يفقدُ المجتمع في سعاره وسعْيه وراء المال المعنى الحقيقي للمال كهدفٍ لا وسيلة لعمارة الأرض ونفع البشرية.

وفي مثل هذه المجتمعات تُباع الفضائل وتُشترى بالمال كما يباع كلّ شيء، وتستعبد أهواءُ البشر بعضها بعضًا، ويزداد الثريُّ ثراءً، ويزداد القوي قوة، ولكن في استحكام شهوة المال فيه لا فيما يصلحُ المال منه ومن مجتمعه.

ويزداد المجتمعُ فقرًا لما فاته من فضل أهل الفكر وتسخير المال لخدمة الفكرة الصالحة.

وبذلك يخسر المجتمعُ فكرة تلوَ الأخرى.. ومشروعًا تلوَ الآخر.. وتهاجر الفكرة والمشاريعُ والاختراعات والابتكارات بأصحابها واحدًا تلوَ الآخر.

والواحدُ من أهل الفكرة بألفٍ أو يزيد، والمائة منهم بمائة ألف أو يزيد، وكم من أرضٍ أحياها قليلُ مال في يدِ أهل الفكرة، وكم من أرض أماتها كثيرُ مال في غياب أهل الفكرة، والمجتمع يدفع الثمن أولًا وأخيرًا.

تجويعُ فلسطين امتحانٌ لضميرِ الأمَّة

منذُ فتحت عيني على الدنيا وبدأت أعي وأدرك ما يدور حولي على مستوى العالم العربي والأمة الإسلامية، منذ ذلك اليوم وحتَّى يومي هذا، لم أرَ يومًا واحدًا قطّ ذقتُ فيه حلاوة العزِّ والنصر في رفع الظلم والقهر والاستبداد عن الأرض التي بارك اللهُ فيها وحولها، أرض المقدس.. أرض الإسراء والمعراج.

تتوالى المؤامراتُ الواحدة تلو الأخرى، وتمرُّ الأيام والسنوات، ويزداد أنينُ بيت المقدس، وتزداد معاناة كلّ من رابط من أجل نصرة الحق والعدل.

ويبيع مَن يبيع.. ولكن يبيعُ ما لا يملك، ويزداد مَن يزداد.. ولكن يزداد على حساب نقص الدين، ونقض العهد وخيانة الأمانة.

وعجزت الدولُ العظمى المحالفة للظلم والقهر والاستبداد والاحتلال أن تكسرَ شوكة مَن بقي من أمة محمد مدافعًا عن أرض المقدس تحقيقًا لنبوءة رسول الله ﷺ: (ما تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لعدوِّهم قاهرين لا يضرهم من خالفهم).

وتتكالب القوى لتخنق هذا الصوت أو تقتله وتدفنه، ولكنْ هيهات ثمَّ هيهات لصوتٍ ينادي بما نادى به جميع أنبياء الله من قبْل أن يقطعه مقاطعة مَن يُقاطع، وإن قوطع من أهل الأرض جميعًا فهو موصولٌ بالله متَّصلٌ بسلسلة النبوة معتصمٌ بحبل الله، ومَن ظنَّ أنه يقاطعه فإنه يقاطع ويقطعُ على نفسه الوصلَ بالله الذي له ملكوت السماوات والأرض.

عقودٌ من الزمن مضت على كلمات الرافعي عنْ محنة فلسطين في مقالٍ له بعنوان (أيها المسلمون) (196) ولكن

كلماته مازالت حيةً، لا بما فيها من إحياء للنفوس فحسب؛ ولكنْ بما في أوضاعنا المُزرية المهينة من تأكيد وتحقيق للمعاني التي كتبها آنذاك ولم تتغير، بل تفاقمت وازدادت سوءًا، حتَّى جاء اليومُ الذي تقبل فيه الأمة الإسلامية على شعب مسلمٍ أن يمارَس عليه ذلُّ التجويع وعذابه، الذي حَرم الإسلام أن يُمارس على أيِّ بشر على وجه الأرض، كما هو الحالُ في العذاب بالنار والحرق، فلا يعذِّب بالنار والجوع إلّا ربُّ النار والجوع، وفي الرضوخ لسياسة التجويع لأهالينا وأبنائنا في فلسطين فضيحة وذلٌّ وهوان لآخر أمةٍ تحمل رسالة السماء للأرض.. أمة محمد صلّى الله عليه وسلم.

عندما كتبَ الرافعي مقالته قبلَ عدّة عقودٍ من الزمن كان المسلمون آنذاك ثلاثمائة مليون مسلم، واليوم ازددنا ولكنْ في الرقم فقط! فقاربنا البليون ونصفَ البليون فقط؛ لتحقّق نبوءة رسول الله فأصبحنا غثاءً كغثاء السيل.

كتبَ الرافعي آنذاك في مقالته بعنوان (أيها المسلمون)، فقال: (أيها المسلمون! ليست هذه محنة فلسطين، ولكنها محنةُ الإسلام، بريدون ألّا يُثبت شخصيته العزيزة الحُرة. أولئك إخواننا المنكوبون، ومعنى ذلك أنهم في نكبتهم امتحانٌ لضمائرنا نحن المسلمين جميعًا. أولئك إخواننا المضطهَدون، ومعنى ذلك أنَّ السياسة التي أذلتهم تسألنا نحن: هل عندنا إقرارٌ للذل؟ ماذا تكون نكبة الأخ إلّا أن تكون اسمًا آخر لمروءة سائر إخوته أو مذلتهم؟

لو سُئلت ما الإسلامُ في معناه الاجتماعي؟ لسَألتُ: كم عددُ المسلمين اليوم؟ فإن قيل: ثلاثمائة مليون. قُلتُ: فالإسلام هو الفكرة التي يجب أن يكون لها ثلاثمائة مليون قوة.

أيجوع إخوانُكم أيها المسلمون وتشبعون؟ إنَّ هذا الشبع ذنبٌ

يعاقبُ الله عليه. والغنى اليومَ في الأغنياء المُمسكين عن إخوانهم هو وصفُ الأغنياء باللؤم لا بالغنى.

لماذا ارتفعت المآذن إلّا ليعتاد المسلمون رفع الحق؟

أيها المسلمون! كونوا هناك. كونوا هناك مع إخوانكم بمعنًى من المعاني.

لو صام العالمُ الإسلامي كلّه يومًا واحدًا، وبذل نفقاتِ هذا اليوم الواحد لفلسطين لأغناها.

لو صام المسلمون كلهم يومًا واحدًا لإعانة فلسطين، لقال النبي مفاخرًا الأنبياء: هذه أُمتي!.

أيها المسلمون! هذا موطنٌ يزيد فيه معنى المال المبذول فيكون شيئًا سماويًّا.

كلُّ قرش يبذله المسلمُ لفلسطين يتكلَّم يوم الحساب يقول: يا رب، أنا إيمانُ فلان!).

---

(196) وحي القلم، ج 2، ص 209، ط: دار الكتب العلمية، 2000م.

هجرةُ العقول

في تفاعلٍ جماهيري مع مقال لي عن (هجرة الأموال)، توالتْ علي المكالمات الهاتفية والرسائل الإلكترونية والفاكسات التي تؤكد أنَّني وضعت أصبعي على موضع جرحٍ عميق مؤلم مازال ينزف، حيث بيَّنت أن المعاناة التي يعانيها المواطن (بغضِّ النظر عن موقعه) تستنزف طاقته كلها، ولا يبقى منها شيء إلَّا القليل، إن بقي، ليحقق به بعضَ أحلامه في العمل المثمر البنَّاء، وإنَّ أقلَّ ما يمكن أن أُصور به مجتمعنا هو أنه مجتمع كثرتْ فيه الأسقام والعلل، وأصابه الشلل. أوَنتساءل بعد كلّ هذا لمَ تزدهر دول ومدنٌ مجاورة على حسابنا؟!

وبنظرةٍ متأنية إلى واقع مجتمعنا المعاصر نجدُ أننا أمام هجرة هي أمَرُّ وأقسى وأدْهى؛ ألا وهي هجرة العقول، فبالإنسان تبنى الحضاراتُ وتزدهر الأمم، والإنسانُ هو الذي يصنع التقدم والنهضة.

أمّا المال والمواردُ الطبيعية فلا تصنع حياة، وإنّما هي أدوات في يدِ الإنسان تنصاع لعقله وتدبيره وإرادته، وهي أدواتُ بناءٍ في يد الإنسان العاقل المخلص القوي الأمين، كما أنها معولُ هدم في يد الإنسان الجاهل أو الضعيف أو الخائن.

أمّا هجرة العقول فحدِّث ولا حرج.. وإنني شخصيًّا على مدى الأشهر الماضية شهدت هجرةَ عدة أطباء وطبيبات سعوديات هجرةً لا عودة بعدها. وهُم مَلَكات نادرة وخبرات واسعة، وعندما حاولت شخصيًّا أن أثنيهم عن عزمهم، وقدَّمت لهم الحوافز القوية والعروضَ المغرية للبقاء، أجابوا بأنهم عندما عادوا من الغرب قبل عقدٍ من الزمان أو يزيد كانوا يحملون ما أحملُ أنا اليوم من الحماس والعزيمة على الإنجاز والتقدم ورفع مستوى الرعاية

الصحية، ولكنهم حاولوا على مدى عقدٍ من الزمن أو يزيد، وهُم اليوم يعتقدون بأنَّ الحالة ميؤوس منها، وحان وقت الرحيل والهجرة، وبالفعل هاجروا هجرةً لا عودة بعدها.. إلّا أن يشاء الله أنْ يغير القلوب أو الأوضاع الراهنة.

يا لسخريةَ القدر.. نطالب بالسعودة في حين أنَّ العقول الفذَّة والنوابغ من السعوديين قد بدأتْ بالهجرة، والواحد من هؤلاء بألفٍ من غيرهم أو يزيد.

ما قيمةُ مواردنا الطبيعية وأموالنا الطائلة إنْ هاجرت العقول؟ وهل يغفل دورُ النوابغ والناجحين من البشر في صناعة نهضة الأمم وتقدمها إلّا جاهل.

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يجلس ذاتَ يوم وسط صحابته، فقال لهم: تمنّوا. فقال أحدهم: أتمنى أن يملأ هذا البيت مالًا فنستخدمه في نصرةِ الإسلام (وكان هذا ممَّن يعتقدون بأن الموارد تحقق النصر) فقال له عمر: ليست هذه. فقال آخر: يا أميرَ المؤمنين، أتمنى أن تملأ هذه الدار خيلًا، فنسيّرها في سبيل الله فينتصر الاسلام (وكان هذا ممَّن يعتقدون بأن العدَّة والسلاح تحقق النصر) فقال عمر: ليست هذه. فقالوا: قل لنا أنتَ يا أمير المؤمنين. قال: أتمنى أن تملأ هذه الدار رجالًا كأبي عبيدة بن الجراح وأسامة بن زيد وخالد بن الوليد وبلال، فيمتلكون المالَ والخيول فسيّرونها لنصرة الإسلام وعمارة الأرض.

إنَّني أكتب هذه الكلمات ولا دافعَ لي أن أقول ما قلت إلَّا غيرةً على الوطن وحُبًّا له، وما عُدت بعد عشرين عامًا إلَّا بقصد عمارة الأرض كما يحبُّها الله أن تعمر. وأعلم أنني بكلماتي هذه قد أسخط عليَّ الكثيرين، ولكنَّ رضا الله أولى، ومَن صدقت وطنيَّته صدق لسانه، ومَن أرضى الله بسخط الناس رضي اللهُ عنه

وأرضى عنه الناس.

مفهومُ المنافسةِ الإسلامي

كثيرًا ما نتحدَّث فيما بيننا بحرقةٍ ولوعة وألم كُلما عادت بنا الذكرياتُ إلى عصر العزّ والكرامة للإنسان في ظل حكم السماء، وتزرف دموعنا على ماضٍ كُنا فيه خيرَ أمة أُخرجت للناس، عندما كان المسلم خليفة الله في الأرض يقود البشرية لهدي السماء وعدل السماء وعزِّ الدنيا والآخرة.

وشاءت حكمةُ الله أن نولَد في هذا العصر الذي تخلَّف فيه المسلمون، ولكننا خُيِّرنا بين أن نزيد من تخلف هذه الأمة وضياع الأمانة أو أنْ نكون سواعدَ دفعٍ نحو حاضر مليء بالكفاح، ومستقبل يعكس أمجادَ ماضٍ زاهر. وليكون ذلك فإنه لا بدَّ أن نؤمنَ بأن الخروج من هذا التخلف هو بيدِ كلّ واحد منّا، كلّ في دائرته التي يعمل فيها ويتحرك داخلها لتلتقي الدوائر عمّا قريب إنْ شاء الله تعالى وتصلح المجتمعات والأمة.

ورغبة منّي في إصلاحِ الدائرة التي أعمل فيها كرئيس تنفيذي لمستشفى فإنني وجدتُ في السعي لإحياء المفهوم الإسلامي للمنافسة من الأهمية البالغة ما دفعني لتسطيرِ هذه الكلمات، وجعل هذه القضية إحدى القضايا المهمة في حياتي.

لقد غلبَ على مجتمعاتنا مفهومُ المنافسة غير الإسلامي القائم على هدف تحقيق أكبر قدرٍ من الربح المادي دون الأخذِ في عين الاعتبار الإضافة الحقيقية لهذا العمل في عمارة الأرض ونفع البشرية، وبهذا انفصل عملُ الإنسان عنِ الهدف النهائي الحقيقي لكلِّ مسلم يدرك دَوْرَه كَخَليفةٍ لله في أرضه، وحاملٍ لآخر رسالات السماء للبشرية.

فأصبح المسلمُ الذي يمارس المفهومَ غير الإسلامي في المنافسة يتعامل مع الأسباب وينسى المسبب، ولا يفحص النية وراءَ

العمل، ولا يلتزم بأخلاقياتِ العمل، ولا يتورَّع في انتهاج الوسائل، ورأينا نتاجَ هذا الفكر فهناك مَن ظنوا أن نجاحهم لا يكون إلَّا على أنقاضِ منافسيهم. فسادَ الشكُّ وانتشرت الريبة وكثرَ النزاعُ وتساهل مَن تساهل في تخوين أخيه المسلم وتقديم سوءِ الظنِّ على حُسن الظن، فذهبت بركةُ الأعمال، وَوُكِّل كلّ لعمله وللأسبابِ التي اعتمد إليها من دون المسبب.

أمّا مفهومُ المنافسة الإسلامي فهو تحقيق أكبر قدرٍ من الأجر والثواب، والأخذ بالأسباب في أكمل وأتمِّ صورها، والتعامل مع المسبِّب في كلّ خطوة في الطريق، فالمؤمن قد باعَ واشترى ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ (201)، والأجر معلَّق بيدِ المشتري (اللهُ عزَّ وجل) والأجرُ يُقَيِّمُه المشتري سبحانه وتعالى، فعلى قدرِ كمال السلعة وامتثالها لمعايير المشتري (معايير السماء والهدى الرباني) وتَجَرُّدها من كلّ ما يعلق بها من تراب الدنيا وحظوظ النفس؛ على قدر كلّ ذلك يكون العطاءُ في الدنيا والآخرة، وهذا من كمال عدلِ المسبب، حيث إنه سبحانه وضعَ كلّ السنن ليأخذ بها كلٌّ مِن المؤمن والكافر، ويجني من ثمارها الدنيوية كلٌّ من المؤمن والكافر، ولكنه سبحانه أثابَ المؤمن المخلص المتجرِّد له على النية، وضاعف له من أجر الآخرة، بل وأضافَ فبارك له في أجر الدنيا، وفتح له من أبواب التوفيق ما يتعدَّى المتوقع نتيجة أخذه بالأسباب فقط عطاءً وفضلًا منه لكلِّ مَن يأخذ بأسبابه إيمانًا به، ويتعامل معه ويقصده في العمل.

يقول الرافعي (200): (الحياة مدةُ عمل، وكأنَّ هذه الدنيا بكلِّ ما فيها من المتناقضات، إنْ هي إلَّا مصنع يُسوَّغُ كلّ إنسان جانبًا منه، ثمَّ يقال له: هذه الأداة فاصنعْ ما شئت،

فضيلتك أو رذيلتك). ثمَّ يقول: (وفي الحياة الدنيا يكون الإنسان ذاتًا تعمل أعمالها، فإذا انتهتِ الحياة انقلبت أعمالُ الإنسان ذاتًا يخلد هو فيها، فهو من الخير خالد في الخير، ومن الشرِّ هو خالدٌ في الشر، فكأنَّ الموت إنْ هو إلَّا ميلادُ للروح من أعمالها، تولَد مرتين: آتية وراجعة(199)). انتهى كلام الرافعي.

ومِن شروط تحقيق مفهوم المنافسة الإسلامي أنْ تكون النيةُ خالصة، والهدف هو وجه الله، والهدف هو عمارة الأرض كما يحبُّها اللهُ أن تعمر، والالتزام بأخلاق وآداب السماء. وإنَّني أقدِّم مثالًا من صميم عملي، فالطبيب المسلم الذي أخلصَ نيته، وعرف الطريقَ يهدف من وراء عمله وجهَ الله، وأن يكون أهلًا بأن يُجري اللهُ الشفاء على يديه، فالشفاءُ أولًا وأخيرًا بيدِ الله، ومِن هذا المنطلق فإنَّ هذا الطبيب يفرح بكلِّ زميلٍ مهنة مخلص ناجح يشاركه الوجهة والهدف والغاية، بل ويسعد بتقديم أيِّ معونة له ومشاركته كلّ ما أفاض اللهُ عليه من علم من منطلق مضاعفة الأجر، فكلُّ معونةٍ يُقدمها لزميله في المهنة سيكون له من الأجر مَا لزَميله لا يُنقص ذلك من أجره شيئًا، بل ويسعد عندما يقتبسُ منه زميله الأفكارَ البناءة والعلوم النافعة ويعملُ بها وينشرها، وهكذا يتضاعف الأجرُ، ويضاعف اللهُ لمن يشاء، وعلى قدْر التجرُّد والإخلاص يكون العطاءُ الرباني والتوفيق ممّا يُذهل أهلَ الدنيا ممَّن يعاملون الأسباب دون المسبب.

ومِن هذا المنطلق وبهذا المفهوم تصبح إشاعة أيِّ معلومة وتقديم أيّ يدٍ للعون تساعد في تحقيق هدف الطبيب من رفع مستوى الرعاية الصحية؛ واجبًا لا مناصَ منه عند أهل الصدق والإخلاص، وتَسود روح التعاون والبر والتقوى، وتختفي روحُ الشكِّ والريبة والعداوة، وتتحقق الاستجابةُ للأمر

الرباني ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبَرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (198)، وبهذا المفهوم يعلم المسلم أن هناك مباركة الخالق لأجر الدنيا وكسب الدنيا فتصبح (الكعكة) (Pie) التي يرمز لها في لغة المنافسة بمجموع المتاح في عالم المادة كأجر وجزاء ومكسب يضع الله فيها بركةً من عنده فتغطي حاجة الجميع وتزيد على قدْر ما يرى اللهُ في المتنافسين في إرضائه من خير وتجرد وإخلاص.

إنَّ تفشي المفهوم غيرِ الإسلامي في المنافسة في مجتمعاتنا لهوَ حصيلة فصلِ الدين عن الحياة، وما يرمز له البعض بقولهم (Business is Business) وكأنَّ لسان حالهم يقول (لا دخلَ في إدارة الأعمال البحتة بالإسلام كدين حياة)! وقد نجدُ في بعض المسلمين صورةً جميلة لمسلم ملتزم بالشعائر التعبدية من صيام وصلاة وقيام وزكاة، ولكننا لا نجد لهذه الشعائر التعبديةِ من مصداقية حقيقية كاملة في مفهوم العبادة الشاملة، والتي منها حسن الخلق وحسن الظنِّ بالناس، وإخضاع (الأنا) للحقِّ وتطويعها حتَّى تكون النفسُ التي حوتْها لِيّنة العريكة كما كان قدوتنا وسيدنا محمدٌ ﷺ.

وقد ينشأ من هذا التناقض فتنةٌ عظيمة، حيث يصبح المسلمُ الملتزم بالشعائر الذي ينظر إليه كقدوة، صورة مهزوزة ومشوَّشة للمسلم الملتزم يمكن أن تُستغلَّ في تشويه صورة الإسلام عند ضعاف النفوس، ومن لم يكن لهم قُدْرَة في التمييز بين صورة الإسلام كدين حياة كامل وبينَ المسلمين كأتباع يتفاوتون في مدى تحقيق وتطبيق هذا الدين السماوي العظيم؛ فبذلك يؤتى الشرعُ من قِبَل المسلم وهو لا يدري، فهذا الشرعُ لا يحيا إلَّا أن يختلط بلحم ودم ويمشي على الأرض.

إنَّ تفشي الشكِّ وانتشار الريبة وسهولةَ التخوين وتقديم سوء

الظنِّ وكثرة النزاعات والخلافات على توافه الأمور، كلّ ذلك نتاجٌ طبيعي لتأصيل مفهوم المنافسة غير الإسلامي.

ويقول الرافعي(197): (يا عجبًا للناس عجبًا لا ينتهي! كيف يجعلون الحياةَ مدةَ نزاع وهي مدةُ عمل، وكيف لا تبرحُ تنزُو النوازي بهم في الخلاف والباطل، وهُم كلما تدافعوا بينهم قضيةً من النزاع فضربوا خَصْمًا بخصم وردّوا كيدًا بكيْد، جاء حكمُ الموت تكذيبًا قاطعًا لكلِّ مَن يقول لشيء: هذا لي؟

أمَا والله إنه ليس أعجبُ في السخرية بهذه الدنيا من أن يُعطي الناس ما يملكونه فيها لإثبات أن أحدًا منهم لا يملك منها شيئًا، إذْ يأتي الآتي إليها لحمًا وعظمًا، وبينهما سفاهةُ العظم واللحمِ حتَّى على السكين القاطعة).

إنَّ المسئولية عظيمة، والأمانة ثقيلة أبتِ السماواتُ والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقنَ منها وحملها الإنسان، ولن نستطيع حملها فُرادى، ولا سبيل إلَّا بالتعاون والتكاتف وإصلاح النوايا وتصحيح الوجهة والغاية، فأعداء الأمة متربِّصون، ويدُ الله مع الجماعة، وبغيرها نحن هالكون.. وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، وإنَّ الله لا يغير ما بقومٍ حتَّى يغيروا ما بأنفسهم.. فلنُرِ الله خيرًا من أنفسنا.

---

(201) سورة التوبة، من الآية 111.

(200) من مقال: وحي القبور، ج2، ص 122.

(199) المرجع نفسه، ص 123.

(198) سورة المائدة: 2.

(197) المرجع السابق، ص 122.

مسئوليةُ الاستخلافِ

عندما تصل القوةُ إلى أيدٍ لا تؤمن بأنَّ عليها واجبًا سماويًّا تجاه تحقيق الأمن والسلام والرخاء للإنسانية، تصبح المصالحُ في أضيق صورها، سواء كانت مصالح على مستوى الأفراد أو المجتمعات أو الدول؛ هي المحكَّ الأول والأخيرَ في صنع القرارات. وتضيع بذلك مسئولية الاستخلاف في الأرض التي أوكلها خالقُ السموات والأرض للإنسان، والتي من ورائها كانت غايةُ الخلق لتحقيق مفهوم العبادة الشامل وعمارتها كما يحبها اللهُ أن تعمر، وإرساء دعائم العدالة والمساواة. وعندما تُغلَّب المصالح يخرج الإنسانُ من أصل قانون وجوده على الأرض (من خشية الله والسعي لإرضائه وعبادته وعمارة أرضه كما يحبها أن تعمر) إلى قانونِ سيادة نواميس الطبيعة المجنونة في الإنسان مِن أهواء وغرائز حيوانية، وتسابق لإشباع (الأنا) وكلّ ما تتغذى عليها (الأنا) من غرور وسيطرة وتحكم في العباد، وبذلك تفسد الأرضُ ويغلب عليها قانون الغاب.

يقول صاحبُ كتاب (وحي القلم) مصطفى صادق الرافعي(202): (هو دين يعلو بالقوة ويدعو إليها، ويريد إخضاعَ الدنيا وحكمَ العالم، ويستفرغ همَّه في ذلك، لا لإعزاز الأقوى وإذلال الأضعف، ولكنْ للارتفاع بالأضعف إلى الأقوى، وفرقُ ما بين شريعته وشرائع القوة أنَّ هذه إنما هي قوة سيادة الطبيعة وتحكمها، أمَا هو فقوةُ سيادة الفضيلة وتغلبها، وتلك تعملُ للتفريق، وهو يعملُ للمساواة، وسيادة الطبيعة وعملُها للتفريق هما أساس العبودية، وغلبة الفضيلة وعملها للمساواة هما أعظم وسائل الحرية.

ويخرج من ذلك أن يكون أكبرُ أغراض الإسلام هو أن يجعل

من خشية الله تعالى قانونَ وجود الإنسان على الأرض، فمن أيِّ عطفيه التفت هذا الإنسان وجدَ على يمنته ويسرته ملكيْن من ملائكة الله يكتبان أعماله بخيرها وشرِّها، فهو كالمتهمِ المُستراب به في سياسة النفس، لا يمشي خطوة إلّا بين رقيبين يحصيان عليه حتَّى أسباب النية، ويجمعان منه حتَّى نزوات الكبد، ويترجمان عنه حتَّى معاني النظر، وإذا قامت هذه المحكمة الملائكية وتقررت في اعتبار النفس قامَ منها على النفس شرعٌ نافذ هو قانون الإرادة المميزة، تريد الحسنات وتعمل لها، وتخشى السيئات وتنفرُ منها، فإذا معاني الجسد يحكم بعضها بعضًا، لا لتحقيق الحكومة والسلطة، ولكن لتحقيق الخير والمصلحة، وإذا نواميس الطبيعة المجنونة في هذا الحيوان، قد نهضت إلى جوانبها نواميس الإرادة الحكيمة في الإنسان، وإذا كلّ صغيرة وكبيرة في النفس هي من صاحبها مادة تهمةٍ عند قاضيها في محكمتها، وإذا كلّ ما في الإنسان وما حول الإنسان لا يراد منه إلَّا سلامُ النفس في عاقبتها، وإذا معنى السلام هو المعنى الغالب المتصرف بالإنسانية في دنياها. فليس يعمُّ السلام إلَّا إذا عمَّ هذا الدين بأخلاقه فشمل الأرض أو أكثرها، فإن قانون العالم حينئذٍ يصبح منتزعًا من طبيعة التراحم، ويولد المولود يومئذٍ وتولد معه الأخلاق الإنسانية. وما قيمة العقيدة إلا بصدقها في الحياة وأكثر ما يصنع هذا المال، إمَّا الكذب الصراح في الحياة، وإمَّا شبهة الكذب، ولهذا تنزه النبي ﷺ عن التعلق به، وزاده بعدًا منه أنه نبي الإنسانية ومثلها الأعلى، فحياته الشريفة ليست كما نرى في الناس: إيجادًا لحل مسائل الفرد، وتعقيدًا لمسائل غيره، ولا توسعًا من ناحية وتضييقًا من الناحية الأخرى، ولا جمعًا من هنا ومنعًا من هناك؛ بل كانت حياته بعدَ الرسالة منصرفةً إلى إقرار التوازن في الإنسانية، وتعليم الجميع على تفاوتهم واختلاف مراتبهم كيف يكون لهم عقلٌ واحد من الكون، وبهذا العقل الكوني السليم ترى المؤمن

إذا عرض له الشيء من الدنيا يَفْتِنه أو يصرفه عن واجبه الإنساني أبتْ نفسه العظيمة إلَّا أن ترتفع بطبيعتها، فإذا هو في قانون السمو وإذا المادةُ في قانون الثقل، فيرتفع وتتهاوى، ويصبح الذهب وإنه ذهب وليس فيه عند المؤمن إلّا روح التراب.

إنَّ فقرَ ذلك السيد الأعظم سيدنا محمد ﷺ (ليس فقرًا، بل هو كما رأيت: ضبط السلطة الكائنة في طبيعة التملك لقيام التعاون الإنساني على أساسه العملي، هو المحاجزة العادلة بين المصالح الاقتصادية الطاغية، يمنع أن تأكل مصلحةُ مصلحةً فتهلك بها، ويوجب أن تلدَ المصلحة مصلحةً لتحيا بها).

وانني عندما أقرأ في أيامنا هذه التي انتشرَ فيها الفقر والجوع والمرض عن السباق الفضائي بين القوى العظمى لاستثمار القمر والمريخ، وعن مئات البلايين من الدولارات التي تنفق في هذا السباق المسْعور لا يسعني إلّا أن أسأل نفسي.. كيف يفكر إنسانُ اليوم؟ وفي أيِّ قانون يعيش؟ قانون الأهواء أم قانون الفضائل؟

هل سمعنا عن سباق دولٍ عظمى في القضاء على الفقر في العالم أو توفير العلاج لأهل الأرض؟

أليسَ من البديهيات أنْ يسعى الإنسانُ لإشباع إخوانه وأخواته في الإنسانية وعلاجهم وتأمين السلام لهم، وأن يكون ذلك أولوية. فكيف أصبحتْ هذه البديهيات والأولويات في عقل إنسان اليوم أمورًا صعبة المنال مستحيلة التحقيق؟ وأصبح خيالُ وحلم عمارة القمر والمريخ وبناءُ مدن عليهما يُنظَر إليه كتحدياتٍ لا بدَّ من التغلب عليها وتحقيقها.

كيف يبرَّر إنسانُ اليوم إنفاقَ مئات البلايين على أبحاث استعمار القمر والمريخ على أمل أن يكون في ذلك خيرٌ لإنسان الغد، في حين يموت إنسانُ اليوم جوعًا وفقرًا ومرضًا في بقاع

كثيرة من الأرض، وفي يد إنسان اليوم مَدُّ يَدِ العون من غذاء وعلاج وإنقاذ هذه الأرواح من عوَزها وتلبية حاجاتها الضرورية للحياة.

إنَّ إنسانَ اليوم قد أوصل ألعابَه الإلكترونية إلى سطح القمر والمريخ، وعجز أنْ يوصل الطعام إلى موائد عشرات الملايين من أهلِ الأرض، ويريد أنْ يعمر القمر والمريخ وما عمَّر الأرض كما يحبُّ خالقُ السموات والأرض أن يراها تعمر على أسسِ الرحمة والعدالة السماوية. نعم.. لقد خسرَ العالم كثيرًا بانحطاط المسلمين.

---

(202) من مقال (الإشراق الإلهي وفلسفة الإسلام)، ج 2، ص 4 : 5.

ولكُم في المضاربةِ مهلكةٌ وفسادٌ

إنَّ للمال فلسفةً واضحة في الإسلام، لا يراها إلَّا أهل البصائر، ولا يدركها إلَّا العارفون، ولا يصبر على ممارستها إلّا مَن جبل نفسَه على تطويع جوارحها، وحملها أن لا تحيا إلَّا في قانون آخرتها، فلا ترى الدنيا إلَّا بعين الآخرة، إذ ليسَ له من هذه الدنيا إلَّا بقدر ما يحقِّق من غاية خلقه في عمارة الأرض والنفع والإصلاح، شأنه شأن الشجرة التي يضرب اللهُ لنا بها المثلَ في قوله ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ٢٤ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٢٥﴾ (204).

وقد أكثر القرآنُ الكريم من ذكْر الزرع والشجر والحبوب والسنابل والثمار والحصاد، لتقريب المعنى الذي نحن بصددِ التفصيل فيه، ولتكون رموزًا لعمل الصالحات، وفعل الخيرات، والإنفاق، وعمارة الأرض، ورمز الله للأنبياء بالزراع في سورة محمد (يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفَّار)، وكأنَّ المعنى المراد اشتراكهم في الصفة وطبيعة المهمة وروح المنهج الذي يريد القرآنُ أن يُربي عليه المسلم، يدعوه أن يحيا بروح الزراع ويحتذي نهجهم في الزراعة، بدءًا من اختيار البذرة الصالحة، وحُسن انتقائها، واختيار الأرض الصالحة، وتمهيدها لتلقي البذرة، ثمَّ بإحياء البذرة بإيداعها الأرض في الوقت المناسب، ورعايتها من سقاية وحماية وتوفير المناخ الملائم لها والصبر عليها وهي مغمورةٌ تحت التراب لا يراها بعينه وإنّما يراها بإيمانه بسنةِ الخالق فيها، وثقته بعدله وفضله لكلّ مَن اتبع سننه الكونية وأخذ بأسبابها.

وقد يصبر الزارعُ سنوات طوالًا دون أن يرى النبتة، ومن ثمَّ يصبر عليها حتَّى تكبر وتثمر، ثمَّ لا يزال على عمله هذا فيما يتطلبه

من جهدٍ ومعرفة وصبر، وقلبُه مُعلق بخالقه يطلبُ منه العون والرزق والفضل، وهو في كلّ هذا يحيا ويعيشُ بما تحييه هذه الزروع في الأرض، فينظر إلى الشجرة المثمرة فيرى فيها نفسه، وقد حقق مُراد خالقه فأنفقَ حياته في إحياء الأرض بإحيائه لهذه الشَّجرة، وقد حققت الشجرةُ كذلك مرادَ خالقها، فكانت حياتها هي في عطائها لأهل الأرض وله.

كما وصفها الرافعي في كتابه (وحي القلم) في مقالٍ بعنوان (سمو الفقر في المصلح الاجتماعي الأعظم1) (203)، فقال: (وما قطّ نبتتْ شجرة في مكانها لتأكل وتشرب وتختزن السماد والتراب وتحصنهما وتمنعهما عن غيرها، ولو قد فعلت ذلك شجرة لكان هلاكها فيما تفعل، إذ تحاول أن تضاعف فائدتها من قانون العالم، فيكون طمعُها سريعًا في إفساد الصلة بينهما، فلا يجد القانون فيها نظامه، ومن ثمَّ لا تجد في القانون نظامها، فيُهلكُها الذي كان يُحييها، وتستعبد لحظ نفسها، فيُفقدها ذلك حرية الحياة التي كانت لها في نفسها.

وإنَّ الناس كحَبِّ القمح في السنبلة، ليس لجميعه إلّا قانون واحد، فموضع كلّ حبة من السنبلة هو ثروتها، علتْ أو سفلتْ، وكثير ما تأخذه أو قلَّ، وإذا كان أساس الحياة في حبة منها أن تجد قوامها وكفايتها من مادة الأرض، فتمام الحياة فيها أن يغمرها النور من حولها، وأن يستمرَّ النور من حولها يغمرها.

فالحبةُ من السنبلة بكلِّ خير على كلّ حال، وإنها لتُنْزَع وما بها أنها نُزعتْ، ولكنها أدتْ ما تؤدي، وانقطعت من قانون لتتصل بقانون غيره، وما اغتنتْ ولا افتقرت، ولا أكثرت ولا أخفت بل حقَّقت موضعها، فإنها ما نبتت لتبقى، وما نمتْ إلّا لينقطع نماؤها. وكذلك المؤمنُ الصحيح الإيمان، الصادق النظر في الحياة: هو أبدًا في قانون آخرته، فهوَ أبدًا في عمل ضميره). انتهى كلام

الرافعي.

إنَّ المال في يد المسلم لهو بذورُ خير لا يبقى منها في يده بعدَ موته إلَّا ما استودعه في أرض صالحة، أمَّا ما عدا ذاك فهو مَتلفةٌ ومَفسدة لهذه البذور ونقصٌ من خيرات الأرض وتعطيلٌ لمصالح الناس وضياعُ أجرٍ عظيم للزراع..

إنَّ ما نراه في أيامنا هذه من التسارع على الربح السريع بدون عناء أو مشقة أو جهد أو دراية أو علم وهو ما يسمى في لغة العموم بالمضاربة؛ أمرٌ بعيد كلّ البعد عن الروح التي فصلنا فيها أعلاه.

وهناك فرقٌ بين مَن يشتري سهمًا في شركة يؤمن برسالتها ويعلم نفعها وخيرها فيكون له سهمٌ في بنائها ودعمها لتحقيق رسالتها فيصبر عليها، ومِن ثمَّ يجني هو ويجني المجتمع ثمار إسهاماته؛ وبينَ مَن يضارب على تقلب الأسعار المحمومة يريد أن يتصيَّد من هنا وهناك، بل وما أقبح مَن يتآمر مع بعض أصحاب الأموال لرفع الأسعار وخفضها كيفما يحلو لهم لتحقيق غايةٍ واحدة واضحة ألَا وهي زيادة ما بيدِه من مال، وكان الأجدرُ أن يسأل نفسه عن بذورِ الخير التي أودعَها في مؤسسة أو شركة هل آمنَ برسالتها وغايتها واستوثق مِن رعايتها، وأن يسأل نفسه كم سيجني مجتمعُه من ثمارها معه، لا كم ذا الذي سيجنيه وحده، كان الأجدرُ أن يكون السؤال هو: مَا إسهاماتي في بناء المصانع والمدارس والجامعات والمستشفيات والمكتبات والشركات النافعة لمجتمعي؟

كم بيتًا فتحتُ؟ وكم جائعًا أشبعتُ؟ وكم عاريًا سترتُ؟ وكم طالبًا ساعدت في تعليمه؟ وكم مريضًا أسهمت في علاجه؟ كم بذرة من هذه البذور غرستها في هذه الأرض أم تلك.. لا كم زادَ اليوم من حصيلة (بذور) المال التي بين يدي؟!

أرباح على الورق.. وخسائر على الورق.. وأسعار مزيفة..

يزداد هذا لينقصَ ذاك، وفي نهاية المطاف لم يزدْ ولم يبن هذا شيئًا.. ولا بنى ذاك، بل أكل أحدهما مال الآخر في لعبةٍ أصبح يغامر ويقامر فيها الصغيرُ قبل الكبير، ويتآمر فيها الكبيرُ على الصغير على أمل أن يربح من خسارته بدون جهد أو عناء.

---

(204) سورة إبراهيم: 25 - 24.

(203) وحي القلم، ج 2، ص 47: 48، بتصرف.

سنغافورة.. قصَّةُ نجاح

كنتُ قد وعدتُ أن أعرض عليكم في مقالي هذا قصةَ نجاح سنغافورة، وهو نموذجٌ لدولة استطاعت على مدى ثلاثة عقود أن تنتقلَ من دولة ثالثة إلى دولة أولى، ومن أكثر الدول فسادًا إلى أقلها وأنظفها.

بدأت محاربةُ الفساد في سنغافورة بالقرار السياسي الذي أطلقه رئيسُ وزراء سنغافورة منذ توليه الحكم في قوله (إننا لا ننظر لعملية السيطرة على الفساد على أنَّها مجرد قضية أخلاقية أو فضيلة وإنَّما كحاجة، وإن المحافظة على أن تبقى نظيفًا وتنبذ الأشخاص القابلين للرشوة يعدُّ من المبادئ القيادية للحكومة).

ويفسر السيد شوسيرياك مدير دائرة التحقيق في الممارسات الفاسدة في سنغافورة في المؤتمر المنعقد في الصين عام 2002م بعنوان (تعزيز التكامل ومحاربة الفساد) ماذا يقصد بالقرار السياسي فيقول:

(يوفر القرارُ السياسي الأساسَ لبذل كلّ الجهود والمساعي لمجابهة الفساد، ويشكل كلّ الأسس المهمة والبنيات الأساسية الفوقية التي يعتمد عليها كلّ العمل المناهض للفساد، كما يوفر التربة الصالحة والعناصر المغذية التي تساعد على بذر بذورِ العمل المناهض للفساد حتَّى ينمو إلى شجرة راسخة الجذور، ولكن ينبغي ألّا يكون القرار السياسي مجرَّد خطب وشعارات دينية جوفاء، فالعبرةُ بالأعمال وليس بالأقوال، وإلّا فسيكون القادة السياسيون قد وضعوا أنفسهم تحتَ المجهر، وأصبحوا بذلك عرضةً للمساءلة. كما أنهم يدركون تمامًا أنهم إذا كانت بيوتهم من زجاج فلن يستطيعوا أن يقذفوا حجرًا واحدًا في وجْه الظلم والفساد. إنَّ الأمر ببساطة يتطلب رجالًا أمناء ليقدموا أعمالًا مخلصة ونزيهة تكريسًا

للسلطة الأخلاقية، فالأعمالُ المخلصة هي بكلِّ تأكيد التعبير النهائي للقرار السياسي للسيطرة على الفساد.

وقد شرعت الحكومةُ في إزالة كلّ العقبات التي تواجهها، فالقوانين الضعيفة تقوى عندما تُطوع وتُسخر لدعم الأقلية من النُّخب الحاكمة لخدمة مصالحهم الفاسدة، حيث يقومون بتعبئة وتحريك الشعب والمجتمع والمؤسسات المدنية وكلّ أجهزة الدولة بما فيها الجهاز القضائي لمحاربة الفساد حيث لا تعارض في المقاصد، وتصبح هناك وحدة في الهدف والعمل والقصد والتفكير والرأي وكأنهم مدفوعون في ذلك بمرسومٍ ملكي أو أمر إمبراطوري سامٍ.

وانطلاقًا من المقصد السياسي الكبير أنشأتِ الحكومة دائرةَ التحقيق في الممارسات الفاسدة CPIB وكأنها بذلك تدعونا لاستنهاض الوكالة غير الفعّالة في مناهضة الفساد الموروث من المستعمر ومساعدتها في محاربة الفساد، وبذلك أصبحنا إحدى الأدوات العديدة في ترسانة الحكومة لمحاربة الفساد. ولكن قد تكون دائرة التحقيق في الفساد ما هي إلّا فكرة ولدت ميتة، وما كان لها أن تنشطَ لولا القرارُ السياسي، والمباركة التي تلقتها من الحكومة. ولكن لم تخلقْ دائرة التحقيق في الممارسات الفاسدة نتيجة لحاجة المجتمع لها لمحاربة الحكومة الفاسدة لكنها بالأحرى أُنشئت من قبَل حكومة غير فاسدة لمحاربة الفساد في المجتمع. ولم تكن هذه الدائرة حركةَ مجتمع مدني لمحاربة حكومة فاسدة، ولو كان الأمرُ كذلك لما نجحنا في تحقيق هذا الهدف. وخلافًا للوكالات العديدة التي نمت من الحاجة لمحاربة مؤسسة فاسدة، ما كان لنا أن نعملَ بشكل مناهض للحكومة والخدمة المدنية بكاملها. ولكن هل حركات المجتمع المدني أو المؤسسات الوطنية ضرورية للنجاح في محاربة الفساد في سنغافورة؟ في الحقيقة لم

تكن ضرورية وإلّا لأصبح ذلك اتهامًا لفعالية دائرة التحقيق في الممارسات الفاسدة إذا قُدر لهذه المنظمات أن تترسخ. على أن المنظمة الحكومية الوطنية ما هي إلّا مجرَّدُ أداةٍ في أيدي جماعات الضغط التي أنشأها أولئك الأفراد الساخطون على وضع الفساد الذي استشرى في البلاد.

ونتيجةً لقوة عزيمة القرار السياسي لمحاربة الفساد أصبح ثمة رغبةٌ ملحَّة لإنجاح جهود ومساعي محاربة الفساد. وقد أشارت الحكومةُ إلى هذه الناحية، وقد بدَا ذلك واضحًا من خلال أحكام الحكومة لسيطرتها الكاملة على الحركة المُناهضة للفساد، وأصبحت دائرةُ التَّحقيق في الممارسات الفاسدة تتبع مباشرةً لرئيس الوزراء حتَّى تقطع الطريق على أية تدخُّلات غير لائقة. وبوضْعها تحتَ حماية ورعاية مكتب رئيس الوزراء تمكنت دائرة التحقيق في الممارسات الفاسدة من أن تعملَ بدون خوف أو تحيز أو محاباة لأية جهة. وفي الحقيقة في عام 1992 أصبحت الدائرةُ مستقلَّة في أدائها الذي كفله لها الدستور، وتمكَّنت من اتخاذ بعض الإجراءات ضدَّ بعض الوزراء وموظفي الخدمة المدنية.

إنَّ العبء الذي تنطوي عليه فرضيتي، هو أنَّ الأمر يصبح أكثرَ سهولة عندما تكون لدينا حكومة جيدة ونظيفة تدير نظامًا جيدًا ونظيفًا من أنْ تكون لدينا وكالةٌ جيدة مُناهضة للفساد يوكَل لها تنظيفُ حكومة فاسدة ونظامًا فاسدًا، ففي الحالةِ الأخيرة تكون النتيجة متوقَّعة تقريبًا، ومن الأرجح أن تنجحَ الوكالة المناهضة للفساد بشكل حسن في أداء مهامِّها. ومن الواضح أنَّ أغلب الحكومات سيكون لديها قدرٌ كاف من السلطة للهيمنة حتَّى على أقوى الوكالات والأكثر مناهضة للفساد، وبذلك يمكنها أن تفسدَ الجهود التي تقوم بها أيةُ وكالة مناهضة للفساد. ولهذا فنحن في دائرة التحقيق في الممارساتِ الفاسدة بمقدورنا أن نصبح أكثرَ

فعالية بالقدر والكيفية التي ترغب فيها الحكومة، فدائرة التحقيق لديها الهياكلُ والأنظمة والإجراءات إذا سمحَ لها أن تعمل وأُعطيتِ البيئة التشغيلية الصحيحة التي يخلقها القرار السياسي القوي.

لقد نجحنا إلى حدٍّ كبير في تنفيذ قرار الحكومة، وقد ساعدنا في خلقِ نظام قوي مناهض للفساد، وكذلك بغضِّ الشعب والمجتمع لهذا الفساد، ومهما يكنْ من أمر، فهذا لا يعني أنَّنا قد وصلنا لنهاية المطاف آخذين في الاعتبار أن الإنسانَ غيرُ معصوم عن الخطأ. إنَّ الإنسان بطبعه مولَع بالاكتساب، خاصَّة الأشياء التي يمتلكها الآخرون. وبينما نجد أنَّ غالبية الناس يتوافقون مع النظام، إلّا أنَّ هناك القلة المخالفة للنظام التي تجد في ذلك ضرورة لإشباع جشعها أو رغباتها.

إذًا، هل هناك من معادلةٍ بسيطة للسيطرة على الفساد؟ قال أحدُ المسئولين الصينيين القدماء ذاتَ مرة: إنَّ الفساد هو نتاجُ رجال فاسدين وقوانين فاسدة. فإذا كانت هذه المقولةُ صحيحة فالمعادلة بسيطة، وبمعنى آخر فالتصحيح بسيط.. رجال صالحون وقوانين صالحة، فليكن لدينا رجالٌ صالحون في الحكومة، وليحمهم القرارُ السياسي، وعندئذ سيكون لديهم الدافعُ الكافي بوصفهم حملة الرسالة المناهضة للفساد لسنِّ ووضع القوانين الصارمة الرادعة للمخالفين. إذا حاد بعضُ الضّالين عن الجادةِ يمكن تقويمهم والاستفادةُ منهم من خلال القوانين الملائمة حتَّى يصبحوا مواطنين صالحين).

شعوبٌ مُستهلِكة.. مُستهلَكة

الإنسانُ مخلوقٌ فريد.. خلقه الله سبحانه من طين، ونفخ فيه مِن روحه، وخلق الكونَ من أجله.. حفنةُ الطين تجذبه إلى الأرض التي خُلق من ترابها.. ونفخةُ الروح تجذبه إلى خالقه وترتقي به إلى عليّين.. وبين حفنة الطين ونفخةِ الروح يعيش الإنسانُ بجسده وعقله وروحه، نتفاعل فيه مكوِّناته، ويطالبه عمله في الأرض كلّ لحظة من حياته أنْ يضبط هذا الميزان، ويقيم الوزن بالقسط ولا يخسر الميزان.

وفي نفخةِ الروح تلك تكمنُ القوة الحقيقية للإنسان فليسَ هناك على وجْه الأرض من قوة تضاهيها.. فالإنسان بذلك يصبح الوعاءَ المتلقي لتلك القوة، وهناك مواصفاتٌ وخصائص تجعل وعاءً أقدر وأجدر وأحقّ من غيره أن يتلقى ذلك الفيض من القوة والنور والتوفيق والإلهام الرباني.

وهناك قواعدُ ربّانية وسُنن كونية تجعل الوعاءَ ينعم بالصفاء، وبذلك يصبح أقرب للاصطفاء.

فإذا مثّلنا حالَ الإنسان بوعاءٍ زجاجي شفّاف فيه الطينُ والماء، الطين في القاع ينجذب إلى الأرض ويملأ من الوعاء على قدْر ما فيه من تراكم ترابِ الدنيا.. والماءُ يملأ للأعلى فالأعلى.. وكلّما زادت نسبةُ الطين قلت نسبة الماء.

وعلى قدر التصالح بينَ الجسد والروح يكون استقرارُ وركود طبقةِ الطين في الأسفل وصفاءُ طبقة الماء.. وعلى قدر هذا الصفاء يكون الاصطفاء.

وممّا يزيد من نسبةِ الطين التهالكُ على الدنيا، والعيشُ وراءَ اللذة والمتعة حتّى يصبح الإنسان جُلُّ حاله وحياتُه مُستهْلِكًا مُستهْلَكًا.

إذا أردت أن تقتلَ مجتمعًا وتضعفه وتُنْهكه وتفقده الاتصالَ بمصدر القوة الحقيقي على وجه الأرض فاجعل تقييمَ الناس للناس فيه مِن خلال ما يستهلكون لا على أساس ما ينتجون (Consumption Based value driven).

نعم، عندما يُربَّى المجتمع على أنَّ قيمة الإنسان فيه تُقاس بما يستهلك لا ما ينتج، تموت في المجتمع أهمُّ خصائص نجاحه.

وعندما تكون قيمةُ الإنسان فيما يلبس وما يأكل وما يشرب، وعندما تكون قيمةُ الرجل في البيت الذي يقطنه، والسيارة التي يقودها.. وعندما تكون قيمةُ المرأة في ما ترتدي من ملابس ومجوهرات، عندها تصبح لغة المجتمع هذا، ولسانُ حاله يقول: (قيمتك يا أيُّها الإنسان هي ما تستهلِك).

وعندما تصبح هذه هي اللغةُ السائدة في أيِّ مجتمع كان، تموتُ فيه روح الإنجاز والإبداع.. ويموت بذلك روح حبِّ العمل، وعندما ينشأ الجيلُ منذ نعومة أظفارهم على هذه اللغة والمفهوم الفاسد تتكوّن لديهم عقيدة متأصلة يؤمنون بها ويطبّقونها في تقييمهم الخاطئ للبشر.. فلا عجبَ أن نرى الشبابَ يتهالكون في التنافس على الاستهلاك ليزيدوا من قيمتِهم باللغة والمفهوم السائد كما عرّفها لهم مجتمعهم.

ليسَ كلّ امرأة ثرية غنيةً.. وليس كلّ رجل ثري غنيًّا. إنَّ المرأة الغنية هي تلك التي تدرك أن معنى الغنى لا يتحقق إلّا بغنى نفسها وغناها عنْ نظرة إعجابِ الناس لما تلبس وتقتني من زينةِ الدنيا وزخرفها، أمّا أن تلهث وراء إرضاء أعين الناس ففي هذا تجسيدٌ لفقرها رغم ثرائها.

وليسَ عليها أن تدرك الغنى إلّا أن تُسخّر ثراءها وتجنّده لخدمة القضايا السامية في مجتمعها لتصبح كلّ قضية قلادة ووسامًا على

صدرها تمشي به بينَ الناس وتشهد عليه ملائكةُ السماء، وعندها برتقي الثراء ليصبح غنى.. وكذلك الحالُ في الرجل والانتقال من الثراءِ إلى الغنى باختلاف الصور والأمثلة التي تجسد المعنى السابقَ على واقع الحياة.

ولا نقول هنا إنَّ الاستهلاك مذموم، وإنّما لا بدَّ أن ينضبطَ باثنتين بالنيَّة والاعتدال، فالأصلُ في المال أن يسخر لخير البشرية ونمائها وإدخال السعادة والبسمة في قلوب الناس، عبادة يحبُّها الله (إنما الأعمال بالنيات) (208) دون إسراف ﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسرِفِينَ﴾ (207) ومَن صلحت نيتُه، وامتلك أدواتِ الحكم على الأمور، وإقامة الوزن في الأعمال هُدي إلى العدل والصواب وأصاب الحق.

إنَّ الاستهلاك بنيةِ التهالك على الدنيا، وإشباع الملذات والشهوات يُبدّد نشاطَ الجوارح لمخالفتها لما خلقت من أجله.. ولولا أمرُ الله لها بإطاعةِ الإنسان الذي هي فيه لحاولت الانفلات أو الرفض أو الانقلاب على صاحبها. كما أنه يضعفُ العقل الذي يصبح إلهُه هواه فيضلّ وإنْ كان على علم.. قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللّهُ عَلَى عِلْمٍ..﴾ (206)، كما أنه يميتُ القلب الذي يُغذّى بغير الذي يشبعه فيصبح كالظمآن يجري وراءَ السراب وليس ثمة ماء.

أمّا الإنتاجُ المقرون بالنية الصالحة فإنه يجدِّد نشاط الجوارح التي تتوق لتسبيح خالقها من خلال سجودها في محراب الحياة، كما أنه يشحذُ العقل ويقوّيه ويزيد من حلاوةِ التحدّي والإصرار والعزيمة، ويملأ القلب سعادة وطمأنينة وسكينة ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (205) وهل يُذكر اللهُ

بأفضل من أن يصبح الإنسان قرآنًا يمشي على الأرض بأعماله الصالحة وعمارته للأرض ونفعه للناس!

إنَّ رأس المال الحقيقي لأيِّ مجتمع يكمن هناك بعيدًا عن الأنظار، ليس تحتَ تراب الأرض من موارد طبيعية وإنما في عقلِ وفكر إنسان المجتمع ونظرته للإنتاج والاستهلاك، والذي يُكوّن ما يسمَّى بلغة المجتمع والقاعدة الفكرية التي يرتكزُ عليها في تحديد أولويات نشاطاته وحركته، وليس هناك أقيمُ في إحراز قدرٍ من النجاح من إعادة توجيه إنسان المجتمع للقيام بدوْره الرئيس على وجْه هذه الأرض من عمارتها كما يحبّها الله أن تعمر، والفهم العميق والتطبيق الدقيق لمفهوم وظيفته الحقيقية بأن يستشعرَ أنّه مُستخلف في ماله وعمرِه وصحته، وأنَّ كلّ ما آتاه الله من أمانات لا يملكها، وإنّما أُعيرت إليه كعابرِ سبيل لا يبقى له منها إلّا ما أنتج وأعْمر وأصْلح واستثمرَ في البلاد والعباد، وأن كلّ ما استهلك فهو فانٍ إلّا ما صَلحت فيه النية، ونفع الناس، وأصاب صاحبه فيه الاعتدال بدون إفراط ولا تفريط.

---

(208) جزء من حديث، متفق عليه.

(207) سورة الأنعام، من الآية 141.

(206) سورة الجاثية، من الآية 23.

(205) سورة الرعد، من الآية 28.